# الأعمال الجديدة الكاملة

# محمود درويش

## ٢

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

طبعة جديدة

الأعمال الجديدة

محمود درويش

# الأعمال الجديدة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES
BOOKS

*THE NEW COMPLETE WORKS*

**(2)**

**By Mahmoud Darwich**

First Published in January 2009
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
info@elrayyesbooks.com . www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-398-4

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩

# المحتويات


| | |
|---|---|
| سرير الغريبة | ٩ |
| كزهر اللوز، أو أبعد | ١٥٧ |
| في حضرة الغياب | ٣٥١ |
| أثر الفراشة | ٥٢٩ |

# سرير الغريبة

# القصائد


| | |
|---|---|
| كان ينقصنا حاضر | ١٥ |
| سوناتا [I] | ٢٢ |
| سماء منخفضة | ٢٥ |
| نمشي على الجسر | ٣٠ |
| ليلك من ليلك | ٣٥ |
| سوناتا [II] | ٣٧ |
| وقوع الغريب على نفسه في الغريب | ٣٩ |
| غيمة من سدوم | ٤٢ |
| شادنا ظبية توأمان | ٤٥ |
| سوناتا [III] | ٤٨ |
| خذي فرسي واذبحيها... | ٥٠ |
| أرض الغريبة/ أرض السكينة | ٥٣ |
| حليب إنانا | ٥٧ |
| سوناتا [IV] | ٦٢ |
| لا أقلّ ولا أكثر | ٦٤ |

أغنية زفاف ٦٩
تدبير منزلي ٧٣
سوناتا [V] ٧٧
طائران غريبان في ريشنا ٧٩
لم أنتظر أحداً ٨٣
جفاف ٨٧
سوناتا [VI] ٩٠
رزق الطيور ٩٢
ربما، لأن الشتاء تأخر ٩٦
من أنا، دون منفى؟ ١١٦
أنا، وجميل بثينة ١٢٠
قناع لمجنون ليلى ١٢٥
درس من كاما سوطرا ١٢٩
طوق الحمامة الدمشقي ١٣٣

كُتبت هذه المجموعة
في عامي ١٩٩٦ ـ ١٩٩٧

# كان ينقصنا حاضر

لِنَذْهَبْ كما نَحْنُ:
سيِّدةً حُرَّةً
وصديقاً وفيّاً،
لنذهبْ معاً في طريقَينِ مُخْتَلِفَينْ
لنذهَبْ كما نحنُ مُتَّحِدَيْن
ومُنْفَصِلَيْن،
ولا شيءَ يُوجِعُنا
لا طلاقُ الحمام ولا البردُ بين اليَدَيْن
ولا الريحُ حول الكنيسة تُوجِعُنا...

لم يكن كافياً ما تفتَّح من شَجَر اللوز
فابتسمي يُزْهِرِ اللوزُ أكثرَ
بين فراشات غمازَتَيْنْ.

وعمَّا قليلٍ يكونُ لنا حاضرٌ آخَرٌ
إن نَظَرْتِ وراءك لن تبصري
غيرَ منفى وراءك:
غُرْفَةُ نومِكِ،
صفصافةُ الساحةِ،
النهرُ خلف مباني الزجاج،
ومقهى مواعيدنا... كُلُّها، كُلّها
تَسْتَعِدُّ لتصبح منفىً، إذاً
فلنكن طيّبين!

لِنَذْهَبْ كما نَحْنُ:

إنسانةً حُرّةً
وصديقاً وفيّاً لناياتها،
لم يكن عُمْرُنا كافياً لنشيخ معاً
ونسيرَ إلى السينما متعبين
ونَشْهَدَ خاتمةَ الحرب بين أَثينا وجاراتها
ونرى حفلة السلم ما بين روما وقرطاج
عمَّا قليل.
فعمَّا قليلٍ ستنتقل الطَيْرُ من زَمَنٍ نحو آخرَ،
هل كان هذا الطريقُ هباءً
على شَكْلِ معنى، وسار بنا
سَفَراً عابراً بين أسطورتين
فلا بُدَّ منه، ولا بُدَّ منا
غريباً يرى نَفْسَهُ في مرايا غريبته؟
«لا، ليس هذا طريقي إلى جَسَدي
«لا حُلول ثقافيَّةً لـهُمُومٍ وُجوديَّةٍ

«أَينما كنتَ كانت سمائي
حَقِيقيَّةً
«مَنْ أَنا لأُعيد لَكَ الشَمْسَ والقَمَرَ السابقين
فلنكن طيِّبين ...

لنذهبْ، كما نحن:
عاشقةً حُرَّةً
وشاعِرَها.
لم يكن كافياً ما تساقط من
ثلج كانون أَوَّلَ، فابتسمي
يندف الثلج قطناً على صلوات المسيحيِّ،
عمَّا قليلٍ نعود إلى غَدِنا، خَلْفَنا،
حَيْثُ كُنَّا هناك صغيرين في أوَّل الحب،
نلعب قصة روميو وجولييت
كي نتعلَّم مُعْجَمَ شكسبير...

طار الفَرَاشُ مِنَ النَوْمِ
مثل سرابِ سلامٍ سريع
يُكَلِّلُنا نجمتين
ويَقتلُنا في الصراع على الاسم
ما بين نافذتين
لنذهب، إذاً
ولنكن طيِّبين

لِنَذْهَبْ، كما نَحْنُ:
إنسانةً حُرَّة
وصديقاً وفيّاً،
لنذهَبْ كما نحن. جئنا
مَعَ الريح من بابلٍ
ونسيرُ إلى بابلٍ ...
لم يَكُنْ سَفَرِي كافياً
ليصير الصَنَوْبَرُ في أَثَري

لفظةً لمديح المكان الجنوبيِّ
نحن هنا طَيِّبونَ. شَماليَّةٌ
ريحُنا، والأغاني جَنُوبيَةٌ
هل أَنا أَنتِ أُخرى
وأَنت أَنا آخر؟
«ليس هذا طريقي إلى أرض حُريَّتي
ليس هذا طريقي إلى جَسَدي
وأَنا، لن أكون «أنا» مَرَّتين
وقد حلَّ أَمسِ مَحَلَّ غدي
وانقَسَمْتُ إلى ٱمرأتين
فلا أَنا شرقيَّةٌ
ولا أنا غربيَّةٌ،
ولا أَنا زيتونةٌ ظَلَّلَتْ آيَتَيْنْ
لِنَذْهَبْ، إذاً.
«لا حلولَ جماعيَّةً لهواجسَ شخصيَّةٍ
لم يكن كافياً أَن نكون معاً

لنكون معاً...
كان ينقُصُنا حاضرٌ لنرى
أَين نحن. لنذْهَبْ كما نحن،
إنسانةً حُرَّةً
وصديقاً قديماً
لنذهبْ معاً في طريقين مختلفين
لنذهب معاً،
ولنكن طيّبين...

# سوناتا [I]

إذا كُنْتِ آخرَ ما قالَهُ اللهُ لي، فليكُنْ
نزولُك نُونَ الــ «أَنا» في الـمُثَنَّى. وطوبى لنا
وقد نَوَّر اللوزُ بَعْدَ خُطَى العابرين، هنا
على ضفتيك، ورفَّ عليك القطا واليمامُ

بقَـرْنِ الغزال طَعَنْتِ السماء، فسال الكلامُ
ندى في عروق الطبيعة. ما ٱسمُ القصيدةْ
أَمام ثُنَائيَّة الـخَلْقِ والحق، بين السماء البعيدة
وأَرْزِ سريركِ، حين يحنُّ دَمٌ لدمٍ، ويئنُّ الرخامُ؟

ستحتاجُ أسطورةٌ للتشمُّس حولك. هذا الزحامُ
إلٰهاتُ مِصْرَ وسُومَرَ تحت النخيل يُغيِّرن أَثوابهنَّ
وأَسماءَ أَيامهن، ويُكْملن رحلاتهنَّ إلى آخر
القافية...

وتحتاج أنشودتي للتنفُّسِ: لا الشعرُ شعرٌ
ولا النثرُ نثرٌ. حلمت بأنَّكِ آخرُ ما قالَهُ
ليَ اللهُ حين رأيتكما في المنام، فكان الكلامُ...

# سماء منخفضة

هُنَالِكَ حُبٌّ يسيرُ على قَدَمَيْهِ الحَرِيرِيَّتَيْنْ
سعيداً بغُرْبَتِهِ في الشوارع،
حُبٌّ صغيرٌ فقيرٌ يُبَلِّلُهُ مَطَرٌ عابرٌ
فيفيض على العابرين:
«هدايايَ أكبرُ منّي
كُلُوا حِنْطَتي
وٱشربوا خَمْرَتي
فسمائي على كتفيَّ وأَرضي لَكُمْ...

هَلْ شَمَمْتِ دَمَ الياسمينِ المَشَاعَ
وفكَّرْتِ بي
وانتظرتِ معي طائراً أَخضرَ الذَيْلِ
لا ٱسْمَ لَهُ؟

هُنَالِكَ حُبٌّ فقيرٌ يُحدِّقُ في النهرِ
مُسْتَسْلِماً للتداعي: إلى أَين تَرْكُضُ
يا فَرَسَ الماءِ؟
عما قليل سيمتصُّكَ البحرُ
فامش الهوينى إلى مَوْتكَ الاختياريِّ،
يا فَرَسَ الماء!

هل كنتِ لي ضَفَّتَيْنْ
وكان المكانُ كما ينبغي أن يكون
خفيفاً خفيفاً على ذكرياتِكِ؟

أَيَّ الأغاني تُـحِبِّينَ
أيَّ الأغاني؟ أَتلك التي
تتحدَّثُ عن عَطَشِ الـحُبِّ،
أَمْ عن زمانٍ مضى؟

هنالك حُـبّ فقير، ومن طَرَفٍ واحدٍ
هادىءٌ هادىءٌ لا يُـكَسِّرُ
بِلَّوْرَ أَيَّامِكِ الـمُنْتَقَاةِ
ولا يُوقدُ النارَ في قَمَرٍ باردٍ
في سريرِكِ،
لا تشعرينَ بهِ حينَ تبكينَ من هاجسٍ،
رُبَّما بدلاً منه،
لا تعرفين بماذا تُـحِسِّين حين تَضُـمِّينَ
نفسَكِ بين ذراعيكِ!
أَيَّ الليالي تريدين، أيَّ الليالي

وما لوْنُ تِلْكَ العيونِ التي تحلُمينَ
بها عندما تحلمين؟
هُنَالِكَ حُبٌّ فقيرٌ، ومن طرفين
يُقَلِّلُ من عَدَد اليائسين
ويرفَعُ عَرْشَ الحَمَام على الجانبين.
عليكِ، إذاً، أَن تَقُودي بنفسِكِ
هذا الربيعَ السريعَ إلى مَنْ تُحبِّينَ
أَيَّ زمانٍ تريدين، أَيَّ زمان
لأُصبحَ شاعِرَهُ، هكذا هكذا: كُلَّما
مَضَتِ امرأةٌ في المساء إلى سرِّها
وَجَدَتْ شاعراً سائراً في هواجسها.
كُلَّما غاص في نفسه شاعرٌ
وَجَدَ امرأةً تتعرَّى أَمام قصيدتِهِ...

أَيَّ منفىً تريدينَ؟

هل تذهبين معي، أَمْ تسيرين وَحْدَكِ
في ٱسْمك منفىً يُكَلِّلُ منفىً
بِلأْلاَئِهِ؟

هُنَالِكَ حُبٌّ يَمُرُّ بنا،
دون أَن نَنْتَبِهْ،
فلا هُوَ يَدْري ولا نحن نَدْري
لماذا تُشرِّدُنا وردةٌ في جدارٍ قديم
وتبكي فتاةٌ على مَوْقف الباص،
تَقْضِمُ تُفَّاحَةً ثم تبكي وتضحَكُ:
«لا شيءَ، لا شيءَ أكثر
من نَحْلَةٍ عَبَرَتْ في دمي...

هُنالِكَ حُبّ فقيرٌ، يُطيلُ
التأمُّلَ في العابرين، ويختارُ

أَصغَرَهُمْ قمراً: أَنتَ في حاجةٍ
لسماءٍ أَقلَّ ارتفاعاً،
فكن صاحبي تَتَّسعْ
لأَنانيَّةِ ٱثنين لا يعرفان
لمن يُهْدِيانِ زُهُورَهُما ...
رُبَّما كان يَقْصِدُني، رُبَّما
كان يقصدُنا دون أَن نَنْتَبِهْ

هُنَالِكَ حُبّ ...

# نمشي على الجسر

تُصابين، مثلي، برحلةِ طَيْرِ
ويحدُثُ ذلك بعد الظهيرةِ،
حيث تقولين: خُذْني إلى النهرِ
يا أَجنبيٌّ، إلى النهر خذني
فإنَّ طريقي على ضَفَّتَيْكَ طويلُ

ونُصغي إلى ما يَقُولُ المُشَاةُ
على الجسر:
«لي عَمَلٌ آخرٌ غيرُ هذا،

«ولي مقعدٌ في السفينة
«لي حصَّةٌ في الحياة
«وأَمَّا أَنا،
فعليَّ اللحاقُ بمترو الضواحي
«تأخَّرتُ عن ذكرياتي
وعن موعد الساكسفون،
وَلَيْلي قليلُ

ونُصغي إلى ما بنا من حنينٍ خفيّ
إلى شارعٍ غامضٍ: لي حياتي هناك
حياتي التي صنعَتْها القوافلُ وانصرَفَتْ،
وهنا لي حياتي على قَدْر خبزي
وأَسئلتي عن مصيرٍ يُعَذِّبُه حاضرٌ
عابرٌ، وغَدٌ فوضويٌ جَميلُ

صدىً للصدى، أَيُّنا قال هذا الكلام، أَنا
أَمِ الأَجنبيَّةُ؟ لا أَحَدٌ يستطيعُ
الرجوع إلى أَحد. تصنع الأَبديَّةُ
أَشغالها اليدويَّةَ من عمرنا وتُعَمِّرُ...
فليكُنِ الحُبُّ ضرباً من الغَيْبِ، وليكُنِ
الغيبُ ضرباً من الحُبِّ. إني عجبتُ
لمن يعرفُ الحبَّ كيف يُحِبُّ! فقد
يتعَبُ الحُبّ فينا من الانتظار ويمرَضُ،
لكنَّهُ لا يَقُولُ

لدى غدنا ما سيكفي من الوقت، يكفي
لنمشي على الجسر عَشْرَ دقائقَ أُخرى،
فقد نتغيَّرُ عما قليلٍ وننسى ملامح
ثالثِنا/ الموتِ، ننسى الطريقَ إلى البيت
قرب السماء التي خذلتنا كثيراً،

خذيني إلى النهر، يا أَجنبيَّةُ،
قد نتغيَّر عمَّا قليل. وقد يحدثُ
المستحيلُ

كما في الكتابة، يأتي الضروريُّ
في حينه قمراً أُنثوياً لملء فراغ
القصيدة. لا تتركيني تماماً، ولا
تأخذيني تماماً. ضعي في المكان الصحيح
الزمانَ الصحيح. فأنتِ السبيلُ وأَنتِ الدليلُ

بلاد حقيقيَّةٌ، لا مجاز، ذراعاك
حولي... هنالك قرب الكتاب المُقَدَّس
أَو هٰهنا. أَيُّنا قال: قد تحفَظُ
اللغةُ الأَرضَ مما يُلِمُّ بها من
غيابٍ إذا انتصر الشعرُ؟ مَنْ

قال منا: سأنسى، وأَغفر للقلب
أكثر من خطأ واحد، كلما طال
هذا الرحيلُ...

# ليلُكِ من ليلكٍ

يجلسُ الليلُ حيث تكونين. ليلُك من
لَيْلَكٍ. بين حين وآخرَ تُفْلتُ إيماءةٌ
من أَشعَّة غـمَّازتَيْك فتكسر كأسَ النبيذ
وتُشْعل ضوء النجوم. وليلُك ظِلُّكِ ـ
قطعةُ أرضٍ خرافيَّةٍ للمساواة ما بين
أَحلامنا. ما أَنا بالمسافر أَو بالـمُقيم على
لَيْلِكِ الليلكيِّ، أَنا هُـوَ مَنْ كان يوماً
أَنا، كُلَّما عَسْعَسَ الليلُ فيك حَدَسْتُ
بمَنْزِلَةِ القلب ما بين مَنْزِلَتَيْنْ: فلا

النفسُ ترضى، ولا الروحُ ترضى. وفي
جَسَدَيْنا سماءٌ تُعانق أَرضاً. وكُلُّك
ليلُكِ... لَيْلٌ يشعُّ كحبر الكواكب. لَيْلٌ
على ذمَّة الليل، يزحف في جسدي
خَدَراً كنُعاس الثعالب. ليل ينثُّ غموضاً
مضيئاً على لُغَتي، كُلَّما اتَّضَحَ ٱزدَدْتُ
خوفاً من الغد في قبضة اليد. ليلٌ
يُحدِّقُ في نفسه آمناً مطمئناً إلى لا
نهاياته، لا تحفُّ به غيرُ مرآته
وأَغاني الرُعاة القُدَامى لصيف أَباطرةٍ
يمرضون من الحبِّ. ليل ترعرع في شِعْرِهِ
الجاهليِّ على نزوات ٱمرىء القيس والآخرين،
ووسَّع للحالمين طريقَ الحليب إلى قمرٍ
جائعٍ في أَقاصي الكلامْ...

# سوناتا [II]

لعلَّكِ حين تُديرينِ ظِلَّكِ للنهر لا تطلبين
مِنَ النهر غيرَ الغُموض. هُناكَ خريفٌ قليلْ
يَرُشُّ على ذَكَرِ الأَيّلِ الماءَ من غيمةٍ شاردةْ
هُناكَ، على ما تَرَكْتِ لنا من فُتَاتِ الرحيلْ

غموضُك دَرْبُ الحليب. غبارُ كواكبَ لا ٱسم لها
وَلَيْلٌ غُمُوضُكِ في لُؤْلُؤ لا يُضيءُ سوى الماء،
أَمَّا الكلامُ فمن شأنه أَن يضيء بمفردةٍ واحدةْ

«أُحبُّكِ» لَيْلَ المهاجر بين مُعَلَّقَتَيْنْ وَصَفَّيْ نخيلْ

أَنا مَنْ رأى غَدَهُ إذْ رآكِ. أَنا مَنْ رأى
أَناجيلَ يكتبها الوثنيُّ الأَخيرُ على سفحِ جلعادَ
قبل البلادِ القديمةِ أَو بعدها. وأنا الغيمةُ العائدةْ
إلى تِينَةٍ تحملُ ٱسمي، كما يحملُ السيفُ وَجْهَ القتيلْ

لعلَّكِ، حين تُديرين ظلَّك لي، تمنحين المجاز
وقائعَ معنىً لما سوف يحدث عمَّا قليلْ...

# وقوع الغريب
# على نفسه في الغريب

واحدٌ نحن في اثنين/
لا اسمَ لنا، يا غريبةُ، عند وُقُوع
الغريب على نفسه في الغريب. لَنَا من
حديقتنا خلفنا قُوَّةُ الظلِّ. فلتُظْهري
ما تشائين من أرض ليلك، ولتُبْطِني
ما تشائين. جئنا على عَجَلٍ من غروب
مكانين في زمن واحد، وبحثنا معاً
عن عناويننا: فاذهبي خَلْف ظلِّك،

شَرْقَ نشيد الأَناشيد، راعيةً للقطا،
تجدي نجمةً سَكَنَتْ موتها، فاصعدي جَبَلاً
مُهْمَلاً تجدي أَمسِ يُكْمِلُ دورتَهُ في غدي.
تجدي أَين كنا وأَين نكون معاً،
واحدٌ نحن في ٱثنين/
فاذهب إلى البحر، غَرْبَ كتابك،
واغطُسْ خفيفاً خفيفاً كأَنَّك تحمل
نَفْسَكَ عند الولادة في موجتين،
تجدْ غابةً من حشائش مائيةٍ وسماءً
من الماء خضراءَ ، فاغطسْ خفيفاً
خفيفاً كأنك لا شيء في أَيِّ شيء،
تجدنا معاً...
واحدٌ نحن في ٱثنين/
ينقُصُنا أَن نرى كيف كنا هنا، يا
غريبةُ، ظلِّين ينفتحانِ وينغلقانِ على ما

تشكَّل من شكلنا: جَسَداً يختفي ثم يظهَرُ
في جَسَدٍ يختفي في التباس الثنائية
الأَبدية. ينقُصُنا أَن نعودَ إلى ٱثنين
كي نتعانق أكثر. لا اسم لنا يا غريبة
عند وقوع الغريب على نفسه في الغريب!

# غيمة من سدوم

بَعْدَ لَيْلِكِ، ليلِ الشتاء الأَخير
خَلاَ شارعُ البحر من حَرَسِ الليل،
لا ظلَّ يتبعُني بعدما جَفَّ لَيْلُكِ
في شمس أُغنيتي. مَنْ يقول لي
الآن: دعك من الأَمس واحْلُمْ بكامل
لا وعيك الـحُرِّ؟
حُرّيتي تجلس الآن قربي، معي، وعلى
ركبتيَّ كقطٍ أليف. تُحدِّق بي وبما
قد تركتِ من الأمس لي: شالكِ

الليلكيَّ، شرائطَ فيديو عن الرقص بين الذئاب، وعقداً من
الياسمين على طُحْلُب القلب...

ماذا ستصنع حُرِّيتي، بعد ليلك،
ليل الشتاء الأَخير؟
«مَضَتْ غَيْمَةٌ من سَدُومَ إلى بابلٍ،
من مئات السنين، ولكن شاعرها «بول
تسيلان» ٱنتحر، اليومَ، في نهر باريس.
لن تأخذيني إلى النهر ثانية. لن يسائلني
حارسٌ: ما ٱسمُكَ اليومَ؟ لن نَلْعَنَ
الحربَ. لن نَلْعَنَ السلْمَ. لن نتسَلَّقَ سُورَ
الحديقة بحثاً عن الليل ما بين صفصافتين
ونافذتين، ولن تسأليني: متى يفتح
السِلْمُ أَبوابَ قلعتنا للحمام؟

بعد ليلك، ليل الشتاء الأخير
أقام الجنودُ معسكرهم في مكان بعيد
وحطَّ على شرفتي قمر أبيض
وجلست وحُرّيتي صامتين نُحَدِّقُ في ليلنا
مَنْ أَنا؟ مَنْ أنا بعد لَيْلِكِ
ليلِ الشتاءِ الأَخير؟

# شادنا ظبية توأمان

مساءً، على نَمَش الضوء ما بين
نهديك، يقتربُ الأَمسُ والغدُ مِنِّي.
وُجِدْتُ كما ينبغي للقصيدة أَن تُوجَدَ...
ألليلُ يُولَدُ تحت لِحَافِك، والظلُّ
مُرْتَبِكٌ هٰهنا وهنالك بين ضفافك
والكلماتِ التي أَرْجَعَتْنا إلى نَبْرِها:
«وضعتُ يميني على شَعْرِها
وشِمالي على شادِنَيْ ظَبْيَةٍ توأمين
وَسِرْنا إلى لَيْلنا الخاصِّ...»

هل أَنتِ حقاً هنا؟ أَم أَنا
عاشقٌ سابقٌ يتفقَّدُ أَحوالَ ماضِيهِ؟
نامي على نفسك المطمئنَّةِ بين
زُهُور الملاءات. نامي يداً فوق صدري
وأُخرى على ما سيَنْبُتُ من زَغَبٍ لِفِراخ
اليمامات. نامي كما ينبغي للحديقة من
حولنا أَن تنام... امتلأنا بأَمسِ،
امتلأنا بوسواس جيتارةٍ لا سرير لها.
يا لها... مِنْ فَتَاةٍ خُلاَسيَّةٍ تبعت ظلَّها.
يا لها... من هياجٍ يُمزِّقُ ما يتناثر من
وَرَقِ الورد حول السياج. فنامي
على نَفَسي نَفَساً ثانياً قبل أَن يفتح
الأَمسُ نافذتي كُلَّها. ليس لي طائرٌ
وطنيٌّ، ولا شَجَرٌ وطنيٌّ، ولا زَهْرَةٌ
في حديقة منفاك. لكنني ــ ونبيذي

يُسَافِرُ مثلي ــ أُقاسِمُكِ الغَدَ والأَمس.
لولاك لولا الرذاذُ الذي يتلألأ في نَمَش
الضوء ما بين نهديك، لانحرفتْ لُغتي
عن أُنوثتها. كم أَنا والقصيدة أُمُّك،
وأبناك، نغفو على شَادِنَيْ ظَبْيَةٍ
تَوْأَمَيْنْ!

# سوناتا [III]

أُحبُّ من الليل أَوَّلَهُ، عندما تأتيان معا
يداً بيد، ورويداً رويداً تَضُمَّانِني مَقْطَعاً مقطعا
تطيران بي، فوق. يا صاحبيَّ أَقيما ولا تُسْرِعا
وناما على جانبيَّ كمثل جناحيْ سُنُونُوَّة مُتْعَبَهْ

حريرُكما ساخِنٌ. وعلى الناي أَن يتأنَّى قليلا
ويصقُلَ سُوناتَةً، عندما تقعان عليَّ غموضاً جميلا
كمعنى على أُهْبَةِ العُرْيِ، لا يستطيعُ الوصولا

ولا الانتظارَ الطويلَ أَمامَ الكلام، فيختارني عَتَبهْ
أُحبُّ من الشعر عَفْوِيَّةَ النثر والصورةَ الخافيةْ
بلا قَمَرٍ للبلاغةِ: حين تسيرين حافيةً تترُكُ القافية
جِماعَ الكلام، وينكسِرُ الوَزْنُ في ذروة التجربةْ

قليلٌ من الليل قربك يكفي لأخرج من بابلي
إلى جوهري ــ آخري. لا حديقةَ لي داخلي
وكُلُّكِ أَنتِ. وما فاض منك «أَنا» الحُرَّةُ الطيِّبةْ

# خُذي فرسي
# وٱذبحيها ...

أَنتِ، لا هَـوَسي بالفتوحات، عُرْسي
تَرَكْتُ لنفسي وأقرانها من شياطين نفسِكِ
حُريَّةَ الامتثال لما تطلبين،
خُذي فَرَسي
وٱذبحيها،
لأَمشي مثلَ الـمُحَارِبِ بَعْدَ الهزيمةِ
من غَيْرِ حُلم وحسٍّ ...
سلاماً على ما تُريدين من تَعَبٍ

للأَمير الأسير، ومن ذهبٍ لاحتفال
الوصيفات بالصيف. أَلْفَ سلام عَلَيْكِ
جميعك حافلةً بالـمُريدين من كُلِّ جنٍّ وإنسٍ،
سلاماً على ما صَنَعْتِ بنفسك من
أَجل نفسك: دَبُّوسُ شَعْرِكِ يكسر
سيفي وتُرْسي
وزرٌّ قميصك يحمل في ضَوْئه
لفظةَ السرِّ للطير من كُلِّ جنسٍ،
خُذي نَفَسِي أَخْذَ جيتارَةٍ تستجيبُ
لما تطلبين من الريح. أَندلسي كُلُّها
في يديك، فلا تَدَعي وَتَراً واحداً
للدفاع عن النفس في أَرْض أَندَلُسِي
سوف أُدرك، في زمن آخر،
سوف أدرك أَني انتصرتُ بيأسي
وأَني وجدت حياتي، هنالك

خارجها، قرب أَمسي
خذي فَرسي
وٱذبحيها، لأَحمل نفسيَ حيّاً ومَيْتاً،
بنفسي...

# أرض الغريبة/
# أَرض السكينة

فيَّ، مثلكِ، أَرضٌ على حافَّةِ الأرضِ
مأهُولَةٌ بكِ أَو بغيابكِ. لا أَعرفُ
الأُغنيات التي تجْهَشين بها، وأَنا سائرٌ
في ضبابكِ. فلتَكُنِ الأَرضُ ما
تومئين إليه... وما تفعلينَهْ

جنوبيَّةٌ،
لا تكفُّ عن الدَوَران على نفسها
وعليك. لها موعدانِ قصيرانِ حول

السماء: شتاءٌ وصَيْفٌ. وأَمَّا الربيعُ
وأَطوارُهُ، فَهْوَ شَأْنُكِ وَحْدَكِ.
قُومي إلى أَيَّةِ ٱمرأةٍ فيك تنتشرِ
المرغريتا على كُلّ نافِذَةٍ في المدينهْ

مُذهَّبَةٌ،
مثل صَيْفِ الأميرِ الصغير. وأَمَّا
الخريفُ وتأويلُهُ ذَهَباً مُتْعَباً، فهو
شأني أنا، حين أُطْعِمُ طَيْرَ الكنائسِ
خُبْزي. وأَنسى وأَنتِ تسيرين بين
التماثيل حريَّةَ الحَجَرِ المرمرِيّ، وأَتْبَعُ
رائحةَ المندرينهْ

مسافرةٌ،
حول صُورَتها في مراياكِ: «لا

أُمَّ لي يا ٱبْنَتي فَلِدِيني هنا»
هكذا تَضَعُ الأرضُ في جَسَدٍ سرّها،
وتُزوِّجُ أُنثى إلى ذَكَرٍ. فخذيني
إليها إليكِ إليَّ. هُنَاكَ هُنا. داخلي
خارجي. وخُذيني لتَسْكُنَ نفسي
إليكِ، وأَسْكُنَ أَرضَ السكينهْ

سَمَاوِيَّةٌ،
لَيْس لِي ما أَقولُ عن الأرض فيكِ
سوى ما يقولُ الغريبُ: سَمَاوِيَّةٌ ...
رُبَّما يُخْطِئُ الغُرَباءُ بلفظِ حُروفٍ آراميَّةٍ.
رُبَّما يَصْنَعُون إلٰهَتَهُمْ من مَوَادَّ
بدائيَّةٍ وَجَدوها على ضفَّة النهر،
لكنهُم يُتْقِنُونَ الغناءَ: سماوِيَّةٌ
هٰذِهِ الأرضُ مِثْلُ سَحَابٍ خَفِيفٍ

تَبَخَّرَ من ياسمينهْ

مجازيَّةٌ،
كالقصيدةِ قبل الكتابةِ: «لا أَبَ
لي يا بُنَيَّ، فَلِدْني» تقولُ لِيَ الأرضُ
حين أَمرُّ خفيفاً على الأرض، في
لَيْل بِلَّوْرِكِ المتلالىء بين الفراشات.
لا دَمَ فوق المحاريثِ. عُذْرِيَّةٌ تتجدَّدُ
لا ٱسمَ لما ينبغي أن تكون عليه
الحياةُ سوى ما صَنَعْتِ بروحي وما تصنعينه...

# حليب إنانا

لَكِ التَوْأمانِ: لَكِ النثرُ والشعرُ يَتَّحدان، وأَنتِ
تطيرين من زَمَنٍ نحو آخَرَ، سالمةً كاملةْ
على هَوْدَجٍ من كواكب قَتْلاَكِ ــ حُرَّاسِكِ الطّيبين
وَهُمْ يحملون سماواتِكِ السَبْعَ قافلةً قافلةْ.
رُعاةُ خُيُولِكِ بين نخيلِ يَدَيْكِ ونَهْرَيْكِ يقتربون
مِنَ الماء «أُولى الإلٰهات أكثرُهُنَّ ٱمتلاءً
بنا». خالِقٌ عاشِقٌ يَتَأَمَّلُ أَفعالَهُ، فيُجَنُّ
بها ويَحِنُّ إليها: أَأَفعَلُ ثانيةً ما فَعَلْتُ؟

وكُتّابُ بَرْقِكِ يحترقون بحِبْر السماء، وأَحفادُهُمْ
يَنْشُرون السنونو على مَوْكب السُومريّة...
صاعدةً كانتِ السومريَّةُ، أَمْ نازلة

لَكِ، أَنتِ المَدِيدَة في البَهْوِ
ذاتِ القميص المُشَجَّر، والبنطلونِ
الرماديِّ، لا لمجازك، أوقظُ
برِّيَتي، وأَقولُ لنفسي: سيطلع
من عَتْمتي قَمَرُ...

دَعِي الماءَ ينزلْ من الأُفُق السومريّ
علينا، كما في الأَساطير. إنْ كانَ
قلبي صحيحاً كهذا الزجاجِ المحيطِ بنا
فامْلَئِيهِ بغيمكِ حتى يَعُودَ إلى أَهله
غائماً حالماً كصلاة الفقيرِ. وإنْ كانَ
قلبي جريحاً فلا تَطْعَنيه بقَرْنِ الغزال،

فلم تَبْقَ حول الفُرَات زهورٌ طبيعيَّةٌ
لـحُلُول دمي في الشقائق بعد الحروب.
ولم تَبْقَ في معبدي جَرَّةٌ لنبيذ الإلهاتِ
في سُومَرَ الأَبديَّة، في سُومَرَ الزائلةْ

لَكِ، أَنت الرشيقة في البَهْوِ
ذاتِ اليَدَيْنِ الـحَرِيرِيَّتَيْنِ
وخاصرة اللَـهْوِ،
لا لرموزك،
أُوقظُ بريَّتي، وأَقول:
سأستلُّ هٰذي الغزالَةَ من سِرْبها
وأَطعن نفسي... بها!

لا أُريد لأُغنيَّة أَن تكون سريرك،
فليَصْقُلِ الثورُ، ثورُ العراقِ

الـمُجَنَّحُ قَرْنَيْهِ بالدَهْر والـهَيْكَل الـمُتَصَدِّعِ
في فضّة الفجرِ. ولـيَحْمِـلِ الموتُ آلَتَهُ
المعدنيَّةَ في جَوْقة المنشدين القُدامى
لشمسِ نَبُوخَذنَصَّر. أَما أَنا، المتحدِّر
من غير هذ الزمان، فلا بُـدَّ لي
من حِصَانٍ يُلائم هذا الزفاف. وإنْ كانَ
لا بُدَّ من قَـمَرٍ فَليكُنْ عالياً... عالياً
ومن صُنْعِ بَغْدادَ، لا عربيّاً ولا فارسياً
ولا تدَّعِيهِ الإلهاتُ من حولنا. وليَكُنْ خالياً
من الذكريات وَخَمْرِ الـمُلُوك القدامى،
لِنُكْمِلَ هذا الزفافَ الـمُقَدَّسَ، نكملُهُ يا ٱبْنَةَ
القمر الأبَديِّ هنا في المكان الذي نَزَّلَتْهُ
يداكِ على طَرَفِ الأرض من شُرْفَة الجنَّة الآفلة! ...

لَكِ، أنت التي تَـقْرَئيـنَ

الجريدةَ في البَهْو،
أَنتِ المُصَابةِ بالإنفلُوَنْزا
أَقولُ: خُذِي كأسَ بابُونجٍ ساخنٍ
وَخُذي حَبَّتَيْ «أسبرين»
ليهدأ فيكِ حليبُ إِنانا،
ونعرفَ ما الزَمَنُ الآن
في مُلْتَقَى الرافِدَيْن!

# سوناتا [IV]

بِبُطءٍ أُمسّدُ نومَكِ. يا ٱسمَ الذي أَنا فيهِ
من الـحُلْم نامي. سيلتحِفُ الليلُ أَشجارَهُ، وسيغفو
على أَرضه سيّداً لغيابٍ قليل. ونامي لأَطفو
على نُقَط الضوء ترشَحُ من قَمَرٍ أَحتويه...

يُخيِّمُ شَعْرُكِ فوق رُخَامك بَدْواً ينامون سَهْواً
ولا يحلمون. يُضِيئُك زَوْجا يَمَامِك من كَتِفَيْكِ
إلى أُقحوان منامك. نامي عليك وفيك. عليك
سلامُ السماوات والأرض تفتحُ أَبهاءها لَكِ بَهْواً فبهوا

يُغَلِّفُك النوم بي. لا ملائكةٌ يحملون السرير
ولا شَبَحٌ يُوقِظ الياسمينة. يا ٱسميْ المؤنَّثَ، نامي
فلا نايَ يبْكي على فَرَسٍ هاربٍ من خيامي

كما تحلمين تكونين، يا صَيْفَ أرضٍ شماليَّةٍ
يُخَدِّرُ غاباته الألفَ في سَطْوَةِ النوم. نامي
ولا توقظي جَسَداً يشتهي جَسَداً في منامي

# لا أَقل، ولا أكثر

أَنا ٱمرأةٌ. لا أَقلَّ ولا أَكثرَ
أَعيشُ حياتي كما هِيَ
خَيْطاً فَخَيْطاً
وأَغزِلُ صُوفي لألبسَهُ، لا
لأُكملَ قصَّةَ «هُوميرَ»، أَو شمسَهُ
وأَرى ما أَرى
كما هُوَ، في شَكْلِهِ
بيد أَنِّي أُحدِّقُ ما بين حينٍ
وآخرَ في ظلِّهِ

لأُحِسَّ بنبض الخسارةِ،
فاكتُبْ غداً
على وَرَقِ الأمس: لا صَوْتَ
إلاّ الصدى.
أُحبُّ الغموضَ الضروريَّ في
كلمات المسافر ليلاً إلى ما ٱختفى
من الطير فوق سُفُوح الكلام
وفوق سُطُوح القُرى
أَنا امرأة، لا أَقلَّ ولا أكثرَ

تُطَيِّرُني زَهْرَةُ اللوز،
في شهر آذار، من شرفتي
حنيناً إلى ما يقول البعيدُ:
«ٱلمسيني لأُوردَ خيليَ ماء الينابيع»
أَبكي بلا سَبَبٍ واضح، وأُحبُّكَ

أَنْتَ كما أَنتَ، لا سَنَداً
أَو سُدَى
ويطلع من كتفيَّ نهارٌ عليك
ويهبط، حين أَضمُّكَ، ليلٌ إليك
ولستُ بهذا ولا ذاك
لا، لستُ شمساً ولا قمراً
أَنا امرأةٌ، لا أَقلَّ ولا أكثرَ

فكُنْ أَنتَ قَيْس الحنين،
إذا شئتَ. أَمَّا أَنا
فيُعجِبُني أَن أُحَبَّ كما أَنا
لا صُورَةً
مُلَوَّنَةً في الجريدة، أو فكرةً
مُلَحّنةً في القصيدة بين الأَيائلِ...
أَسْمَعُ صرخة ليلى البعيدة

من غرفة النوم: لا تتركيني
سجينةَ قافيةٍ في ليالي القبائلِ
لا تتركيني لهم خبرا...
أنا ٱمرأةٌ، لا أَقلَّ ولا أكثرَ

أَنا مَن أَنا، مثلما
أَنت مَنْ أَنت: تسكُنُ فيَّ
وأَسكُنُ فيك إليك ولَكْ
أُحبّ الوضوح الضروريَّ في لغزنا المشترك
أَنا لَكَ حين أَفيضُ عن الليل
لكنني لَسْتُ أَرضاً
ولا سَفَراً
أَنا ٱمرأةٌ، لا أَقَلَّ ولا أكثرَ

وَتُتْعبُني

دَوْرَةُ القَمَر الأنثويّ
فتمرضُ جيتارتي
وَتَراً
وَتَراً
أنا ٱمرأةٌ،
لا أَقلَّ
ولا أكثرَ!

# أُغنية زفاف

وانتقلتُ إليكَ، كما انتقل الفلكيّونَ
من كوكبٍ نحو آخرَ. روحي تُطلُّ
على جسدي من أَصابعك العَشْر.
خُذْني إليك، ٱنطلق باليمامة حتى
أَقاصي الهديل على جانبيك: المدى
والصدى. وَدَعِ الخَيْلَ تركُضْ ورائي
سدى. فأنا لا أَرى صورتي، بَعْدُ،
في مائها... لا أَرى أَحدا

لا أَرى أَحداً، لا أَراكَ. فماذا
صنعتَ بحريتي؟ مَنْ أَنا خلف
سُورِ المدينةِ؟ لا أُمَّ تعجنُ شَعْري
الطويلَ بحنّائها الأَبديّ، ولا أُخْتَ
تضفِرُهُ. مَنْ أَنا خارج السور بين
حقولٍ حياديَّةٍ وسماء رماديّةٍ. فلتكن
أَنتَ أُمِّيَ في بَلَد الغُرَبَاء. وخذني
برفق إلى مَنْ أَكونُ غدا

مَنْ أكونُ غداً؟ هل سأُولَدُ من
ضلعِكَ ٱمرأةً لا هُمُومَ لها غيرُ زينةِ
دُنْيَاكَ. أمْ سوف أَبكي هناك على
حَجَرٍ كان يُرْشِدُ غيمي إلى ماء بئرك؟
خذني إلى آخر
الأرض قبل طلوع الصباح على قَمَرٍ كان

يبكي دماً في السرير، وخُذْني برفق
كما تأخُذُ النجمةُ الحالمين إليها سُدىً
وسُدى

وسدىً، أَتطلَّعُ خلف جبال مُؤَاب،
فلا ريح تُرْجعُ ثوب العروس. أُحبُّكَ
لكنَّ قلبي يرنّ برجع الصدى ويحنُّ
إلى سَوْسَنٍ آخر. هل هنالك حُزْنٌ أَشدُّ
التباساً على النفس من فَرَح البنت
في عُرْسها؟ وأُحبك مهما تذكَّرْتُ
أَمسِ، ومهما تذكرتُ أَني نسيتُ
الصدى في الصدى

أَلصدى في الصدى، وانتقلتُ إليكَ
كما انتقلَ الاسمُ من كائنٍ نحو آخر.

كنا غريبين في بلدين بعيدين قبل قليل،
فماذا أكون غداةَ غد عندما أُصبحُ
اثنين؟ ماذا صَنَعْتَ بحُريَّتي؟ كلما
ازداد خوفيَ منك اندفعتُ إليك،
ولا فضل لي يا حبيبي الغريب سوى
وَلَعي، فلتكن ثعلباً طيِّباً في كرومي،
وحدِّق بخُضْرة عينيك في وجعي. لن
أعود إلى ٱسمي وبرِّيتي، أبداً
أَبداً
أَبدا.

# تدبير منزلي

- ١ -

كم أَنا
في الصباح ذهبتُ إلى سوق يوم
الخميس. اشتريتُ حوائجنا المنزليّة،
واخترتُ أُوركيدَةً وبعثتُ الرسائل.
بلَّلني مَطَرٌ فامتلأتُ برائحة البرتقالة.
هل قُلْتَ ليْ مَرَّةً إنني نَخْلَةٌ حاملٌ،
أَم تخيَّلْتُ ذلك؟ إن لم تجدني
أَرفُّ عليك، فلا تَخْشَ ضَعْفَ الهواءِ،
وَنَمْ يا حبيبيَ نَوْمَ الهنا...

- ٢ -

كم أَنا؟
في الظهيرة، لَمَّعْتُ كُلَّ مراياي. أَعددتُ
نفسي لعيدٍ سعيدٍ. ونهداي، فَرْخا
يمامٍ لياليكَ يمتلئان بشهوة أَمس.
أَرى في عُروق الرخام حليبَ الكلام
الإباحي يجري ويصرخ بالشُعَراء
ٱكتبوني، كما قال ريتسوس. أَين
اختفيت وأَخفيت منفايَ عن رغبتي؟
لا أرى صُورَتي في المرايا، ولا صُورَةَ
ٱمرأةٍ من نساء أَثينا تُدِيرُ تَدَابِيرَها
العاطفيَّةَ مثلي هُنا.

- ٣ -

كم أَنا؟
في المساء، ذهبتُ إلى السينما
مع إحدى الصديقات. كان الـهُنُودُ
القدامى يطيرون في زمن الحرب والسلم
كالشُّهُب الأَثريَّة، مثلي ومثلك.
حدَّقْتُ في طائرٍ فرأيتُ جناحَيْكَ
يرتديان جناحيّ في شجر الأكاليبتوس.
ها نحن ننجو نجاة الغبار من
النهر. مَنْ كان فينا الضحيّةَ فليْحلُمِ
الآن أكثرَ من غيره، بيننا.

- ٤ -

كم أَنا؟
بعد مُنْتَصفِ الليل، أَشْرَقَتِ
الشمسُ في دمنا
كم أنا أنْتَ، يا صاحبي
كم أَنا! مَنْ أَنا!

# سوناتا [V]

أَمسُّكِ مَسَّ الكمان الوحيد ضواحي المكان البعيد
على مَهلٍ يطلب النهرُ حصَّته من رذاذ المطرْ
ويدنو، رويداً رويداً، غَـدٌ عابرٌ في القصيد
فأحملُ أَرضَ البعيد وتحملني في طريق السفرْ

على فَرَسٍ من خصالك تنسجُ روحي
سماء طبيعيَّة من ظلالك، شرنقةً شرنقةْ
أَنا ٱبن فعالك في الأرض، وٱبنُ جروحي
وقد أَشعلَتْ وحدها جُلَّنارَ بساتينك المغلقة

من الياسمين يسيل دمُ الليل أَبيضَ. عطرُكِ
ضعفي وسرُّكِ، يتبعني مثل لدغة أَفعى. وشَعْرُكِ
خيمةُ ريحٍ خريفيَّة اللونِ. أَمشي أَنا والكلامْ
إلى آخر الكلمات التي قالها بدويٌّ لزوجي حمام

أَجسُّكِ جَسَّ الكمان حريرَ الزمان البعيدْ
وينبت حولي وحولك عُشْبُ مكانٍ قديمٍ ــ جديدْ

# طائران غريبان
# في ريشنا

سمائي رماديَّةٌ. حُكَّ ظهري. وفُكَّ
على مَهَلٍ، يا غريبُ، جدائلَ شعري. وقُلْ
ليَ في مَ تُفَكِّرُ. قُلْ ليَ ما مَرَّ
في بال يُوسُفَ. قل ليَ بعضَ الكلام
البسيطِ... الكلامِ الذي تشتهي آمرأةٌ
أَن يُقَالُ لها دائماً. لا أُريدُ العبارةَ
كاملةً. أَكتفي بالإشارة تنثُرني في مَهَبِّ
الفراشاتِ بين الينابيع والشمس. قُل ليَ

إنِّي ضروريَّةٌ لَكَ كالنوم، لا لامتلاء
الطبيعة بالماء حولي وحولك. وأبسُطْ
عليَّ جناحاً من الأزرق اللانهائيِّ...
إنَّ سمائي رماديَّةٌ،
ورماديَّةٌ مثل لَوْحِ الكتابة، قبل
الكتابة. فٱكتُبْ عليها بحبر دمي أَيَّ
شيء يُغيِّرُها: لفظةً... لفظتين بلا
هَدَفٍ مُسْرِفٍ في المجاز. وقُلْ إنَّنا
طائرانِ غريبانِ في أَرضِ مِصْرَ وفي
الشام.
قل إننا طائران غريبان في
ريشنا. واكتُبِ ٱسميَ وٱسمَكَ تحت
العبارةِ. ما الساعة الآن؟ ما لَوْنُ
وجهي ووجهك فوق المرايا الجديدةِ؟
ما عُدْت أَملكُ شيئاً ليُشْبِهَني. هل

أَحبَّتك سيِّدةُ الماء أكثرَ؟ هل راوَدَتْك
على صخرة البحر عن نفسِكَ، ٱعْتَرِفِ
الآن أَنَّكَ مَدَّدْتَ تِيهَكَ عشرين عاماً
لتبقى أَسيرَ يديها. وقُلْ لِيَ في مَ
تُفَكِّرُ حين تصيرُ السماءُ رماديَّة اللون...
إنَّ سمائي رماديَّةٌ
صرتُ أُشْبهُ ما ليس يشبهني.
هل تريدُ الرجوع إلى ليل منفاك
في شَعْر حُوريّةٍ؟ أَم تريد الرجوع
إلى تين بيتك. لا عَسَلٌ جارحٌ للغريب
هنا أَو هناك. فما الساعَةُ الآن؟
ما ٱسمُ المكان الذي نحن فيه؟ وما
الفرق بين سمائي وأَرضك. قل لِيَ
ما قال آدمُ في سَرِّه. هل تَحَرَّرَ
حين تَذَكَّرَ. قل أَيّ شيء يُغَيِّر لون

السماء الرماديَّ. قُلْ ليَ بعضَ الكلام
البسيط، الكلام الذي تشتهي ٱمرأةٌ
أَن يُقال لها بين حينٍ وآخرَ. قُلْ
إنَّ في وسع شخصين، مثلي ومثلك،
أَن يحملا كل هذا التشابه بين الضباب
وبين السراب، وأَن يَرْجِعَا سالمين. سمائي
رماديَّةٌ، فبماذا تفكِّرُ حين تكونُ السماءُ
رماديَّةً؟

## لم أنتظر أحداً

سأَعرفُ، مهما ذَهَبْتَ مَعَ الريح، كيفَ
أُعيدُكَ. أَعرفُ من أَين يأتي بعيدُكَ.
فاذهَبْ كما تذهبُ الذكرياتُ إلى بئرها
الأَبديَّةِ، لن تَجِدَ السومريَّةَ حاملةً جَرَّة
للصدى في انتظارِكَ
أَمَّا أَنا، فسأعرف كيف أُعيدُكَ
فاذهبْ تقودُكَ ناياتُ أَهل البحار القدامى
وقافلةُ الملح في سَيْرِها اللانهائيِّ. واذهبْ
نشيدُكَ يُفْلِتُ منِّي ومنك ومن زَمَني،

باحثاً عن حصان جديدٍ يُرَقِّصُ إيقاعَهُ
الـحُرَّ. لن تجد المستحيلَ، كما كان يَوْمَ
وَجَدْتُكَ، يوم وَلَدْتُكَ من شهوتي
جالساً في انتظارِك،
أَمَّا أَنا، فسأعرف كيف أُعيدُكَ،
وأذهب مع النهر من قَدَرٍ نحو
آخر، فالريحُ جاهزةٌ لاقتلاعك من
قمري، والكلامُ الأخيرُ على شجري جاهزٌ
للسقوط على ساحة التروكاديرو. تَلَفَّتْ
وراءك كي تجد الـحُلْمَ، واذهب
إلى أَيِّ شَرْقٍ وغربٍ يزيدُك منفىً،
ويُبْعدُني خطوةً عن سريري وإحدى
سماوات نفسي الحزينةِ. إنَّ النهاية
أُختُ البداية، فاذهبْ تَجِدْ ما تركتَ
هنا، في انتظارك

لم أَنتظِرْكَ، ولم أَنتظر أَحداً.
كان لا بُدَّ لي أَن أُمشِّطَ شعري
على مَهَلٍ أُسْوَةً بالنساء الوحيدات
في ليلهنَّ، وأَن أَتدبَّرَ أَمري، وأكسِرَ
فوق الرخام زجاجةَ ماء الكولونيا، وأَمنعَ
نفسي من الانتباه إلى نفسها في
الشتاء، كأني أَقولُ لها: دَفِّئيني
أُدفِّئْكِ يا ٱمرأتي، وٱعْتَني بيديك،
فما هو شأْنُهما بنزول السماء إلى
الأرض أَو رحْلةِ الأرض نحو السماء،
ٱعتني بيديك لكي تَحْمِلاَكَ «يَدَاكِ
هُما سَيِّداكِ» كما قال إيلور.. فاذهب
أُريدُكَ أو لا أريدُك.

لمَ أنتظِرْكَ، ولم أنتظر أَحداً.

كان لا بُدَّ لي أَن أَصبَّ النبيذَ
بكأسين مكسورتين، وأَمنعَ نفسي من
الانتباه إلى نفسها في انتظارك!

# جفاف

هذه سَنَةٌ صَعْبَةٌ
لم يَعِدْنا الخريف بشيءٍ
ولم ننتظِرْ رُسُلاً
والجفافُ كما هُوَ: أَرضٌ مُعَذَّبَةٌ
وسماءٌ مُذَهَّبَةٌ،
فليكُنْ جَسَدي مَعْبَدِي

... وَعَلَيْكَ الوُصُولُ إلى خبز روحي
لتعرف نفسَكَ. لا حدَّ لي

إن أَردتُ:
أُوَسِّعُ حقلي بسنبلَةٍ
وأُوسِّعُ هذا الفضاء بتَرْغَلَّةٍ،
فليكن جَسَدي بَلَدي

والجفاف يُحَدِّقُ في النهر،
أَو يتطلَّعُ نحو النخيلِ
ويُخْطِئُ بئري العميقة،
لا حَدَّ لي بكَ...
إنَّ السماءَ حقيقيَّةٌ في الخريف
تخيَّلْ، ولو مَرَّةً، أَنَّكَ امرأةٌ
لترى ما أَرى.
جسدي سيِّدي

والجفافُ على حاله: كُلَّما

جَفَّتِ الفكرةُ ازدهَرَتْ جوقةُ
المنشدين المريدين: ماء، وماء
فما حاجتي للنُبُوءةِ؟ إنَّ الملائكةَ
الطيِّبين ضيوفٌ على غيمة الحالمين.
وما حاجتي لكتابِكَ ما دام ما بكَ... بي؟
جَسَدي يَتَفتَّحُ في جَسَدي

والجفافُ يودِّعُ سَبْعَ السنين العجاف
فلا بُدَّ من هُدْنَةٍ في المدينة،
لا بُدَّ من ماعز يَقْضِمُ العُشْبَ
من كُتُب البابليين أَو غيرهم،
كي تصير السماءُ حقيقيةً...
فأَضِىءْ عَتْمتي ودمي بنبيذكَ
وأسْكُنْ، معي، جسدي!

# سوناتا [VI]

صنَوْبَرَةٌ في يمينك. صَفْصَافَةٌ في شمالك. هذا
هُوَ الصيفِ: إحدى غزالاتك المائةِ استسلمت
للندى
ونامت على كَتِفِي، قُرْبَ إحدى جهاتك، ماذا
لو انتبهَ الذئبُ، واحترقتْ غابةٌ في المدى

نعاسُك أَقوى من الخوف. بريَّةٌ من جمالكِ
تغفو، ويصحو ليحرس أَشجارَها قمرٌ من ظلالك
ما ٱسمُ المكان الذي وَشمَتْهُ خُطَاكِ على الأرض

أَرضاً سماويَّة لسلام العَصَافير، قرب الصدى؟
وأَقوى من السيف نومُك بين ذراعيك مُنْسَابَتَيْنْ
كنهريـنِ في جنَّة الحالميـنَ بما تصنعيـنَ على الجانبين
بنفسِكِ محمولةً فوق نفسك. قد يحمل الذئبُ ناياً
ويبكي على ضفَّة النهر: ما لم يُؤَنَّثْ... سُدَى

قليلٌ من الضعف في الاستعارة يكفي غدا
لينضج توتُ السياج، وينكسِرَ السَيْفُ تحت الندى

# رزق الطيور

رُزقتُ مع الخبز حُبَّكْ
ولا شأن لي بمصيريَ،
ما دام قُرْبَكْ
فخُذْهُ إلى أَيِّ معنى تريدُ
معي، أَو وحيداً
ولا بَيْتَ أَقرَبَ ممَّا أُحِسُّ به
هٰهُنا في الربيع السريع
على شجر الآخرين...

رُزِقْتُكَ أُماً، أَباً، صاحباً
وأَخاً للطريق، ولا تحمل الطَيْرُ
أكثرَ من وُسْعها: ريشَها والحنين
وحبَّةَ قمحٍ ضروريَّةً للغناء، فكن
في سمائي كما
أَنا في سمائك، أَو بعض ذلك،
كُنْ يا غريب المُوَشَّح لي. مثلما
أَنا لَكَ: مائي لمائك، ملحي
لملحك، وٱسمي على ٱسمكَ تعويذةٌ
قد تُقَرِّبنا من تلال سَمَرقَنْدَ
في عصرها الذهبيِّ. فلا بُدَّ مني
ولا بُدَّ منك، ولا بُدَّ من آخرين
لنسمع أَبواق إخوتنا السابقين
وهم يمتطون ظهور الخيول، من الجانبين
ولا يرجعون. فكن يا غريبُ سلامَ

الغريبةِ في هُدْنَةِ المُتْعَبين
وكن حُلْمَ يقظتها، كُلَّما
أَلَمَّ بها قَمَرٌ عائدٌ من أَريحا، كما
تعود الإلٰهاتُ بعد الحروب إلى الحالمين
فكُلُّ هُنَاكَ هنا. وأَنا
لا أُحبّ الرجوع إلى نجمتي
بعدما كبرت حكمتي، هاتِ
هات البعيد إلى خيمتي سُلّماً
لنصعد أَعلى كغُصْنَيْ بتُولا على
حائط الآخرين [ونحن نصير غداً آخرين]
فلا بَيْتَ أَقرَبَ مما أُحسُّ به هٰهنا
وأَنا حاملٌ بالربيع السريع
رَزقت مع الخبز حُبَّكْ
ولا شأن لي بمصيرِيَ
ما دام قُرْبَكْ

ويا ليتني لم أُحبَّك
يا ليتني لم أُحبَّكْ!

# رُبَّما، لأَن الشتاء تأخَّر

ـ ١ ـ

أَقَلُّ من الليل تحت المَطَرْ
حنينُ خُماسِيّةٍ
إلى أَمسها المُنْتَظَر،
وأكثرُ ممَّا تقولُ يَدٌ لِيَدٍ
على عَجَلٍ في مَهَبِّ السَفَرْ

ـ ٢ ـ

شِماليَّةٌ هذِهِ الريحُ
فليكتبِ العاطفيّون، أَهْلُ الكلامِ الجريح،

رسائلَ أُخرى إلى ما وراءَ الطبيعةِ
أَمَّا أَنا
فَسَأَرْمي بنفسيْ إِلى الريح.../

ـ ٣ ـ

لا لَيْلَ عِنْدَكِ، إذ تَدْلِفينَ
إلى الليل وَحْدَكِ. أَنتِ هُنا
تَكْسِرِينَ بنظرتِكِ الوَقْتَ. أَنتِ
هنا في مكانك بعدي وبعدك
لا أَنْتِ تنتظرين، ولا أَحَدٌ يَنْتَظِرْ

- ٤ -

لَعَلَّ خياليَ أَوضحُ من واقعي
والرياحُ شماليَّةٌ. لن أُحبَّكِ أكْثَرَ
إنْ لم تكوني معي
هنا، الآن ما بين أَيْقُونَتَيْنْ
وجيتارةٍ فَتَحَتْ جُرْحَها للقَمَرْ

ـ ٥ ـ

أَنا والمسيحُ على حالنا:
يَـمُوتُ ويحيا، وفي نَـفْسِهِ مريمُ
وأَحيا، وأَحْـلُـمْ ثانيةً أَنني أَحلُـمُ
ولكنَّ حُـلْمي سريعٌ كبرقيَّةٍ
تُـذَكِّرُني بالأُخُـوَّةِ بين السماوات والأرض.../

- ٦ -

مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ،
يصيرُ الحصى لُغَةً أَو صدى
والعواطفُ في مُتَنَاوَلِ كُلِّ يَدٍ.
ربما كان هذا الحنينُ طريقَتَنا في البقاء
ورائحة العُشْب بعد المَطَرْ

ـ ٧ ـ

بلا غايةٍ، وَضَعَتْنَا السماءُ
على الأرض إِلْفَيْن مؤتلفين وبٱسمين مُخْتَلِفَيْنِ،
فلا ٱسميَ كان يُزَيِّنُ خاتَمَكِ الذهبيَّ
ولا ٱسْمُكِ كان يَرِنُّ
كقافيةٍ في كتاب الأَساطير.../

- ٨ -

أَمثالُنا لا يموتون حُبّاً،
ولو مَرَّةً، في الغناء الحديث الخفيف
ولا يقفون، وحِيدِين، فوق الرصيف
لأنَّ القطاراتِ أكثرُ من عَدَد المُفْرَدَات
وفي وُسْعنا دائماً أَن نُعِيدَ النظَرْ

ـ ٩ ـ

وأَمثالُنا لا يعودون إلَّا
لِيَسْتَحْسِنُوا وَقْعَ أَقدامهم
على أَرض أَحلامهم،
أَو ليعتذروا للطفولة عن حِكْمَةٍ
بلغوها على حافة البئر.../

- ١٠ -

بي مثلُ ما بِكِ من وَحَم الليلِ
يصرُخُ شَخْصٌ: «أَنا ٱمرأتي
في المنام. وتصرخ أُنثى: «أنا رَجُلي»
أَيُّنا أَنتَ. أنتِ؟ نَضِيقُ

نَضِيقُ، ويتَّسِعُ المُنْحَدَرْ.../

- ١١ -

أَضُمُّكِ، حتى أَعود إلى عَدَمي
زائراً زائلاً. لا حياةَ ولا
موتَ في ما أُحِسُّ بِهِ
طائراً عابراً ما وراء الطبيعةِ
حين أَضُمُّكِ.../

## - ١٢ -

ماذا سنفعلُ بالحُبِّ؟ قُلْتِ
ونحن ندسُّ ملابسنا في الحقائبِ
نأخذُهُ مَعَنا، أَمْ نُعَلِّقُهُ في الخزانةِ؟
قلتُ: ليَذْهَبْ إلى حيثُ شاءَ
فقد شبَّ عن طَوْقنا، وانتشرْ

- ١٣ -

هَشَاشَتُنا لُؤْلُؤُ الخاسرين
وأَمثالنا لا يزورون حاضِرَهُمْ أَبداً
لا يريدون أَن يبلغوا بلداً
في الطريق إلى الريح، حيث وُلدنا
على دفعتين: أَنا وجمالُك.../

- ١٤ -

قرْبَ حياتي نَبَتٌّ كإحدى
حدائقِ قَيْصَرَ. كَمْ تَرَكَ الأَقوياءُ
لنا شجراً. كَمْ قطفتُ زنابقَ
سريَّةً من سياجك. كَمْ كنتِ
معنى وصورتَه في أعالي الشَجَرْ

## - ١٥ -

أَضمُّكِ، بيضاءَ سمراءَ، حتى التلاشي
أُبَعْثِرُ لَيْلَكِ. ثمَّ أُلُمُّكِ كُلَّكِ...
لا شيءَ فيك يزيدُ وينقُصُ عن
جَسَدي. أَنت أُمُّك وابنتُها
تُولَدِين كما تطلبين من الله.../

- ١٦ -

ماذا سنصنع بالأمس؟ قُلتِ
ونحن نُهيل الضباب على غدنا
والفُنُونُ الحديثةُ ترمي البعيدَ إلى
سلَّة المهملات. سيتبعُنا الأمْسُ،
قلتُ، كما يتبع النَهَوَنْدُ الوَتَرْ

## - ١٧ -

على الجسر، قُرْب حياتِكِ، عشتُ
كما عاش عازفُ جيتارةٍ قرب نجمته.
غنِّ لي مائةً من أَناشيد حُبِّكَ تَدْخُلْ
حياتي! فغنَّى عن الحبِّ تسعاً
وتسعين أُغنيَّةً، وانتحرْ

## - ١٨ -

يمرُّ الزمانُ بنا، أَو نمرُّ به
كضيوفٍ على حنطة الله
في حاضرٍ سابقٍ، حاضر لاحق،
هكذا هكذا نحن في حاجة للخرافة
كي نتحمَّلَ عبءَ المسافة ما بَيْنْ بابين.../

## ـ ١٩ ـ

منفىً سخيٌّ على حافَّةِ الأرض
لَوْ لم تكوني هُنَاكَ لَمَا
أَنشأَ الغُرَباءُ القلاعَ وشاعَ التصوُّفُ،
لو لم تكوني هنا لاكتَفيْتُ بما
يصنعُ النهرُ بي... وبوجه الحَجَرْ

- ٢٠ -

ويكفي، لأَعرفَ نفسيْ البعيدةَ، أَن
تُرْجِعِي لِيَ بَرْقَ القصيدةِ حين انقسمتُ
إلى ٱثنين في جَسَدِكْ
أَنا لَكِ مِثْلُ يَدِكْ
فما حاجتي لغدي
بعد هذا السفر؟

# من أَنا، دون منفى؟

غريبٌ على ضفة النهر، كالنهر ... يَرْبِطُني
باسمك الماءُ. لا شيءَ يُرْجعُني من بعيدي
إلى نخلتي: لا السلامُ ولا الحربُ. لا
شيء يُدْخِلُني في كتاب الأَناجيلِ. لا
شيء... لا شيء يُومِضُ من ساحل الجَزْر
والمدّ ما بين دجْلَةَ والنيلِ. لا
شيء يُنْزِلُني من مراكب فرعون. لا
شيء يَحْملني أو يُحَمِّلني فكرةً: لا الحنينُ
ولا الوَعْدُ. ماذا سأفعل؟ ماذا

سأفعل من دون منفى، وليلٍ طويلٍ
يُحَدِّقُ في الماء؟

يربطُني
بٱسمكِ
الماءُ ...
لا شيء يأخذني من فراشات حُلْمي
إلى واقعي: لا الترابُ ولا النارُ. ماذا
سأفعل من دون وَرْدِ سَمَرْقَنْدَ؟ ماذا
سأفعل في ساحةٍ تصقُلُ الـمُنْشدين بأحجارها
القمريَّةِ؟ صِرْنا خَفِيفَيْنِ مثلَ منازلنا
في الرياح البعيدةِ. صرنا صَدِيقَيْنِ للكائنات
الغريبةِ بين الغيوم... وصرنا طَلِيقَيْنِ من
جاذبيَّة أرْضِ الـهُوِيَّةِ. ماذا سنفعل... ماذا
سنفعل من دون منفى، وليلٍ طويلٍ

يُحَدِّقُ في الماء؟

يربطني
بٱسمك
الماءُ ...
لم يبقَ منِّي سواكِ، ولم يبق منك
سوايَ غريباً يُمَسِّدُ فَخْذَ غريبتِهِ: يا
غريبةُ! ماذا سنصنع في ما تبقَّى لنا
من هُدُوءٍ... وقَيْلُولَةٍ بين أسطورتين؟
ولا شيء يحمِلُنا: لا الطريقُ ولا البيتُ.
هل كان هذا الطريق كما هُوَ، منذ البداية،
أَم أَنَّ أَحلامنا وَجَدَتْ فرساً من خيول
المَغُول على التلِّ فٱسْتَبْدَلَتْنا؟
وماذ سنفعلُ؟
ماذا
سنفعلُ

من
دون
منفى؟

# أَنا، وجميلُ بُثَيْنة

كَبِرْنا، أَنا وجميلُ بُثَيْنَةَ، كُلٌّ
على حِدَةٍ، في زمانين مُخْتَلِفَيْنْ...
هُوَ الوقْتُ يفعل ما تفعل الشمسُ
والريحُ: يَصْقُلُنا ثم يقتلُنا حينما
يحملُ العقلُ عاطفةَ القلبِ، أَو
عندما يبلُغُ القلبُ حكمتَهُ

يا جميلُ! أَتكبَرُ مِثْلَكَ، مثلي،
بثينةُ؟

تكبَرُ، يا صاحبي، خارجَ القلب
في نَظَر الآخرين. وفي داخلي تستحمُّ
الغزالةُ في نبعها المتدفّق من ذاتها

هِيَ، أَم تلك صُورَتُها؟

إنها هِيَ يا صاحبي. دَمُها، لحمُها،
وٱسمُها. لا زمان لها. رُبّما استَوْقَفَتْني
غداً في الطريق إلى أَمسها

هل أَحبَّتْكَ؟ أَم أَعْجَبتْها استعارتُها
في أَغانيك، لؤلؤةً كُلَّما حدَّقتْ في
لياليكَ وٱغرورقتْ ... أَشرقَتْ قمراً قلبُهُ
حَجَر يا جميل؟

هو الـحُـبُّ، يا صاحبي، موتُنا الـمُنْتَقَى
عابرٌ يَتَزَوَّجُ من عابرٍ مُطْلقاً ...
لا نهايةَ لي، لا بدايةَ لي. لا
بُثَيْنَةُ لي أَو أَنا لبثينةَ. هٰذا
هو الحبُّ، يا صاحبي. ليتني كُنْتُ
أَصغرَ منِّي بعشرين باباً لكان
الهواءُ خفيفاً عليَّ، وصورتُها الجانبيَّةُ
في الليل أَوضحَ من شامةٍ فوق
سُرَّتها...

هل هَـمَـمْتَ بها، يا جميل، على عكس
ما قال عنك الرُواةُ، وهَـمَّتْ بكَ؟

تزوَّجتُها. وهَزَزْنا السماءَ فسالَتْ
حليباً على خُبْزِنا. كُلَّما جئتُها فَتَّحَتْ

جَسَدي زهرةً زهرةً، وأَراق غدي
خمرَهُ قطرةً قطرةً في أَباريقها

هل خُلِقْتَ لها، يا جميل،
وتبقى لها؟

أُمِرْتُ وعُلِّمْتُ. لا شأنَ لي
بوجودي الـمُراقِ كماءٍ على جلدها
العِنَبيّ. ولا شأنَ لي بالخلود
الذي سوف يتبعُنا ككلاب الرعاة.
فما أَنا إلاَّ كما خَلَقَتْني بُثَيْنَةُ

هل تشرَحُ الـحُبَّ لي، يا جميلُ،
لأَحفظَهُ فكرةً فكرةً؟

أَعْرَفُ الناس بالـحُبِّ أكثرُهُمْ حَيْرَةً،
فاحترِقْ، لا لتعرف نفسك، لكن
لتُشْعِلَ لَيْلَ بُثَيْنَةَ ...

أَعلى من الليل، طار جميل
وكسَّر عُكَّازتَيْه. ومال على أُذُني
هامساً: إن رأيت بثينةَ في ٱمرأةٍ
غيرها، فاجعل الموت، يا صاحبي،
صاحباً. وتلألأ هنالك، في ٱسم
بثينة، كالنون في القافيةْ!

# قناع ... لمجنون ليلى

وجدتُ قناعاً، فأعجَبَني أَنْ
أكون أَنا آخري. كنتُ دُونَ
الثلاثين، أَحْسَبُ أَنَّ حدودَ
الوجود هِيَ الكلماتُ. وكنتُ
مريضاً بليلى كأيِّ فتىً شَعَّ
في دَمِهِ الملحُ. إنْ لم تكُنْ هِيَ
موجودةً جسداً فلها صُورَةُ الروح
في كُلِّ شيء. تُقَرِّبُني من
مدار الكواكب. تُبْعِدُني عن حياتي

على الأرض. لا هِيَ مَوْتٌ ولا
هي ليْلى. «أَنا هُوَ أَنتِ،
فلا بُدَّ من عَدَمٍ أَزرقٍ للعناق
النهائيِّ». عَالجني النهرُ حين
قذفتُ بنفسي إلى النهر مُنْتَحِراً،
ثم أَرجعني رَجُلٌ عابر، فسألتُ:
لماذا تُعيد إليَّ الهواء وتجعلُ
موتيَ أَطولَ؟ قال: لتعرف
نفسك أَفضَلَ... مَنْ أَنتَ؟
قلتُ: أَنا قَيْسُ ليلى، وأَنتَ؟
فقال: أَنا زوجُها

ومَشَيْنا معاً في أَزقَّةِ غرناطةٍ،
نَتَذَكَّرُ أَيَّامَنا في الخليج... بلا أَلَمٍ
نتذكَّر أَيَّامنا في الخليج البعيد.

□

أَنا قَيْسُ ليلى
غريبٌ عن ٱسمي وعن زمني
لا أَهزُّ الغيابَ كجذع النخيل
لأَدفع عني الخسارةَ، أَو استعيدَ
الهواء على أَرض نَـجْدٍ. ولكنني،
والبعيدُ على حالِهِ وعلى كاهلي،
صوتُ ليلى إلى قلبها
فلتكن للغزالة بريَّةٌ
غيرُ دربي إلى غَيْبها
هل أُضيِّقُ صحراءها أم أَوسِّعُ لَيْلِي
لتجمعنا نجمتان على دربها؟
لا أَرى في طريقي إلى حُبِّها
غيرَ أَمسِ يُسَلِّي بشِعري القديمِ
نُعَاسَ القوافل في ليلها، ويُضيءُ
طريقَ الحريرِ بجرحي القديم

لعلَّ التجارةَ في حاجةٍ هِيَ أَيضاً
لما أَنا فيه. أَنا من أولئك،
ممَّنْ يموتون حين يُحبُّونَ. لا شيءَ
أَبعدُ من فَرَسي عن معلَّقة الجاهليِّ
ولا شيءَ أَبعدُ من لُغَتي عن أمير
دِمَشْقَ. أَنا أوَّلُ الخاسرين. أنا
آخرُ الحالمين وعَبْدُ البعيد. أَنا
كائنٌ لم يكن. وأَنا فكرةٌ للقصيدةِ
ليس لها بَلَدٌ أَو جَسَدْ
وليس لها والدٌ أَو وَلَدْ.

□

أَنا قيس ليلى، أنا
وأَنا ... لا أَحَدْ!

# درس من كاما سوطرا

بكأس الشراب المرصَّع باللازوردِ
ٱنتظرها،
على بركة الماء حول المساء وزَهْر الكُولُونيا
ٱنتظرها،
بصبر الحصان المُعَدّ لمُنْحَدرات الجبالِ
ٱنتظرها،
بذَوْقِ الأمير الرفيع البديع
ٱنتظرها،
بسبعِ وسائدَ مَحْشُوَّةٍ بالسحابِ الخفيفِ

ٱنتظرها
بنار البَخُور النسائيِّ ملءَ المكانِ
ٱنتظرها،
برائحة الصَنْدَلِ الذَكَريَّةِ حول ظُهُور الخيولِ
ٱنتظرها،
ولا تتعجَّلْ، فإن أقبلَتْ بعد موعدها
فانتظرها،
وإن أقبلتْ قبل موعدها
فانتظرها،
ولا تُجْفِل الطيرَ فوق جدائلها
وانتظرها،
لتجلس مرتاحةً كالحديقة في أَوْج زِينَتِها
وانتظرها،
لكي تتنفَّسَ هذا الهواء الغريبَ على قلبها
وانتظرها،

لترفع عن ساقها ثَوْبَها غيمةً غيمةً
وانتظرها،
وخُذْها إلى شرفة لترى قمراً غارقاً في الحليبِ
انتظرها،
وقدِّمْ لها الماءَ، قبل النبيذِ، ولا
تتطلَّعْ إلى تَوْأَمَيْ حَجَلٍ نائمين على صدرها
وانتظرها،
ومُسَّ على مَهَل يَدَها عندما
تَضَعُ الكأسَ فوق الرخامِ
كأنَّكَ تحملُ عنها الندى
وانتظرها،
تحدَّثْ إليها كما يتحدَّثُ نايٌ
إلى وَتَرٍ خائفٍ في الكمانِ
كأنكما شاهدانِ على ما يُعِدُّ غَدٌ لكما
وانتظرها

وَلَمِّع لها لَيْلَها خاتماً خاتماً
وانتظرها
إلى أَن يقولَ لَكَ الليلُ:
لم يَبْقَ غيرُكُما في الوجودِ
فخُذْها، بِرِفْقٍ، إلى موتكَ المُشْتَهى
وانتظرها!...

# طوقُ الحمامة الدمشقيّ

أ.

في دِمَشْقَ،
تطيرُ الحماماتُ
خَلْفَ سِياجِ الحريرِ
اثْنَتَيْنِ ...
اثْنَتَيْن ...

ب.

في دِمَشْقَ:
أَرى لُغَتي كُلَّها
على حبَّة القَمْحِ مكتوبةً
بإبرة أُنثى،
يُنَقِّحُها حَجَلُ الرافِدَيْن

ت.

في دِمَشْقَ:
تُطَرَّزُ أَسماءُ خَيْلِ العَرَبْ،
مِنَ الجاهليَّةِ
حتى القيامةِ،
أَو بَعْدَها،
... بخُيُوطِ الذَهَبْ

## ث.

في دِمَشْقَ:

تسيرُ السماءُ
على الطُرُقات القديمةِ
حافيةً، حافيةْ
فما حاجةُ الشُعَراءِ
إلى الوَحْيِ
والوَزْنِ
والقافِيَةْ؟

ج.

في دمَشْقَ:

ينامُ الغريبُ

على ظلّه واقفاً

مثل مِئْذَنَةٍ في سرير الأَبد

لا يَحنُّ إلى بَلدٍ

أَو أَحَدْ ...

ح.

في دمَشْقَ:
يُواصِلُ فِعْلُ المُضَارِع
أَشغالَهُ الأُمويَّةَ:
نمشي إلى غَدِنا واثِقِينَ
من الشمس في أَمسنا.
نحن والأَبديَّةُ،
سُكَّانُ هذا البَلَدْ!

خ.

في دِمَشْقَ:

تَدُورُ الحوارات

بين الكَمَنْجَةِ والعُود

حَوْلَ سؤال الوجودِ

وحول النهاياتِ:

مَنْ قَتَلَتْ عاشقاً مارقاً

فَلَهَا سِدْرَةُ المنتهى!

د.

في دِمَشْقَ:
يُقَطِّعُ يوسُفُ،
بالنايَ،
أَضْلُعَهُ
لا لشيءٍ،
سوى أَنَّهُ
لم يَجِدْ قلبَهُ مَعَهُ

## ذ.

في دِمَشْقَ:
يَعُودُ الكلامُ إلى أَصلِهِ،
ٱلماءِ:
لا الشِعْرُ شِعْرٌ
ولا النَثْرُ نَثْرٌ
وأَنتِ تقولين: لن أَدَعَكْ
فخُذْني اليكَ
وخُذْني مَعَكْ!

ر.

في دِمَشْقَ:
ينامُ غزالٌ
إلى جانب ٱمرأةٍ
في سرير الندى
فتخلَعُ فُسْتَانَها
وتُغَطّي بِهِ بَرَدَى!

ز.

في دِمَشْقَ:
تُنَقِّرُ عُصْفُورَةٌ
ما تركتُ من القمحِ
فوق يدي
وتتركُ لي حَبَّةً
لتُريني غداً
غَدِي!

س.

في دِمَشْقَ:

تـدَاعِبُني الياسمينةُ:

لا تَبْتَعِدْ

وٱمشِ في أَثَري

فَتَغارُ الحديقةُ:

لا تقتربْ

من دَمِ الليل في قَمَري

**ش.**

في دِمَشْقَ:
أُسامِرُ حُلْمي الخفيفَ
على زَهْرة اللوزِ يضحَكُ:
كُنْ واقعياً
لأُزْهرَ ثانيةً
حول ماءِ ٱسمها
وكُنْ واقعيّاً
لأُعبر في حُلْمها!

ص.
في دِمَشْقَ:
أُعرِّفُ نفسي
على نفسها:
هٰهنا، تحت عَيْنَيْنِ لوزيَّتَيْنْ
نطيرُ معاً تَوْأَمَيْن
ونُرْجىء ماضِينَا المشتركْ

ض.

في دِمَشْقَ:
يرقُّ الكلامُ
فأسمع صَوْتَ دَمٍ
في عُرُوق الرخام:
ٱخْتَطِفْني مِنَ ٱبني
تقولُ السجينةُ لي
أَو تحجَّرْ معي!

**ط.**

في دِمَشْقَ:
أَعدُّ ضُلُوعي
وأُرْجِعُ قلبي إلى خَببِهْ
لعلَّ التي أَدْخَلَتْني
إلى ظِلِّها
قَتَلَتْني،
ولم أَنْتَبِهْ ...

ظ.

في دِمَشْقَ:
تُعيدُ الغريبةُ هَوْدَجَها
إلى القافِلَةْ:
لن أَعودَ إلى خيمتي
لن أُعلِّقَ جيتارتي،
بَعْدَ هذا المساءِ،
على تينة العائلةْ ...

ع.

في دِمَشْقَ:
تَشِفُّ القصائدُ
لا هِيَ حِسِّيَّةٌ
ولا هِيَ ذهْنيَّةٌ
إنَّها ما يقولُ الصدى
للصدى...

غ.

في دِمَشْقَ:
تجفُّ السحابةُ عصراً،
فتحفُرُ بئراً
لصيف المحبِّينَ في سَفْح قاسْيُون،
والنايُ يُكْملُ عاداته
في الحنين إلى ما هُوَ الآن فيه،
ويبكي سدى

**ف.**

في دِمَشْقَ:
أُدوِّنُ في دَفْتَرِ ٱمرأةٍ:
كُلُّ ما فيكِ
من نَرْجسٍ
يَشْتَهِيكِ
ولا سُورَ، حَوْلَكِ، يحميكِ
مِنْ ليل فِتْنَتِكِ الزائدةْ

ق.

في دِمَشْقَ:

أَرى كيف ينقُصُ ليلُ دِمَشْقَ
رويداً رويداً
وكيف تزيدُ إلٰهاتُنا
واحدةً!

**ك.**

في دِمَشْقَ:

يغنِي المسافر في سرِّه:
لا أَعودُ من الشام
حياً
ولا ميتاً
بل سحاباً
يخفِّفُ عبءَ الفراشة
عن روحِيَ الشاردةْ

# كزهر اللوز،
# أَو أبعد ...

## القصائد

### I أَنت


١ ـــ فكّر بغيرك ١٦٧
٢ ـــ الآن في المنفى ١٦٩
٣ ـــ حين تطيل التأمل ١٧٣
٤ ـــ إن مشيت على شارع ١٧٥
٥ ـــ مقهى، وأنت مع الجريدة ١٧٧


### II هُو


٦ ـــ هو، لا غيره ١٨٣
٧ ـــ لم ينتظر أَحداً ١٨٥
٨ ـــ برتقالية ١٨٩

٩ ــ هنالك عرس ١٩١
١٠ ــ فراغ فسيح ١٩٣

## III أَنا

١١ ــ ها هي الكلمات ١٩٧
١٢ ــ لوصف زهر اللوز ١٩٩
١٣ ــ في البيت أَجلس ٢٠٣
١٤ ــ أحب الخريف وظلّ المعاني ٢٠٧
١٥ ــ وأَمّا الربيع ٢٠٩
١٦ ــ كنت أحبُّ الشتاء ٢١١
١٧ ــ كما لو فرحت ٢١٣
١٨ ــ فرحاً بشيء ما ٢١٥
١٩ ــ لا أَعرف الشخص الغريب ٢١٧

## IV هي

٢٠ ــ الجميلات هنّ الجميلات ٢٢٥
٢١ ــ كمقهى صغير هو الحب ٢٢٧
٢٢ ــ يد تنشر الصحو ٢٢٩
٢٣ ــ قال لها: ليتني كنت أصغر ٢٣١
٢٤ ــ لا أَنام لأحلم ٢٣٣
٢٥ ــ نسيتُ غيمة ٢٣٥
٢٦ ــ هي / هو ٢٣٧

٢٧ ــ هي لا تحبك أنت	٢٤١
٢٨ ــ لم تأتِ	٢٤٥
٢٩ ــ وأَنتِ معي	٢٤٩
٣٠ ــ الآن، بعدك	٢٥١

## V منفى (١)

٣١ ــ نهار الثلاثاء والجو صاف	٢٥٥

## VI منفى (٢)

٣٢ ــ ضباب كثيف على الجسر	٢٧٩

## VII منفى (٣)

٣٣ ــ كوشم يد في معلقة الشاعر الجاهلي	٣٠٣

## VIII منفى (٤)

٣٤ ــ طباق	٣٢٩

**«أحسن الكلام ما .... قامت صورته بين نَظْمٍ كأنه نثر، ونثرٍ كأنه نظم...»**

أبو حيان التوحيدي

الإمتاع والمؤانسة

[الليلة الخامسة والعشرون]

# I

# أَنت

## فكِّر بغيرك

وأَنتَ تُعِدُّ فطورك، فكِّرْ بغيركَ
[لا تَنْسَ قُوتَ الحمامْ]
وأَنتَ تخوضُ حروبكَ، فكِّرْ بغيركَ
[لا تنس مَنْ يطلبون السلامْ]
وأَنتَ تُسدِّدُ فاتورةَ الماء، فكِّرْ بغيركَ
[مَنْ يرضَعُون الغمامْ]
وأَنتَ تعودُ إلى البيت، بيتِكَ، فكِّرْ بغيركَ
[لا تنس شعب الخيامْ]
وأَنت تنام وتُحْصي الكواكبَ، فكِّرْ بغيركَ
[ثَمَّةَ مَنْ لم يجد حيّزاً للمنام]

وأَنتَ تحرِّرُ نفسك بالاستعارات، فكِّرْ بغيركَ
[مَنْ فَقَدُوا حَقَّهم في الكلامْ]
وأَنتَ تفكِّر بالآخرين البعيدين، فكِّرْ بنفسك
[قُلْ: ليتني شمعةٌ في الظلامْ]

## الآن ... في المنفى

ٱلآن، في المنفى ... نَعَمْ في البيتِ،
في السِّتينَ من عُمْرٍ سريعٍ
يُوقدون الشَّمْعَ لَكْ

فافرَحْ، بأقصى ما استطعتَ من الهدوء،
لأنَّ موتاً طائشاً ضَلَّ الطريقَ إليك
من فرط الزحام ... وأَجَّلكْ

قَمَرٌ فضوليٌّ على الأطلال،
يضحك كالغبيّ
فلا تصدِّقْ أنه يدنو لكي يستقبلَكْ

هُوَ، في وظيفته القديمةِ، مثل آذارَ
الجديدِ ... أَعادَ للأشجار أَسماءَ الحنينِ
وأَهمَلكْ

فلتحتفلْ مع أَصدقائكَ بانكسار الكأس.
في الستين لن تَجِدَ الغَدَ الباقي
لتحملَهُ على كَتِفِ النشيد... ويحملَكْ

قُلْ للحياةِ، كما يليقُ بشاعرٍ متمرِّسٍ:
سِيري ببطء كالإناث الواثقات بسحرهنَّ
وكيدهنَّ. لكلِّ واحدةٍ نداءٌ ما خفيٌّ:
هَيْتَ لَكْ / ما أَجملَكْ!

سيري ببطءٍ، يا حياةُ، لكي أَراك
بِكامل النُقْصَان حولي. كم نسيتُكِ في

خضمِّكِ باحثاً عنِّي وعنكِ. وكُلَّما أدركتُ
سرّاً منك قُلْتِ بقسوةٍ: ما أَجهلَكْ!

قُلْ للغياب: نَقَصْتَني
وأَنـا حـضـرتُ ... لأُكْملَكْ!

## حين تطيل التأمُّل

حين تُطيلُ التأمُّلَ في وردةٍ
جَرَحَتْ حائطاً، وتقول لنفسكَ:
لي أَملٌ في الشفاء من الرملِ /
يخضرُّ قلبُكَ...

حين تُرَافِقُ أُنثى إلى السيرك
ذاتَ نهارٍ جميلٍ كأَيقُونةٍ ...
وتحلُّ كضيفٍ على رقصة الخيلِ /
يحمرُّ قلبُكَ ...

حين تَعُدُّ النجومَ وتُخْطىءُ بعد
الثلاثةَ عشرَ، وتنعس كالطفل

في زُرقَة الليلِ /
يبيضُّ قلبُكَ ...

حين تَسيرُ ولا تجد الحُلْمَ
يمشي أَمامك كالظلّ /
يصفرُّ قلبك ...

## إن مشيت على شارع

إن مَشَيْتَ على شارعٍ لا يُؤَدِّي إلى هاويةْ
قُلْ لمن يجمعون القمامةَ: شكراً!

إن رجعتَ إلى البيت، حيّاً، كما ترجع القافيةْ
بلا خَلَلٍ، قُلْ لنفسك: شكراً!

إن توقَّعْتَ شيئاً وخانك حَدْسُك، فاذهبْ غداً
لترى أَين كُنْتَ، وقُلْ للفراشة: شكراً!

إن صرختَ بكُلِّ قواك، وردَّ عليك الصدى
«مَنْ هناك؟» فقل للهويّة: شكراً!

إن نظرتَ إلى وردةٍ دون أن توجعَكْ
وفرحتَ بها، قل لقلبك: شكراً!

إن نهضت صباحاً، ولم تجد الآخرين مَعَكْ
يفركون جُفُونَكَ، قل للبصيرة: شكراً!

إن تَذَكَّرْتَ حرفاً من ٱسمكَ وٱسمِ بلادكَ،
كُنْ وَلَداً طيِّباً!
ليقول لك الربُّ: شكراً!

## مقهى، وأَنت مع الجريدة

مقهىً، وأَنتَ مع الجريدة جالسٌ
لا، لَسْتَ وحدَك. نِصْفُ كأسك فارغٌ
والشمسُ تملأ نصفها الثاني...
ومن خلف الزجاج ترى المشاة المسرعين
ولا تُرى [إحدى صفات الغيب تلك:
تَرَى ولكن لا تُرَى]
كم أَنت حُرٌّ أَيها المنسيُّ في المقهى!
فلا أَحَدٌ يرى أَثَرَ الكمنجة فيك،
لا أَحَدٌ يحملقُ في حضورِكَ أو غيابكَ،
أَو يدقِّقُ في ضبابك إن نظرتَ
إلى فتاةٍ وانكسرت أَمامها...
كم أنت حُرٌّ في إدارة شأنك الشخصيِّ

في هذا الزحام بلا رقيب منك أَو
من قارىء!
فاصنع بنفسك ما تشاء، إِخلَعْ
قميصك أو حذاءك إن أَردتَ، فأنت
منسيٌّ وحُرٌّ في خيالك، ليس لاسمكَ
أَو لوجهكَ ههنا عَمَلٌ ضروريٌّ. تكون
كما تكون... فلا صديقَ ولا عَدُوَّ
هنا يراقب ذكرياتِكَ /
فالتمسْ عُذْراً لمن تركتك في المقهى
لأنك لم تلاحظ قَصَّةَ الشَّعْرِ الجديدةَ
والفراشاتِ التي رقصتْ على غمَّازَتَيْها /
والتمسْ عذراً لمن طلب ٱغتيالكَ،
ذات يومٍ، لا لشيءٍ... بل لأنك لم
تَمُتْ يوم ارتَطمْتَ بنجمة... وكَتَبْتَ
أُولى الأغنيات بحبرها...

مقهىً، وأَنت مع الجريدة جالسٌ
في الركن منسيّاً، فلا أَحد يُهين
مزاجَكَ الصافي،
ولا أَحَدٌ يُفكرُ باغتيالكْ
كم أنت منسيٌّ وحُرٌّ في خيالك!

# II

# هُوَ

## هو، لا غيره

هُوَ، لا غيره، مَنْ ترجَّل عن نجمةٍ
لم تُصِبْهُ بأَيِّ أَذى.
قال: أسطورتي لن تعيش طويلاً
ولا صورتي في مخيّلة الناس /
فلتَمْتَحِنِّي الحقيقةُ
قلت له: إن ظَهَرْتَ انكسَرْتَ، فلا تنكسرْ
قال لي حُزْنُهُ النَّبَويُّ: إلى أين أذهبُ؟
قُلت إلى نجمةٍ غيرِ مرئيّةٍ
أو إلى الكهف /
قال: يحاصرني واقعٌ لا أُجيد قراءته
قلت: دَوِّنْ إذنْ، ذكرياتِكَ عن نجمة بَعُدَتْ
وَغَدٍ يتلكّأُ، واسألْ خيالك: هل

كان يعلم أنَّ طريقَكَ هذا طويل؟
فقال: ولكنني لا أُجيدُ الكتابةَ يا صاحبي!
فسألت: كذبت علينا إذاً؟
فأجاب: على الـحُلْم أن يرشد الحالمين
كما الوَحْيُ /
ثم تنهَّد: خُذْ بيدي أيها المستحيل!
وغاب كما تتمنَّى الأساطيرُ /
لم ينتصر ليموت، ولم ينكسر ليعيش
فَخُذْ بيدينا معاً، أيها المستحيل!

## لم ينتظر أحداً

لم ينتظر أَحداً،
ولم يشعر بنقصٍ في الوجودِ،
أَمامه نَهْرٌ رماديٌّ كمعطفه،
ونُورُ الشمس يملأ قلبَهُ بالصَّحْوِ
والأشجارُ عاليةٌ /

ولم يشعر بنقصٍ في المكانِ،
المقعدُ الخشبيٌّ، قهوتُهُ، وكأسُ الماءِ
والغرباءُ، والأشياءُ في المقهى
كما هِيَ،
والجرائدُ ذاتُها: أَخبارُ أمسِ، وعالمٌ
يطفو على القتلى كعادتِهِ /

ولم يَشْعُرْ بحاجتِهِ إلى أَملٍ ليؤنسَهُ
كأنْ يخضوضرَ المجهولُ في الصحراءِ
أَو يشتاقَ ذئبٌ ما إلى جيتارةٍ،
لم ينتظر شيئاً، ولا حتى مفاجأةً،
فلن يَقْوَى على التكرار... أَعرفُ
آخر المشوار مُنْذُ الخطوة الأولى ـــ
يقول لنفسه ـــ لم أَبتعِدْ عن عالمٍ،
لم أقتربْ من عالمٍ

لم ينتظر أَحداً.. ولم يشعر بنقصٍ
في مشاعره. فما زال الخريفُ مضيفَهُ الملكيَّ،
يُغْريهِ بموسيقى تُعيدُ إليه عصر النهضةِ
الذهبيِّ ... والشعرَ الـمُقَفى بالكواكب والمدى

لم ينتظر أَحداً أمام النهر /

في اللا إنتظار أُصاهرُ الدوريَّ
في اللا إنتظار أكون نهراً ــ قال ــ
لا أَقسو على نفسي، ولا
أَقسو على أَحدٍ،
وأَنجو من سؤالٍ فادحٍ:
ماذا تريد
ماذا تريد؟

## برتقاليّة

بُرْتُقَاليّةً، تدخلُ الشمس في البحرِ /
والبرتقالةُ قنديلُ ماءٍ على شَجَرٍ باردٍ

برتقاليةً، تَلِدُ الشمسُ طفلَ الغروب الإلهيَّ /
والبرتقالةُ، إحدى وصيفاتها، تتأَمَّلُ مجهولها

برتقاليةً، تسكب الشمسُ سائلها في فم البحرِ /
والبرتقالةُ خائفةٌ من فمٍ جائعٍ

برتقاليةً، تدخل الشمسُ في دَوْرَة الأبديّةِ /
والبرتقالةُ تحظى بتمجيد قاتِلِها:
تلك فاكهةٌ مثل حَبَّة شمسٍ

تُقَشَّرُ باليد والفمِ، مَبْحُوحَةُ الطعمِ
ثرثارةُ العطر سكرى بسائلها...
لونها لا شبيهَ له غيرها،
لونها صِفَةُ الشمس في نومها.
لونها طعمها: حامضٌ سُكَّريٌّ،
غنيٌّ بعافية الضوء والڤيتامين C..

وليس على الشعر من حَرَجٍ إنْ
تلعثم في سَرْدِهِ، وانتبهْ
إلى خَلَلٍ رائعٍ في الشَّبَهْ!

## هنالك عُرْس

هنالك عُرْسٌ على بُعْدِ بيتين منا،
فلا تُغْلِقُوا البابَ... لا تحجبوا نزوةَ
الفَرَحِ الشاذِّ عنا. فإن ذبلت وردةٌ
لا يحسُّ الربيع بواجبه في البكاء.
وإن صَمَتَ العندليبُ المريضُ أَعارَ الكناريَّ
حصَّتَهُ في الغناء. وإن وقعت نجمةٌ
لا تُصَابُ السماء بسوء...
هنالك عُرْسٌ،
فلا تغلقوا الباب في وجه هذا الهواء
المضمَّخ بالزنجبيل وخوخ العروس التي
تَنْضجُ الآن [تبكي وتضحك كالماء.
لا جُرْحَ في الماء. لا أَثَرٌ لدمٍ

سال في الليل]
قيل: قويٌّ هو الـحُبُّ كالموت!
قُلْتُ: ولكن شهوتنا للحياة،
ولو خذلتنا البراهينُ، أَقوى من
الحبّ والموتِ /
فَلْنُنْهِ طقس جِنازتنا كي نشاركَ
جيراننا في الغناء
الحياة بديهيَّةٌ ... وحقيقيَّةٌ كالهباء!

# فراغ فسيح

فراغ فسيح. نحاس. عصافير حنطيَّةُ
اللون. صفصافَةٌ. كَسَلٌ. أُفُقٌ مُهْمَلٌ
كالحكايا الكبيرة. أَرضٌ مجعَّدةُ الوجه.
صَيْفٌ كثير التثاؤب كالكلب في ظلِّ
زيتونةٍ يابسٍ. عَرَقٌ في الحجارة.
شمسٌ عمودية. لا حياةَ ولا موت
حول المكان. جفافٌ كرائحة الضوء في
القمح. لا ماءَ في البئر والقلب.
لا حُبَّ في عَمَل الحُبّ... كالواجب الوطنيّ
هو الـحُبُّ. صحراءُ غيرُ سياحيّةٍ، غير
مرئيَّةٍ خلف هذا الجفاف. جفافٌ
كحرية السجناء بتنظيف أعلامهم من

بُراز الطيور. جفافٌ كحقّ النساء
بطاعة أزواجهنَّ وهجر المضاجع. لا
عشب أَخضر، لا عشب أَصفر. لا
لون في مَرَض اللون. كُلُّ الجهات
رماديّةٌ

لا انتظار إذاً
للبرابرة القادمين إلينا
غداة احتفالاتنا بالوطنْ!

# III

# أنا

## ها هي الكلمات

ها هي الكلماتُ ترفرفُ في البال /
في البال أرضٌ سماويَّةُ الاسم تحملها الكلماتُ.
ولا يحلم الميّتون كثيراً، وإن حلموا
لا يصدِّقُ أَحلامَهُمْ أَحَدٌ...
ها هي الكلماتُ ترفرف في جسدي نحلةً
نحلةً... لو كتبتُ على الأزرقِ الأزرقَ
اخضرّتِ الأغنياتُ وعادت إليَّ الحياةُ.
وبالكلمات وجدت الطريق إلى الاسم
أَقصَرَ... لا يفرح الشعراء كثيراً، وإن
فرحوا لن يصدِّقهم أَحَدٌ...
قلت: ما زلت حيّاً لأني أرى الكلمات
ترفرف في البال /

في البال أُغنيّةٌ تتأرجح بين الحضور
وبين الغياب، ولا تفتح الباب إلَّا
لكي توصد الباب... أُغنيةٌ عن
حياة الضباب، ولكنها لا تُطيع سوى ما
نسيتُ من الكلمات!

## لوصف زهر اللوز

ولوصف زهر اللوز، لا موسوعةُ الأزهار
تسعفني، ولا القاموسُ يسعفني...
سيخطفني الكلامُ إلى أَحابيل البلاغةِ /
والبلاغَةُ تجرح المعنى وتمدح جُرْحَهُ،
كمذكَّرٍ يُمْلي على الأُنثى مشاعرها /
فكيف يشعُّ زهر اللوز في لغتي أَنا
وأَنا الصدى؟
وَهُوَ الشفيفُ كضحكة مائية نبتت
على الأغصان من خَفَر الندى ...
وَهُوَ الخفيفُ كجملةٍ بيضاءَ موسيقيّةٍ...
وَهُوَ الضعيف كلمح خاطرةٍ
تُطِلُّ على أَصابعنا

ونكتبها سُدَى...
وهو الكثيف كبيت شِعْرٍ لا يُدَوَّنُ
بالحروف /
لوصف زهر اللوز تَلْزُمني زيارات إلى
اللاوعي تُرْشِدُني إلى أَسماء عاطفةٍ
مُعَلَّقةٍ على الأشجار. ما ٱسمُهْ؟
ما اسم هذا الشيء في شعريَّة اللاشيء؟
يلزمني اختراقُ الجاذبيةِ والكلام،
لكي أُحِسَّ بخفَّة الكلمات حين تصير
طيفاً هامساً، فأكونها وتكونني
شفَّافَةً بيضاءَ /
لا وَطَنٌ ولا منفى هِيَ الكلماتُ،
بل وَلَعُ البياض بوصف زهر اللوز /
لا ثَلْجٌ ولا قُطْنٌ / فما هُوَ في
تعاليهِ على الأشياء والأسماء

لو نجح المؤلِّفُ في كتابة مقطعٍ
في وصف زهر اللوز، لانحسر الضبابُ
عن التلال، وقال شَعْبٌ كاملٌ:
هذا هُوَ /
هذا كلامُ نشيدنا الوطنيّ!

# في البيت أجلس

في البيت أَجلس، لا حزيناً لا سعيداً
لا أَنا، أَو لا  أَحَدْ

صُحُفٌ مُبَعْثَرَةٌ. وورِدُ المزهريَّةِ لا يُذكِّرني
بمن قَطَفَتْهُ لي. فاليوم عُطْلَتُنا عن الذكرى،
وعُطْلَةُ كُلِّ شيء... إنه يوم الأحدْ

يوم نرتِّبُ فيه مطبخنا وغُرْفَةَ نومنا،
كُلٌّ على حِدَةٍ. ونسمع نشرةَ الأخبار
هادئةً، فلا حَرْبٌ تُشَنُّ على بَلَدْ

ألأمبراطورُ السعيدُ يداعبُ اليومَ الكلابَ،

ويشرب الشمبانيا في ملتقى نَهْدَين من
عاجٍ... ويَسْبَحُ في الزَّبَدْ

ألأمبراطور الوحيدُ اليوم في قيلولةٍ،
مثلي ومثلك، لا يُفَكِّر بالقيامة... فَهْيَ
مُلْك يَمِينِهِ، هِيَ والحقيقةُ والأَبدْ!

كَسَلٌ خفيفُ الوزن يطهو قهوتي
والهالُ يصهَلُ في الهواء وفي الجَسَدْ

وكأنني وحدي. أنا هو أو أنا الثاني
رآني واطمأَنَّ على نهاري وابتعدْ

يوم الأَحد
هو أوَّل الأيام في التوراة، لكنَّ

الزمان يغيِّر العاداتِ: إذ يرتاح
ربُّ الحرب في يوم الأحدْ

في البيت أجلس، لا سعيداً لا حزيناً
بين بين. ولا أُبالي إن علمت بأنني
حقاً أنا... أو لا أَحَدْ!

# أحبّ الخريف وظل المعاني

أُحبُّ الخريفَ وظلَّ المعاني، ويُعْجِبُني
في الخريف غموضٌ خفيفٌ شفيفُ المناديل،
كالشعر غِبَّ ولادته إذ «يُزَغْلِلُهُ»
وَهَجُ الليل أو عتمةُ الضوء. يحبو
ولا يجد الاسم للشيء /

يعجبني مَطَرٌ خَفِرٌ لا يُبَلّل إلّا
البعيداتِ
[في مثل هذا الخريف تَقَاطَعَ موكبُ عُرْسٍ
لنا مع إحدى الجنازات، فاحتفل الحيُّ
بالـمَيْتِ والـمَيْتُ بالحيِّ]

يعجبني أن أرى ملكاً ينحني لاستعادة
لؤلؤة التاج من سَمَكٍ في البحيرة /

تُعْجِبُني في الخريف مشاعيَّةُ اللون، لا
عَرْشَ للذَّهَبِ المُتَواضعِ في وَرَقِ الشجر
المُتَواضِعِ، مثل المساواة في ظمأ الحبِّ /

يعجبني أَنه هدنةٌ بين جَيْشَيْنِ ينتظران
المباراة ما بين شاعِرَتَيْنِ تحبّان فصل الخريف،
وتختلفان على وجهة الاستعارةْ

ويُعجبني في الخريف التواطؤُ بين
الرُّؤَى والعبارةْ!

## وأمَّا الربيع

وأَمَّا الربيعُ، فما يكتب الشعراءُ السكارى
إذا أَفلحوا في التقاط الزمان السريع
بصُنَّارة الكلمات... وعادوا إلى صحوهم سالمين.

قليلٌ من البرد في جَمْرَةِ الـجُلَّنار
يُخفِّفُ من لسعة النار في الاستعارة
[لو كنتُ أَقربَ منكِ إليَّ
لقبَّلْتُ نفسي]

قليلٌ من اللون في زهرة اللوز يحمي
السماوات من حجَّة الوَثَنيِّ الأخيرةِ
[مهما اختلفنا سَنُدْرِكُ أَنَّ السعادةَ

ممكنةٌ مثل هَزَّةِ أرضٍ]

قليلٌ من الرقص في مهرجان الزواج الإباحيّ
بين النباتات سوف ينشِّط دورتنا الدمويَّة
[لا تعرف البذرةُ الموتَ
مهما ابتعدنا]

ولا تخجلُ الأبديَّةُ من أَحَدٍ
حين تمنَحُ عانَتَها للجميع
هنا... في الربيع السريع

## كنت أحبّ الشتاء

كُنْتُ في ما مضى أَنحني للشتاء احتراماً،
وأصغي إلى جسدي. مَطَرٌ مطر كرسالة
حب تسيلُ إباحيَّةً من مُجُون السماء.
شتاءٌ. نداءٌ. صدى جائع لاحتضان النساء.
هواءٌ يُرَى من بعيد على فرس تحمل
الغيم... بيضاءَ بيضاءَ. كنت أُحبُّ
الشتاء، وأَمشي إلى موعدي فرحاً
مرحاً في الفضاء المبلَّل بالماء. كانت
فتاتي تنشِّفُ شعري القصير بشعر طويل
تَرَعْرَعَ في القمح والكستناء. ولا تكتفي
بالغناء: أنا والشتاء نحبُّكَ، فابْقَ
إذاً مَعَنا! وتُدَفّىءُ صدري على

شادِنَيْ ظبيةٍ ساخنين. وكنت أُحبُّ
الشتاء، وأسمعه قطرة قطرة.
مطر، مطر كنداءٍ يُزَفُّ إلى العاشق:
أُهطلْ على جسدي!... لم يكن في
الشتاء بكاء يدلُّ على آخر العمر.
كان البدايةَ، كان الرجاءَ. فماذا
سأفعل، والعمر يسقط كالشَّعْر،
ماذا سأفعل هذا الشتاء؟

# كما لو فرحت

كما لو فَرِحْتُ: رجعت. ضغطتُ على
جرس الباب أكثرَ من مرّةٍ، وانتظرتُ...
لعلِّي تأخرتُ. لا أَحَدٌ يفتح الباب، لا
نأمةٌ في الممرِّ.
تذكرتُ أَن مفاتيح بيتي معي، فاعتذرتُ
لنفسي: نسيتُك فادخلْ
دخلنا ... أَنا الضيف في منزلي والمضيف.
نظرتُ إلى كل مُحْتَويات الفراغ، فلم أَرَ
لي أَثَراً، ربما... ربما لم أكن ههنا. لم
أَجد شَبَهاً في المرايا. ففكَّرْتُ: أَين
أنا، وصرخت لأوقظ نفسي من الهذيان،
فلم أَستطع... وانكسرتُ كصوتٍ تَدَحرَجَ

فوق البلاط. وقلت: لماذا رجعت إذاً؟
واعتذرت لنفسي: نسيتُكَ فاخرجْ!
فلم أَستطع. ومشيت إلى غرفة النوم،
فاندفع الحلم نحوي وعانقني سائلاً:
هل تغيَّرتَ؟ قلت تغيّرتُ، فالموتُ
في البيت أَفضلُ من دَهْسِ سيَّارةٍ
في الطريق إلى ساحة خالية!

# فرحاً بشيء ما

فَرِحاً بشيءٍ ما خفيٍّ، كُنْتُ أَحتضن
الصباح بقُوّة الإنشاد، أَمشي واثقاً
بخطايَ، أَمشي واثقاً برؤايَ. وَحْيٌ ما
يناديني: تعال! كأنَّه إيماءةٌ سحريّةٌ،
وكأنه حُلْمٌ ترجَّل كي يدربني على أَسراره،
فأكون سيِّدَ نجمتي في الليل... معتمداً
على لغتي. أَنا حُلْمي أنا. أنا أُمُّ أُمّي
في الرؤى، وأَبو أَبي، وابني أَنا.

فرحاً بشيءٍ ما خَفيٍّ، كان يحملني
على آلاته الوتريّةِ الإنشادُ. يَصْقُلُني

ويصقلني كماس أَميرة شرقية
ما لم يُغَنَّ الآن
في هذا الصباح
فلن يُغَنّى

أَعطنا، يا حُبُّ، فَيْضَكَ كُلَّه لنخوض
حرب العاطفيّين الشريفةَ، فالـمُناخُ ملائمٌ،
والشمس تشحذ في الصباح سلاحنا،
يا حُبّ! لا هدفٌ لنا إلّا الهزيمةَ في
حروبك... فانتصرْ أَنت انتصرْ، وٱسمعْ
مديحك من ضحاياكَ: ٱنتصر! سَلِمَتْ
يداك! وَعُدْ إلينا خاسرين... وسالماً!

فرحاً بشيءٍ ما خفيٍّ، كنتُ أَمشي
حالماً بقصيدة زرقاء من سطرين، من

سطرين... عن فرح خفيف الوزن،
مرئيٍّ وسرّيّ معاً
مَنْ لا يحبُّ الآن،
في هذا الصباح،
فلن يُحبّ!

# لا أعرف الشخص الغريب

لا أَعرف الشخصَ الغريبَ ولا مآثِرَهُ...
رأيتُ جِنازةً فمشيت خلف النعش،
مثل الآخرين مطأطىء الرأس احتراماً. لم
أَجد سَبَباً لأسأل: مَنْ هُو الشخصُ الغريبُ؟
وأين عاش، وكيف مات [فإن أسباب
الوفاة كثيرةٌ من بينها وجع الحياة].
سألتُ نفسي: هل يرانا أَم يرى
عَدَماً ويأسفُ للنهاية؟ كنت أَعلم أنه
لن يفتح النَّعْشَ المُغَطَّى بالبنفسج كي
يُودِّعَنا ويشكرنا ويهمسَ بالحقيقة
[ما الحقيقة؟]. رُبَّما هُوَ مثلنا في هذه
الساعات يطوي ظلَّهُ. لكنَّهُ هُوَ وحده

الشخصُ الذي لم يَبْكِ في هذا الصباح،
ولم يَرَ الموت المحلِّقَ فوقنا كالصقر...
[فالأحياء هم أَبناءُ عَمِّ الموت، والموتى
نيام هادئون وهادئون وهادئون] ولم
أَجد سبباً لأسأل: من هو الشخص
الغريب وما اسمه؟ [لا برق
يلمع في اسمه] والسائرون وراءه
عشرون شخصاً ما عداي [أنا سواي]
وتُهْتُ في قلبي على باب الكنيسة:
ربما هو كاتبٌ أو عاملٌ أو لاجئٌ
أو سارقٌ، أو قاتلٌ... لا فرق،
فالموتى سواسِيَةٌ أمام الموت.. لا يتكلمون
وربما لا يحلمون...
وقد تكون جنازةُ الشخصِ الغريب جنازتي
لكنَّ أَمراً ما إلهياً يُؤَجِّلُها

لأسبابٍ عديدةْ
من بينها: خطأ كبير في القصيدةْ!

# IV

# هي

## الجميلات هن الجميلات

ألجميلات هُنَّ الجميلاتُ

[نَقْشُ الكمنجات في الخاصرةْ]

أَلجميلات هُنَّ الضعيفاتُ

[عرشٌ طفيفٌ بلا ذاكرةْ]

ألجميلاتُ هُنَّ القويّاتُ

[يأسٌ يضيء ولا يحترقْ]

ألجميلاتُ هنَّ الأميراتُ

[رَبَّاتُ وَحْيٍ قَلِقْ]

ألجميلاتُ هُنَّ القريباتُ

[جاراتُ قوس قُزَحْ]

ألجميلاتُ هُنَّ البعيداتُ

[مثل أغاني الفرحْ]

أَلجميلات هُنَّ الفقيراتُ
[كالورد في ساحة المعركةْ]
أَلجميلاتُ هُنَّ الوحيداتُ
[مثل الوصيفات في حضرة الملكةْ]
أَلجميلات هُنَّ الطويلاتُ
[خالات نخل السماءْ]
الجميلات هن القصيرات
[يُشْرَبْنَ في كأس ماءْ]
أَلجميلات هُنَّ الكبيراتُ
[مانجو مُقَشَّرَةٌ ونبيذٌ مُعَتَّقْ]
أَلجميلات هُنَّ الصغيراتُ
[وَعْدُ غدٍ وبراعمُ زنبقْ]
أَلجميلاتُ، كُلُّ الجميلات، أنتِ
إذا ما اجْتَمَعْنَ ليخْتَرْنَ لي أَنبل القاتلات!

## كمقهى صغير هو الحبّ

كمقهى صغير على شارع الغرباء ــ
هو الحُبُّ... يفتح أَبوابه للجميع.
كمقهى يزيد وينقُصُ وَفْق المُناخ:
إذا هَطَلَ المطرُ ازداد رُوَّادُهُ،
وإذا اعتدل الجوُّ قَلُّوا ومَلُّوا...
أَنا هٰهنا ــ يا غريبةُ ــ في الركن أجلس
[ما لون عينيكِ؟ ما ٱسمك؟ كيف
أناديك حين تَمُرِّين بي، وأَنا جالس
في انتظاركِ؟]
مقهى صغيرٌ هو الحبُّ. أَطلب كأسَيْ
نبيذٍ وأَشرب نخبي ونخبك. أَحمل
قُبَّعتين وشمسيَّةً. إنها تمطر الآن.

تمطر أكثر من أَيّ يوم، ولا تدخلين.
أَقول لنفسي أَخيراً: لعلَّ التي كنت
أنتظرُ انتظَرَتْني... أَو انتظرتْ رجلاً
آخرَ ـــ انتظرتنا ولم تتعرف عليه / عليَّ،
وكانت تقول: أَنا هٰهنا في انتظاركَ.
[ما لون عينيكَ؟ أَيَّ نبيذٍ تحبُّ؟
وما ٱسمُكَ؟ كيف أناديكَ حين
تمرُّ أَمامي]
كمقهى صغيرٍ هو الـحُبّ...

## يد تنشر الصحو

يَدٌ تَنْشُرُ الصَحْوَ أَبيضَ، تسهَرُ،
تنهى وتأمرُ، تنأى وتدنو، وتقسو
وتحنو. يَدٌ تكسر اللازورد بإيماءةٍ،
وترقِّصُ خيلاً على النَّهَوَنْد. يَدٌ تتعالى.
تثرثرُ حين يجفُّ الكلامُ. يَدٌ تسكب
البرق في قَدَح الشاي، تحلُبُ ثَدْيَ
السحابة، تستدرج الناي «أَنتَ صدايَ».
يَدٌ تتذكّرُ ما سوف يحدث عما قليل.
يَدٌ تتلألأ في أنجمٍ خمسةٍ... تحرم
الليلَ من حَقِّه في النعاس. يَدٌ تعصُرُ
المفردات فترشح ماءً. يَدٌ تتحدث عن
هجرة الطير منها إليها. يَدٌ ترفع

المعنوياتِ في الكلمات، يَدٌ تأمر
الجيشَ بالنوم في الثكنات. يَدٌ تتحرَّشُ
بالموج في جسدي. يَدُها هَمْسَةٌ تلمَسُ
الأوجَ: خذني... هنا الآن... خذني!

## قال لها:
## ليتني كنت أصغر

قال لها: ليتني كُنْتُ أَصْغَرَ...
قالت لَهُ: سوف أكبر ليلاً كرائحة
الياسمينة في الصيفِ
ثم أَضافت: وأَنت ستصغر حين
تنام، فكُلُّ النيام صغارٌ. وأَمَّا أَنا
فسأسهر حتى الصباح ليسودَّ ما تحت
عينيَّ. خيطان من تَعَبٍ مُتْقَنٍ يكفيان
لأَبْدوَ أكبرَ. أَعصرُ ليمونةً فوق
بطني لأُخفيَ طعم الحليب ورائحةَ القُطْنِ.
أَفرك نهديَّ بالملح والزنجبيل فينفر نهدايَ
أكثر /

قال لها: ليس في القلب مُتَّسَعٌ
للحديقة يا بنت... لا وقت في جسدي
لغدٍ... فاكبري بهدوءٍ وبُطْءٍ
فقالت له: لا نصيحةَ في الحب. خذني
لأكبَرَ! خذي لتصغرَ
قال لها: عندما تكبرين غداً ستقولين:
يا ليتني كُنْتُ أَصغرَ
قالت له: شهوتي مثل فاكهةٍ لا
تُؤَجَّلُ... لا وَقْتَ في جسدي لانتظار
غدي!

## لا أنام لأحلم

لا أَنامُ لأحلم ــ قالت لَهُ
بل أَنام لأنساكَ. ما أطيب النوم وحدي
بلا صَخَبٍ في الحرير، ٱبتعدْ لأراكَ
وحيداً هناك، تفكِّر بي حين أَنساكَ /
لا شيء يوجعني في غيابكَ
لا الليل يخمش صدري ولا شفتاكَ ...
أنام على جسدي كاملاً كاملا
لا شريك له،
لا يداك تشقَّان ثوبي، ولا قدماكَ
تَدُقَّانِ قلبي كبُنْدقَةٍ عندما تغلق الباب /
لا شيء ينقصني في غيابك:
نهدايَ لي. سُرَّتي. نَمَشي. شامتي،

ويدايَ وساقايَ لي. كُلُّ ما فيَّ لي
ولك الصُّوَرُ المشتهاةُ، فخذْها
لتؤنس منفاكَ، وآرفع رؤاك كَنَخْبٍ
أخير. وقل إن أَردت: هَواكِ هلاك.

وأَمَّا أَنا، فسأُصْغي إلى جسدي
بهدوء الطبيبة: لا شيء، لا شيء
يُوجِعُني في الغياب سوى عُزْلَةِ الكون!

# نسيتْ غيمةً في السرير

نسيتْ غيمةً في السرير. على عَجَلٍ
وَدَّعتني وقالت: سأنساك. لكنها
نسيتْ غيمة في السرير. فغطّيتُها بالحريرِ
وقلتُ لها: لا تطيري ولا تتبعيها.
ستأتي إليكِ.
[وكانت عصافيرُ زرقاءُ، حمراءُ،
صفراءُ ترتشف الماء من غيمةٍ
تتباطأ حين تطل على كتفيها]
ستُدْرِكُ حين تعود إلى بيتها، دون
حاشيةٍ من عصافيرَ، أنَّ المناخ تغيّر
في ساحل الكتفين، وأن السحاب تبخر/
عندئذٍ تتذكَّرُ ما نسيتْ: غيمةً في

سريري، فترجع كي تستعيد تقاليدها
الملكية في غيمة...
فشمَتُّ بها وابتسمتُ.
وحين دخلتُ سريري لأَرقد في
الاستعارة بَلَّلني الماء

# هي / هو

هِيَ: هل عرفتَ الحبَّ يوماً؟

هُوَ: عندما يأتي الشتاء يمسُّني
شَغَفٌ بشيء غائب، أُضفي عليه
الاسمَ، أَيَّ اسمٍ، وأَنسى...

هي: ما الذي تنساه؟ قُلْ!

هو: رَعْشَةُ الحُمَّى، وما أهذي به
تحت الشراشف حين أَشهق: دَثِّريني
دثِّريني!

هي: ليس حُباً ما تقول

هو: ليس حباً ما أَقول

هي: هل شعرتَ برغبة في أن تعيش
الموت في حضن امرأةْ؟

هو: كلما اكتمل الغيابُ حضرتُ...
وانكسر البعيد، فعانق الموتُ الحياةَ
وعانَقَتْهُ... كعاشقين

هي: ثم ماذا؟

هو: ثم ماذا؟

هي: واتحَّدتَ بها، فلم تعرف يديها
من يديك وأَنتما تتبخَّران كغيمةٍ زرقاءَ
لا تَتَبيَّنان أأنتما جسدان... أم طيفان
أَمْ؟

هو: مَنْ هي الأنثى ــ مجازُ الأرض
فينا؟ مَنْ هو الذَّكَرُ ــ السماء؟

هي: هكذا ابتدأت أغاني الحبّ. أَنت إذن
عرفتَ الحب يوماً!

هو: كلما اكتمل الحضورُ ودُجِّن المجهول...
غبتُ

هي: إنه فصل الشتاء، ورُبَّما
أَصبحتُ ماضيَكَ المفضَّل في الشتاء
هو: ربما... فإلى اللقاء
هي: ربما.. فإلى اللقاء!

## هي لا تحبك أنت

هي لا تحبُّكَ أَنتَ
يعجبُها مجازُكَ
أَنتَ شاعرُها
وهذا كُلُّ ما في الأَمرِ /

يُعْجِبُها اندفاعُ النهر في الإيقاعِ
كن نهراً لتعجبها!
ويعجبُها جِماعُ البرق والأصوات
قافيةً ...
تُسيلُ لُعَابَ نهديها
على حرفٍ
فكن أَلِفاً ... لتعجبها!

ويعجبها ارتفاعُ الشيء
من شيء إلى ضوء
ومن ضوءٍ إلى جِرْسٍ
ومن جِرْسٍ إلى حِسٍّ
فكن إحدى عواطفها... لتعجبَها

ويعجبها صراعُ مسائها مع صدرها:
[عذَّبْتَني يا حُبُّ
يا نهراً يَصُبُّ مُجُونَهُ الوحشيَّ
خارج غرفتي...
يا حُبُّ! إن لم تُدْمِني شبقاً
قتلتك]

كُنْ ملاكاً، لا ليعجبها مجازُك
بل لتقتلك انتقاماً من أُنوثتها

ومن شَرَك المجاز ... لعلَّها
صارت تحبُّكَ أَنتَ مُذْ أَدخلتها
في اللازورد، وصرتَ أنتَ سواك
في أَعلى أعاليها هناك...
هناك صار الأمر ملتبساً
على الأبراج
بين الحوت والعذراء...

## لم تأتِ

لم تأتِ. قُلْتُ: ولنْ ... إذاً
سأعيد ترتيب المساء بما يليق بخيبتي
وغيابها:
أطفأتُ نار شموعها،
أشعلتُ نور الكهرباء،
شربتُ كأس نبيذها وكسرتُهُ،
أَبدلتُ موسيقى الكمنجات السريعةِ
بالأغاني الفارسيّة.
قلت: لن تأتي. سأنضو رَبْطَةَ
العنق الأنيقة [هكذا أرتاح أكثر]
أرتدي بيجامة زرقاء. أمشي حافياً
لو شئتُ. أَجلس بارتخاءِ القُرْفُصاءِ

على أريكتها، فأنساها
وأَنسى كل أشياء الغياب /
أَعَدْتُ ما أعددتُ من أدوات حفلتنا
إلى أدراجها. وفتحتُ كُلَّ نوافذي وستائري.
لا سرَّ في جسدي أمام الليل إلّا
ما انتظرتُ وما خسرتُ...
سخرتُ من هَوَسي بتنظيف الهواء لأجلها
[عطرته برذاذ ماء الورد والليمون]
لن تأتي... سأنقل نَبْتَةَ الأُوركيدِ
من جهة اليمين إلى اليسار لكي أعاقبها
على نسيانها...
غَطّيتُ مرآةَ الجدار بمعطفٍ كي لا أَرى
إشعاع صورتها ... فأندم /
قلتُ: أَنسى ما اقتَبَسْتُ لها
من الغَزَل القديم، لأنها لا تستحقُّ

قصيدةً حتى ولو مسروقةً...
ونسيتُها، وأَكلتُ وجبتيَ السريعةَ واقفاً
وقرأتُ فصلاً من كتابٍ مدرسيّ
عن كواكبنا البعيدةْ
وكتبت، كي أنسى إساءتها، قصيدةْ
هذي القصيدةْ!

## وأَنتِ معي

وأنتِ معي، لا أَقول: هنا الآن
نحن معاً. بل أَقول: أَنا، أَنتِ،
والأَبديةُ نسبح في لا مكانْ

هواءٌ وماءٌ. نفكُّ الرموز. نُسَمِّي،
نُسَمَّى، ولا نتكلّم إلّا لنعلم كم
نَحْنُ نَحْنُ... وننسى الزمانْ

ولا أَتذكَّرُ في أَيِّ أرضٍ وُلدتِ،
ولا أَتذكر من أَيّ أَرض بُعثتُ.
هواءٌ وماء، ونحن على نجمة طائرانْ

وأَنتِ معي يَعْرَقُ الصمتُ، يغرورقُ
الصَّحْوُ بالغيم، والماءُ يبكي ويبكي الهواء،
على نفسه كلما اتَّحد الجسدانْ

ولا حُبَّ في الحبِّ،
لكنه شَبَقُ الروح للطيرانْ

## الآن بعدك

ألآن، بَعْدَكِ... عند قافيةٍ مناسبةٍ
ومنفى، تُصلح الأشجارُ وقفتها وتضحك.
إنه صيف الخريف... كَعُطْلَةٍ في غير
موعدها، كثقبٍ في الزمان، وكانقطاعٍ
في نشيدِ

صيف الخريف تَلفُّتُ الأيام صَوْبَ حديقةٍ
خضراءَ لم تنضج فواكهُها، وصَوْبَ حكايةٍ
لم تكتمل: ما زال فينا نَوْرسان يُحَلِّقان
من البعيد إلى البعيدِ

أَلشمسُ تضحَكُ في الشوارع، والنساءُ

النازلاتُ من الأَسِرَّة، ضاحكاتٍ ضاحكاتٍ،
يغتسلن بشمسهنَّ الداخلية، عارياتٍ عارياتٍ.
إنه صيف الخريف يجيء من وقت إضافيٍّ
جديد.

صيف الخريف يشُدُّني ويشدُّكِ: ٱنتظرا!
لعلَّ نهايةً أُخرى وأجملَ في انتظاركما أمام
محطة المترو. لعلَّ بدايةً دخلت إلى
المقهى ولم تخرج وراءكما. لعلَّ خطابَ
حبّ ما تأخَّرَ في البريدِ.

ٱلآن، بعدك... عند قافية ملائمة
ومنفى... تُصْلِحُ الأشجارُ وقفتها وتضحك.
أَشتهيك وأَشتهيك وأنت تغتسلين،
عن بُعْدٍ، بشمسك. إنه صيف الخريف

كعطلة في غير موعدها. سنعلم أَنه
فَصْلٌ يدافع عن ضرورته، وعن حُبّ
خرافيّ... سعيدِ

الشمسُ تضحكُ من حماقتنا وتضحكُ،
لن أَعود ولن تعودي!

# ٧ منفى (١)

# نهار الثلاثاء والجوُّ صافٍ

نهارَ الثُّلاثاء، والجوُّ صافٍ، أَسيرُ
على شارعٍ جانبيّ مُغَطّى بسقف من
الكستناء... أَسير خفيفاً خفيفاً كأني
تبخَّرتُ من جسدي، وكأني على موعد
مع إحدى القصائد. أَنظر في ساعتي
شارداً. أَتصفَّحُ أوراق غيم بعيد
تدوِّنُ فيه السماءُ خواطرَ عليا، أُقلِّبُ
أحوال قلبي على شجر الجوز: خالٍ
من الكهرباء ككوخ صغير على شاطىء
البحر. أسْرَعَ، أبطأَ، أسرعَ أَمشي.
أُحدِّق في اللافتات على الجانبين...
ولا أَحفظ الكلمات. أدندن لحناً

بطيئاً كما يفعل العاطلون عن العمل:
«النهر كالمهر يجري إلى حتفه / البحرِ
والطيرُ تختطف الحَبَّ من كتِفِ النهر».
أَهجس، أهمس في السرّ: عِشْ
غدك الآن! مهما حَييتَ فلن تبلغ
الغَدَ... لا أرضَ للغد، واحلُمْ
ببطء، فمهما حلمت ستدرك أنَّ
الفراشة لم تحترق لتضيئك /

أَمشي خفيفاً خفيفاً. وأَنظر حولي
لعلّي أرى شَبَهاً بين أوصاف نفسي
وصفصاف هذا الفضاء فلا أَتبيّنُ
شيئاً يشير إليَّ

[إذا لم يُغَنِّ الكناريُّ

يا صاحبي لَكَ... فاعلمْ
بأنك سجان نفسك، إن
لم يُغَنّ الكناريُّ]

لا أَرضَ ضيِّقةً كأصيص الورود
كأرضك أنتَ.. ولا أرضَ واسعةً
كالكتاب كأرضك أنتَ.. ورؤياك
منفاك في عالم لا هُويَّة للظلّ
فيه، ولا جاذبيّة /

تمشي كأنك غيرك |

لو أستطيع الحديث إلى أَحد في
الطريق لقُلْتُ: خُصُوصيَّتي هي ما
لا يدلُّ عليَّ، وما لا يُسَمَّى

من الموت حلماً، ولا شيء أكثر /
لو أستطيع الحديث إلى امرأة
في الطريق لقلتُ: خصوصيتي لا
تثير انتباهاً: تكلُّسُ بعض الشرايين
في القدمين، ولا شيء أكثر، فامشي
الهوينى معي مثل مشي السحابة
«لا هي رَيْثٌ... ولا عجل»...

ولو أَستطيع الحديث إلى شبح الموت
خلف سياج الأضاليا لقلت: وُلدنا
معاً توأمين، أَخي أنت يا قاتلي،
يا مهندس دربي على هذه الأرض...
أمي وأمِّكَ، فارمِ سلاحكَ /

لو أستطيع الحديث إلى الـحُبِّ، بعد

الغداء، لقلت له: حين كنا
فَتيَّين كنا لُهَاثَ يدين على زَغَب
المفردات، وإغماءَةَ المفردات على
ركبتين. وكُنْتَ قليل الصفات، كثيرَ
الحراك، وأوضحَ: فالوجه وَجْهُ
ملاكٍ يجيء من النوم، والجسم
كَبْشٌ بقُوَّة حُمَّى. وكنت تُسمَّى
كما أَنت «حباً» فيُغْمى علينا
وُيغمى على الليل /

أَمشي خفيفاً، فأكبر عَشْرَ دقائقَ،
عشرين، ستِّين... أَمشي وتنقص
فيَّ الحياةُ على مهلها كسُعالٍ خفيف.
أفكِّر: ماذا لو أني تباطأتُ، ماذا
لو أني توقّفْتُ؟ هل أوقف الوقت؟

هل أربك الموت؟ أَسخر من فكرتي،
ثم أسأل نفسي: إلى أين تمشين
أَيتها المطمئنة مثل النعامة؟ أَمشي
كأن الحياة تعدِّل نقصانها بعد حين.
ولا أتلفت خلفي، فلن أَستطيع
الرجوع إلى أي شيء، ولا أستطيع
التماهي

ولو أستطيع الحديث إلى الربِّ قلت:
إلهي إلهي! لماذا تخلَّيْتَ عني؟
ولستُ سوى ظلِّ ظلك في الأرض،
كيف تخلَّيْتَ عني، وأَوقعتني في
فخاخ السؤال: لماذا خلقت البعوض
إلهي إلهي؟

وأَمشي بلا موعدٍ، خالياً من
وعود غدي. أَتذكَّرُ أني نسيتُ،
وأَنسى كما أَتذكَّرُ:

أَنسى غراباً على غصن زيتونةٍ
أَتذكَّرُ بُقْعَةَ زيتٍ على الثوبِ

أنسى نداء الغزال إلى زَوْجِهِ
أتذكَّرُ خَطَّ النمال على الرملِ

أَنسى حنيني إلى نجمةٍ وقعتْ من يدي
أتذكَّرُ فَرْوَ الثعالبِ

أنسى الطريق القديم إلى بيتنا
أَتذكَّرُ عاطفةً تشبه المندرينةَ

أَنسى الكلامَ الذي قُلْتُهُ
أَتذكَّر ما لم أَقل بعد

أنسى رواياتِ جدي وسيفاً على حائطٍ
أَتذكَّر خوفي من النومِ

أنسى شفاهَ الفتاة التي امتلأت عنباً
أتذكَّرُ رائحةَ الخسِّ بين الأصابعِ

أَنسى البيوت التي دَوَّنت سيرتي
أتذكر رَقْمَ الهُويَّةِ

أَنسى حوادث كبرى وهزَّةَ أرض مُدمِّرةً
أَتذكَّر تبغ أبي في الخزانة

أَنسى دروب الرحيل إلى عَدَمٍ ناقصٍ
أتذكر ضوء الكواكب في أطلس البدو

أَنسى أزيز الرصاص على قرية أَقفرت
أتذكر صوت الجداجد في الحرش

أَنسى كما أتذكر، أو أتذكر أني نسيت

[ولكنني
أتذكر
هذا النهار،
نهار الثلاثاء
والجوُّ صافٍ]

وأَمشي على شارع لا يؤدي إلى

هدف. رُبَّما أرشدتني خُطَايَ إلى
مقعد شاغر في الحديقة، أو
أرشدتني إلى فكرة عن ضياع الحقيقة
بين الجماليِّ والواقعيّ. سأجلس وحدي
كأني على موعد مع إحدى نساء
الخيال. تخيَّلتُ أني انتظرت طويلاً،
وأني ضجرت من الانتظار، وأني انفجرت:
لماذا تأخَّرتِ؟ تكذب: كان الزحامُ
شديداً على الجسر. فاهدأْ. سأهدأُ
حين تداعب شعري. سأَشعر أَنَّ
الحديقة غرفتنا والظلالَ ستائرُ

[إن لم يُغَنِّ الكناريُّ
يا صاحبي لَكَ ... فاعلم
بأنك أفرطتَ في النوم

إن لم يغنِّ الكناريُّ]

وتسأل: ماذا تقول؟
أقول لها: لم يغنّ الكناريُّ لي
هل تذكَّرتِني يا غريبةُ؟ هل أُشبه
الشاعر الرعويَّ القديمَ الذي توَّجَتْهُ
النجومُ مليكاً على الليل، ثم تنازل
عن عرشه حين أَرسلته راعياً
للغيوم؟ تقول: وهل يشبه اليومُ أَمسِ،
كأنك أَنتَ...

[هناك، على المقعد الخشبي المقابلِ
بنتٌ يُفتِّتُها الانتظار
وتبكي،
وتشرب كأس عصير...

تُلَمِّع بلّور قلبي الصغير
وتحمل عني عواطف هذا النهار]

وأسألها: كيف جئتِ؟
تقول: أتيتُ مصادفةً. كنت أمشي
على شارع لا يؤدي إلى هدفٍ.
قلت: أمشي كأني على موعد...
ربما أرشدتني خُطَايَ إلى مقعد شاغر
في الحديقة، أو أرشدتني إلى فكرة
عن ضياع الحقيقة بين الخياليِّ والواقعيّ.
وهل أنت أيضاً تذكرتني يا غريب؟
وهل أُشبه امرأةَ الأمس، تلك الصغيرةَ،
ذات الضفيرةِ، والأغنيات القصيرةِ
عن حبنا بعد نوم طويل

أقول: كأنَّكِ أنتِ ...

[هناك فتىً يدخل الآن
باب الحديقة،
يحمل خمساً وعشرين زنبقةً
للفتاة التي انتظرته
ويحمل عني فُتُوَّة هذا النهار]

صغير هو القلب... قلبي
كبير هو الحب... حُبّي
يسافر في الريح، يهبطُ
يفرطُ رُمَّانةً، ثم يسقطُ
في تيه عينين لوزيتين
ويصعد من فجر غمَّازتين
وينسى طريق الرجوع إلى بيته واسمه

صغير هو القلب... قلبي
كبير هو الحب !..

هل كان ذاك الذي كُنْتُهُ ــ هُو؟
أم كان ذاك الذي لم أكنه ــ أَنا؟

تقول: لماذا تحكُّ الغيومُ أَعالي الشجرْ؟
أقول: لتلتصق الساقُ بالساق
تحت رذاذ المطرْ

تقول: لماذا تحملق بي قطَّة خائفةْ؟
أقول: لكي توقفي العاصفةْ

تقول: لماذا يحنُّ الغريب إلى أَمسِهِ
أَقول: ليعتمد الشعر فيه على نفسِهِ

تقول: لماذا تصير السماءُ رماديّةَ اللون
عند العشيةْ؟
أَقول: لأنك لم تسكبي الماء في المزهريّةْ

تقول: لماذا تبالغ في السخريةْ؟
أقول: لكي تأكل الأغنيةْ
قليلاً من الخبز ما بين حين وحين

تقول: لماذا نحبّ، فنمشي على طُرُقٍ خاليةْ؟
أقول: لنقهر موتاً كثيراً بموت أَقلّ
وننجو من الهاويةْ

تقول: لماذا حلمتُ بأني رأيت سُنُونُوَّةً في يدي؟
أقول: لأنك في حاجةٍ لأَحدْ

تقول: لماذا تذكِّرني بغد لا أراه
معك؟
أقول: لأنك إحدى صفات الأبدْ

تقول: ستمضي إلى نَفَقِ الليل وحدك
بعدي
أقول: سأمضي إلى نفق الليل بعدك
وحدي

... وأَمشي ثقيلاً ثقيلاً، كأني على موعد
مع إحدى الخسارات. أَمشي وبي شاعر
يستعدّ لراحته الأبديّةِ في ليل لندن.
يا صاحبي في الطريق إلى الشام! لم نبلغ
الشام بعد، تمهَّل تمهّل، ولا تجعل
الياسمينة ثكلى، ولا تمتحنّي، بمرثيَّة:

كيف أحمل عبء القصيدة
عنك وعني؟

قصيدةُ من لا يُحبُّونَ وَصْفَ الضباب
قصيدتُـــهُ
معطفُ الغيم فوق الكنيسةِ
معطفُهُ
سرّ قلبين يلتجئان إلى برَدى
سرّهُ
نخلة السومرية، أمِّ الأناشيد،
نخلتُهُ
ومفاتيحُ قرطبةٍ في جنوب الضباب
مفاتيحُهُ
لا يُذَيِّلُ أشعاره بٱسمه
فالفتاة الصغيرة تعرفُهُ

إن أَحسَّتْ بوخز الدبابيس
والملح في دمها.
هو، مثلي، يطارده قــلبُــهُ
وأَنا، مثله، لا أُذيِّل باسمي الوصيَّــة
فالريح تعرف عنوان أهلي الجديد
على سفح هاوية في جنوب البعيد
وداعاً، صديقي، وداعاً وسلِّم على الشام |

لَسْتُ فـتـيّـاً لأحمل نفسي
على الكلمات، ولست فـتـيّـاً
لأكمل هذي القصيدةَ/

أَمشي مع الضاد في الليل ــ
تلك خصوصيتي اللغويةُ ــ أَمشي
مع الليل في الضاد كهلاً يحثّ

حصاناً عجوزاً على الطيران إلى برج
إيڤل. يا لغتي ساعديني على الاقتباس
لأحتضن الكون. في داخلي شُرْفَةٌ لا
يَمُرُّ بها أَحَدٌ للتحيَّة. في خارجي عالم
لا يردُّ التحيَّة. يا لغتي! هل أكون
أنا ما تكونين؟ أم أنت ــ يا لغتي ــ
ما أكون؟ ويا لغتي دَرِّبيني على
الاندماج الزفافيّ بين حروف الهجاء
وأعضاء جسمي ــ أَكن سيّداً لا صدى.
دَثِّريني بصوفك يا لغتي، ساعديني
على الاختلاف لكي أبلغ الائتلاف. لِدِيني
أَلِدْك. أنا ابنك حيناً، وحيناً أبوك
وأُمُّك. إن كنتِ كنتُ، وإن كُنْتُ
كُنْتِ. وسَمِّي الزمان الجديد بأسمائه
الأجنبيّةِ يا لغتي، واستضيفي الغريب

البعيد ونَثْرَ الحياة البسيطَ لينضج
شعري. فَمَنْ ــ إن نطقتُ بما ليس
شعراً ــ سيفهمني؟ مَنْ يُكَلّمني
عن حنينٍ خفيٍّ إلى زمن ضائع إن
نطقتُ بما ليس شعراً؟ ومن ــ إن
نطقت بما ليس شعراً ــ سيعرف
أرض الغريب؟

سجا الليل، واكتمل الليل، فٱسْتَيْقَظَتْ
زهرةٌ للتنفُّس عند سياج الحديقة.

قُلْتُ: سأشهد أَنيَ ما زلت حياً،
ولو من بعيد. وأني حلمت بأن الذي
كان يحلم، مثلي، أنا لا سواي...
وكان نهاري، نهار الثلاثاء رحباً طويلاً،

وليلي وجيزاً كفصلٍ قصيرٍ أُضيف
إلى المسرحية بعد نزول الستارة. لكنني
لن أُسيء إلى أحد...
إن أَضَفْتُ: وكان نهاراً جميلاً،
كقصةِ حُبٍّ حقيقيةٍ في قطار سريع

[إذا لم يغنِّ الكناريّ
يا صاحبي،
لا تَلُمْ غير نفسك.
إن لم يُغَنِّ الكناريُّ
يا صاحبي لَكَ
غنِّ له أَنت ... غَنِّ له]

# VI منفى (٢)

# ضباب كثيف على الجسر

قال لي صاحبي، والضبابُ كثيفٌ
على الجسر:
هل يُعْرَفُ الشيءُ من ضدِّهِ؟
قلت: في الفجر يتَّضحُ الأمرُ
قال: وليس هنالك وقتٌ أَشدّ
التباساً من الفجر،
فاترك خيالك للنهر /
في زرقة الفجر يُعْدَمُ في
باحة السجن، أو قرب حرش الصنوبر
شابٌّ تفاءل بالنصر /
في زرقة الفجر ترسم رائحةُ الخبز
خارطةً للحياة ربيعيَّةَ الصيف /
في زرقة الفجر يستيقظ الحالمون

خفافاً ويمشون في ماء أَحلامهم
مرحين
ـــ إلى أَين يأخذنا الفجرُ، والفجر
جِسْرٌ، إلى أَين يأخذنا؟
قال لي صاحبي: لا أريد مكاناً
لأُدفَنَ فيه. أريد مكاناً لأَحيا،
وأَلعنَهُ إن أردتُ.
فقلت له ـــ والمكان يمرُّ كإيماءة
بيننا: ما المكان؟
فقال: عُثُورُ الحواسِّ على موطىء
للبديهة،
ثم تنهد:

يا شارعاً ضيقاً كان يحملني
في المساء الفسيح إلى بيتها

في ضواحي السكينةْ
أَما زلت تحفظ قلبيَ
عن ظهر قلب،
وتنسى دخان المدينة؟

قلت له: لا تراهن على الواقعيّ
فلن تجد الشيء حياً كصورته في
انتظارك...
إنَّ الزمان يُدجِّن حتى الجبال
فتصبح أَعلى، وتصبح أوطأ مما عرفت.
إلى أَين يأخذنا الجسرُ؟
قال: وهل كان هذا الطريقُ
طويلاً إلى الجسرِ؟
قلت: وهل كان هذا الضبابُ
كثيفاً على دَرَج الفجرِ؟

كم سنةً كُنْتَ تشبهني؟
قال: كم سَنَةً كُنْتَ أَنتَ أَنا؟
قلتُ: لا أَتذكَّرُ
قال: ولا أتذكر أني تذكرت
غير الطريق

وغنّى:
[على الجسر، في بلد آخرٍ
يعلن الساكسفونُ انتهاءَ الشتاء
على الجسر يعترف الغرباء
بأخطائهم، عندما لا يشاركهم
أَحَدٌ في الغناء]

وقلت له: منذ كم سنة نَسْتَحِثُّ
الحمامة: طيري إلى سدرة المنتهى،

تحت شباكنا، يا حمامة طيري وطيري
فقال: كأني نسيت شعوري
وقال: وعما قليل نقلِّد أَصواتنا
حين كنا صغيرين. نلثغ بالسين واللام.
نغفو كزوجي يمام على كرمة ترتدي
البيت. عما قليل تطلُّ علينا الحياةُ
بديهيَّةً. فالجبال على حالها، خلف
صورتها في مخيلتي. والسماءُ القديمةُ
صافية اللون والذهن، إن لم
يَخُنّي الخيال، تظلُّ على حالها
مثل صورتها في مخيّلتي، والهواء
الشهيُّ النقيّ البهيّ يظل على
حاله في انتظاري.. يظلُّ على حاله.

قلت: يا صاحبي، أَفْرَغتني الطريقُ

الطويلة من جسدي. لا أحس بصلصاله.
لا أُحسُّ بأحواله. كلما سرت طرت.
خطايَ رؤاي. وأَما «أنا» ي، فقد
لَوَّحَتْ من بعيد:

«إذا كان دربُكَ هذا
طويلاً
فلي عَمَلٌ في الأساطير»

أَيدٍ إلهيَّةٌ دَرَّبتنا على حفر أسمائنا
في فهارس صفصافة. لم نكن واضحين
ولا غامضين. ولكنَّ أسلوبنا في
عبور الشوارع من زمنٍ نحو آخرَ
كان يثير التساؤل: مَنْ هؤلاءِ
الذين إذا شاهدوا نخلةً وقفوا

صامتين، وخرّوا على ظلِّها ساجدين؟
ومن هؤلاء الذين إذا ضحكوا أزعجوا
الآخرين؟

على الجسر، في بلد آخر، قال لي
يُعْرَفُ الغرباءُ من النَّظَر المتقطِّع في الماء،
أو يُعْرَفُون من الانطواء وتأتأة المشي.
فابنُ البلاد يسير إلى هدفٍ واضحٍ
مستقيمَ الخطى. والغريب يدور على
نفسه حائراً

قال لي: كُلُّ جسرٍ لقاء... على
الجسر أدخل في خارجي، وأسلم
قلبي إلى نَحْلَةٍ أو سُنُونُوَّةٍ
قلت: ليس تماماً. على الجسر أمشي

إلى داخلي، وأروِّض نفسي على
الانتباه إلى أمرها. كُلُّ جسرٍ فصام،
فلا أنت أنت كما كنت قبل قليل،
ولا الكائنات هي الذكريات

أنا اثنان في واحد
أم أنا
واحدٌ يتشظى إلى اثنين
يا جسْرُ يا جسرُ
أيّ الشَّتِيتيَنِ منا أَنا؟

مشينا على الجسر عشرين عاما
مشينا على الجسر عشرين مترا
ذهاباً إياباً،

وقلت: ولم يبقَ إلّا القليل
وقال: ولم يبقَ إلّا القليل
وقلنا معاً، وعلى حدة، حالمين:

ـ سأمشي خفيفاً، خُطَايَ على الريحِ
قوسٌ تدغدغ أرضَ الكمان
سأسمعُ نبض دمي في الحصى
وعُرُوق المكان

ـ سأُسندُ رأسي إلى جذع خَرُّوبةٍ،
هي أُمِّي، ولو أنْكَرَتْني
سأغفو قليلاً، ويحملني طائران صغيران
أعلى وأعلى... إلى نجمةٍ شرَّدَتْني

ـ سأُوقظُ روحي على وَجَعٍ سابق

قادم، كالرسالة، من شرفة الذاكرةْ
سأهتف: ما زلتُ حيّاً، لأنيَ
أَشعر بالسهم يخترق الخاصرةْ

ـ سأنظر نحو اليمين، إلى جهة الياسمين
هناك تعلَّمْتُ أُولى أغاني الجسدْ
سأنظر نحو اليسار، إلى جهة البحر
حيث تعلَّمتُ صَيْدَ الزَّبَدْ

ـ سأكذب مثل المراهق: هذا الحليب
على بنطلوني ثُمَالَةُ حُلْمٍ تحرَّش بي... وانتهى
سأنكر أني أُقلِّدُ قيلولة الشاعر
الجاهليِّ الطويلةَ بين عيون المها

ـ سأشرب من حَنَفِيَّة ماء الحديقة حفنةَ

ماء. وأَعطش كالماء شوقاً إلى نفسِهِ
سأسأل أوّل عابر درب: أَشاهدتَ
شخصاً على هيئة الطيف، مثلي، يُفتِّش
عن أَمسِه؟

ــ سأحمل بيتي على كتفيَّ... وأَمشي
كما تفعل السلحفاة البطيئةْ
سأصطاد نسراً بمكنسة، ثم أسأل:
أَين الخطيئة؟

ــ سأبحث في الميثولوجيا وفي الأركيولوجيا
وفي كل جيم عن اسمي القديم
ستنحازُ إحدى إلٰهات كَنْعَانَ لي، ثُمَّ
تحلف بالبرق: هذا هو ابني اليتيم

ــ سأُثني على امرأةٍ أنجبتْ طفلةً

في الأنابيب. لكنها لا تمتُّ إليها بأيِّ شَبَــهْ
سأبكي على رجل مات حين انـتَـبهْ

ــ سآخذ سطر الـمَعَرّيٍّ ثم أُعدِّلُه:
جَسَدي خرقَةٌ من تراب، فيا خائطَ
الكون خِطْني!
سأكتب: يا خالقَ الموت، دعني
قليلاً... وشأني!

ــ سأوقظ موتايَ: نحن سواسيةٌ أيها
النائمون، أما زلتُم مثلنا تحلمون
بيوم القيامةْ؟
سأجمع ما بعثرته الرياحُ من الغزَل

القُرْطُبيِّ، وأكملُ طَوْقَ الحمامةْ

ـ سأختار من ذكرياتي الحميماتِ
وَصْفَ الملائم: رائحةُ الشرشف المتجعّد
بعد الجِماع كرائحة العشب بعد المطرْ
سأشهد كيف سيخضرُّ وجه الحجرْ

ـ سيلسعُني وَرْدُ آذارَ، حيث وُلدتُ
لأَوّل مَرّةْ
ستحمل بي زهرةُ الجُلّنار، وأُولَدُ منها
لآخر مَرّةْ!

ـ سأَنأى عن الأمس، حين أُعيد
له إرثه: الذاكرةْ
سأدنو من الغد حين أطارد قُبَّرةً

ماكرةْ
ـ سأعلم أَني تأخَّرْتُ عن موعدي

وسأعرف أنَّ غدي
مَرَّ، مَرَّ السحابةِ، منذ قليل،
ولم ينتظرني
سأعلم أن السماء ستمطر بعد قليل
عليَّ
وأَنّي
أَسير على الجسرا

هل نطأ الآن أرض الحكاية؟ قد
لا تكون كما نتخيَّلُ «لا هي سَمْنٌ
ولا عَسَلٌ» والسماء رماديَّةُ اللون.
والفجر ما زال أزرقَ ملتبساً. ما

هو الزمن الآن؟ جسرٌ يطول
ويقصُرُ... فجر يطول ويمكر. ما
الزمن الآن؟ /

تغفو البلادُ القديمةُ خلف قلاع
سياحيّةٍ. والزمان يهاجر في نجمة
أَحرقت فارساً عاطفياً. فيا أيها
النائمون على إبر الذكريات! أَلا
تشعرون بصوت الزلازل في حافر الظبي؟

قلت له: هل أَصابتك حُمَّى؟
فتابع كابوسه: أَيها النائمون! ألا
تسمعون هسيس القيامة في حبة
الرمل؟
قلت له: هل تكلمني؟ أم تكلِّم

نفسك؟
قال: وصلتُ إلى آخر الحلم...
شاهدتُ نفسي عجوزاً هناك،
وشاهدتُ قلبي يطارد كلبي هناك
وينبحُ... شاهدتُ غرفةَ نومي
تُقَهْقِهُ: هل أنتَ حيّ؟ تعال
لأحمل عنك الهواء وعكازك الخشبيَّ
المرصَّع بالصدف المغربيِّ!! فكيف
أُعيد البداية، يا صاحبي، من أَنا؟
من أنا دون حُلْم ورفقة أُنثى؟

فقلت: نزور فتات الحياة، الحياة
كما هي، ولنتدرَّبْ على حبّ أشياء
كانت لنا، وعلى حُبّ أشياء ليست
لنا... ولنا إن نظرنا إليها معاً من

علٍ كسقوط الثلوج على جَبَلٍ
قد تكون الجبال على حالها
والحقول على حالها
والحياة بديهية ومشاعاً،
فهل ندخل الآن أرض الحكاية يا
صاحبي؟
قال لي: لا أُريد مكاناً لأُدفن فيه
أريد مكاناً لأحيا، وألعنه لو أردت...

وحملق في الجسر: هذا هو الباب.
باب الحقيقة. لا نستطيع الدخول ولا
نستطيع الخروج
ولا يُعْرَفُ الشيء من ضدِّهِ
أَلممراتُ مُغْلَقَةٌ
والسماءُ رماديَّةُ الوجه ضَيِّقَةٌ

ويدُ الفجر ترفع سروال جنديّةٍ
عالياً عالياً...

وبقينا على الجسر عشرين عاماً
أكلنا الطعام المعلّب عشرين عاماً
لبسنا ثياب الفصول،
استمعنا إلى الأغنيات الجديدة،
جَيِّدةِ الصنع،
من ثكنات الجنود
تزوَّج أولادنا بأميرات منفى
وغيَّرن أسماءهم،
وتركنا مصائرنا لهواة الخسائر
في السينما.
وقرأنا على الرمل آثارنا
لم نكن غامضين ولا واضحين

كصورةِ فجرٍ كثيرِ التثاؤُبِ /

قلت: أما زال يجرحك الجرح، يا
صاحبي؟
قال لي: لا أُحسُّ بشيء
فقد حوَّلت فكرتي جسدي دفتراً للبراهين،
لا شيء يثبت أَني أنا
غَيْرُ موتٍ صريحٍ على الجسر،
أَرنو إلى وردة في البعيد
فيشتعل الجمر
أَرنو إلى مسقط الرأس، خلف البعيد
فيتسع القبرُ /

قلت: تمهل ولا تَمُتِ الآن. إنَّ الحياةَ
على الجسر ممكنةٌ. والمجاز فسيح المدى

هٰهنا بَرْزَخٌ بين دنيا وآخرةٍ
بين منفى وأرضٍ مجاورةٍ...
قال لي، والصقور تحلق من فوقنا:
خُذِ اسمي رفيقاً وحدِّثْهُ عني
وعش أنت حتى يعود بك الجسر
حيّاً غدا
لا تقل: إنه مات، أو عاش
قرب الحياة سدى!
قل: أطلَّ على نفسه من علٍ
ورأى نفسه ترتدي شجراً، واكتفى
بالتحيَّةِ: /

إن كان هذا الطريق طويلاً
فلي عَمَلٌ في الأساطير |

كنت وحيداً على الجسر، في ذلك
اليوم، بعد اعتكاف المسيح على
جبل في ضواحي أريحا.. وقبل القيامة.
أمشي ولا أستطيع الدخول ولا أستطيع
الخروج... أدور كزهرة عبَّاد شمسٍ.
وفي الليل يوقظني صوت حارسة الليل
حين تغنّي لصاحبها:

لا تَعِدْني بشيء
ولا تُهدِني
وردةً من أريحا!

# VII منفى (٣)

# كوشم يد
# في معلقة الشاعر الجاهليّ

أَنا هُوَ، يمشي أَمامي وأَتبعُهُ
لا أَقول له: هٰهنا، هٰهنا
كان شيء بسيط لنا:
حَجَرٌ أَخضَرٌ. شَجَرٌ. شارعٌ.
قَمَرٌ يافعٌ. واقعٌ لم يعد واقعاً.
هو يمشي أمامي
وأَمشي على ظلِّه تابعاً...
كُلَّما أسرعَ ارتفَعَ الظلُّ فوق التلال
وغطَّى صنَوْبرةً في الجنوب
وصفصافةً في الشمال،
أَلم نفترق؟ قلتُ، قال: بلى.
لَكَ مني رجوعُ الخيال إلى الواقعيّ
ولي منك تُفَّاحة الجاذبيَّةِ

قلت: إلى أَين تأخذني؟
قال: صوب البداية، حيث وُلِدْتَ
هنا، أنت وٱسمك /

لو كان لي أَن أُعيد البداية لاخترتُ
لاسمي حروفاً أَقَـلَّ
حروفاً أَخفَّ على أُذُن الأَجنبيّـة /

آذار شهر العواصف والشبق العاطفيّ.
يطلُّ الربيع كخاطرةٍ في مسامرة اثنين
بين شتاء طويل وصيف طويل. ولا
أَتذكَّر إلّا المجاز، فما كدتُ أُولَدُ
حتى انتبهتُ إلى شَبَـهٍ واضـحٍ بين
عُرْفِ الحصان وبين ضفائر أُمّي

ــ دع الاستعارة، وٱمشِ الهوينى
على زغب الأرض ــ قال، فإن الغروب
يعيد الغريب إلى بئره، مثل أُغنية
لا تُغَنَّى، وإن الغروب يُهيِّجُ فينا
حنيناً إلى شغف غامض
ــ ربما ... ربما. كل شيء يُؤَوَّلُ عند
الغروب. وقد توقظ الذكريات نداء
شبيهاً بإيماءة الموت عند الغروب،
وإيقاع أُغنية لا تغنّى إلى أَحد

[على شجر السرو
شرق العواطف،
غيمٌ مُذَهَّبْ
وفي القلب سمراء كالكستناء
وشفافة الظل كالماء تُشْرَبْ

تعال لنلعب
تعالي لنذهب
إلى أيّ كوكبْ]

أَنا هو، يمشي عليَّ، وأَسأله:
هل تذكرتَ شيئاً هنا؟
خَفِّف الوطءَ عند التذكُّر،
فالأرض حبلى بنا.
قال: إني رأيتُ هنا قمراً ساطعاً
ناصع الحزن كالبرتقالة في الليل،
يرشدنا في البراري إلى طرق التيه...
لولاه، لم تلتقِ الأمهاتُ بأطفالهنَّ
ولولاه، لم يقرأ السائرون على
الليل أسماءهم فجأة: «لاجئين»
ضيوفاً على الريح /

كان جناحي صغيراً على الريح عامئذٍ...
كُنْتُ أَحسب أنَّ المكان يُعَرَّفُ
بالأُمَّهات ورائحة المريميَّة. لا أَحَدٌ
قال لي إن هذا المكان يُسَمَّى بلاداً،
وإن وراء البلاد حدوداً، وأن وراء
الحدود مكاناً يُسمَّى شتاتاً ومنفى
لنا. لم أَكن بَعْدُ في حاجةٍ للهويّة.
لكنهم... هؤلاء الذين يجيئوننا فوق
دبابة ينقلون المكان على الشاحنات
إلى جهة خاطفةْ

المكان هو العاطفةْ

ــ تلك آثارنا، مثل وَشْمِ يدٍ في
معلقة الشاعر الجاهليّ، تمر بنا

ونمرُّ بها ــ قال من كنتُهُ يوم لم
أَعرف المفرداتِ لأعرف أسماء أشجارنا...
وأُسمِّي الطيورَ التي تتجمَّع فيَّ بأسمائها.
لم أكن أحفظ الكلمات لأحمي المكان
من الانتقال إلى اسمٍ غريب يُسَيِّجه
الأكاليبتوس. واللافتات تقول لنا:
لم تكونوا هنا.

تهدأ العاصفة
والمكان هو العاطفة

ــ تلك آثارنا ــ قال من كنتُهُ...
هٰهنا يلتقي زمنان ويفترقان، فمن
أَنت في حضرة «الآن»؟
قلتُ: أنا أَنت لولا دخانُ المصانعِ

قال: ومن أنت في حضرة الأمس؟
قلتُ: أنا نحن لولا تطفُّلُ فَعْلِ
المضارِعِ
قال: ومن أنت في حضرة الغد؟
قلت: قصيدة حب ستكتبها حين
تختار، أنت بنفسك أسطورة الحبِّ /

[حنطيَّــةٌ كأغاني الحصاد القديمة
سمراءُ من لسعة الليل
بيضاءُ من فرط ما ضحك الماءُ
حين اقتربتِ من النبع...
عيناكِ لوزيّــتــان
وجرحان من عَسَلٍ شفتاك
وساقاك برجان من مرمر
ويداك على كتفي طائران

ولي منك روح ترفرف
حول المكان]

ـــ دع الاستعارة، وامشِ معي. هل
ترى أثراً للفراشة في الضوء؟
قُلْتُ: أراك هناك أراك تمرُّ
كخاطرةٍ من خواطر أسلافنا
قال لي: هكذا تستعيد الفراشةُ
أشغالها الشاعريَّةَ: أُغنيةً لا
يُدَوِّنُها الفلكيون إلّا دليلاً على
صحة الأبديَّة /

أَمشي الهوينى على نفسي ويتبعني
ظلِّي وأَتبعه، لا شيء يرجعني
لا شيء يرجعُهُ

كأنني واحدٌ مني يودِّعني
مستعجلاً غَدَهُ: لا تنتظر أَحداً
لا تنتظرني، ولكن لا أُودِّعُهُ

كأنَّهُ الشعرُ: فوق التل تخدعني
سحابةٌ غزلت حولي هُويتها
وأَورثتني مداراً لا أضيِّـعُـهُ

للمكان روائحه،
للغروب تباريحه،
للغزالة صيّادها،
للسلاحف درع الدفاع عن النفس،
للنمل مملكةٌ،
للطيور مواعيدُ،
للخيل أسماؤها،

للسنابل عيدٌ،
وأمَّا النشيد، نشيد الختام السعيد
فليس له شاعرٌ/

في الهزيع الأخير من العمر نُصْغي
إلى أيّ صوت بدون اكتراث،
ويوقظنا وَجَعٌ في المفاصل من نومنا،
أو بَعُوضٌ يطنُّ كأستاذ فلسفةٍ...
في الهزيع الأخير، نُحسُّ بآلام
ساقين مقطوعتين، كأن الشعور
تأخر. لم ننتبه حين كنا صغاراً
إلى جرحنا الداخليِّ، فقد كان
كالرسم بالزيت ناراً تؤجِّجُ أَلوان
أعلامنا، وتهيِّجُ ثور أناشيدنا.
في الهزيع الأخير من العمر لا

يبزغ الفجر إلّا لأنَّ ملائكةً طيّبين
يُؤَدُّون واجبهم صاغرين...

أَنا هو، حوذيُّ نفسي
ولا خيل تصهل في لغتي

قال: نمشي ولو في الهزيع الأخير
من العمر، نمشي ولو خذلتنا الدروب.
نطير، كما يفعل المتصوف، في الكلمات...
نطير إلى أيِّ أَين!

على تلَّة بارتفاع يدين سماويتين صعدنا.
مشينا على إبر الشوك والسنديان،
التحفنا بصوف النبات اليتيم، اتحدنا
بمعجم أسمائنا. هل تحس بوخز الحصى

وبمكر القطا؟ قال لي: لا أُحسّ
بشيء، كأن الشعور رفاهيَّةٌ. وكأنِّي
هنا صفة من صفات الغياب الكثيرة.
ليست حياتي معي... تركتني كما تترك
المرأةُ الرجل ـــ الشَّبَحَ، انتظرتني
وملَّت من الانتظار، ودلَّت سواي
على كنزها الأُنثويِّ /

إذا كان لا بُدَّ من قمرٍ
فليكن كاملاً كاملاً
لا كقرنٍ من الموز |

قلت: ستحتاج وقتاً لتعرف نفسك،
فاجلسْ على برزخ بين بين،
فلا كيف كيف، ولا أَين أَين

على صخرتين سماويتين انتظرنا غروب
الغزالة... عند الغروب يحسّ الغريب
بحاجته لعناق الغريب، وعند الغروب
يحسّ الغريبان أن هنالك، بينهما،
ثالثاً يتدخل في ما يقولان أو لا
يقولان...

قولا وداعاً لما كان
قولا وداعاً لما سيكون
وداعاً لقافية النون
في اسم المُثَنّى
وفي بلد الأرجوان!

أقول له: مَنْ هو؟
يقول صدى من بعيد: هو الواقعيُّ

هنا. صوتُ أَقدارنا هُوَ. سائقُ
جرّافةٍ عدَّلتْ عفوية هذا المكان،
وقصت جدائل زيتوننا لتناسب قصَّة
شعر الجنود، وتفتح شِعْباً لبغل
نبيّ قديم. هو الواقعيُّ، مُرَوِّضُ
أُسطورة. ثالث الجالِسَينْ على صخرتين
سماويتين، ولكنه لا يرانا كما نحن:
شيخاً تأبط طفلاً، وطفلاً تورَّط
في حكمة الشيخ /

قلنا: سلام على الإنْسِ والجنّ
من حولنا
قال: لا أفهم الاستعارة
قلنا: لماذا تغلغلت في ما نقول
وفي ما نحس؟

فقال: طريقة ظلّكما في ارتداء الحصى
والقطا أَفزعتني
سألناه: مِمَّ تخاف؟
فقال: من الظلّ ... للظلّ رائحة الثوم
حيناً ورائحةُ الدم حيناً
سألناه: من أَين جئتَ؟
فقال: من اللامكان، فكُلُّ مكانٍ
بعيدٍ عن الله أَو أَرضه هو منفى.
ومن أَنتما؟
فقلنا له: نحن أحفاد روح المكان.
وُلدنا هنا.. وهنا سوف نحيا إذا
بقي الربُّ حيّاً. وكُلُّ مكانٍ بعيدٍ
عن الله أو أَرضه هو منفى
فقال: طريقة ظلِّكما في ارتداء المكان
تثير الشكوك

سألناه: فيم تشكّ؟
فقال: بظلٍّ ينازع ظلاًّ
فقلنا له: أَلِأَنَّ المسافة ما بين أَمس
وحاضرنا لم تزل خَصْبَةً لثلاثيَّةِ الوقت؟
قال: قتلتكما أَمس
قلنا: عفا الموت عنا
فصاح: أَنا حارس الأبدية
قولا: وداعاً لما سيكون
وما كان
قولا وداعاً لرائحة الثوم
والدم في ظلّ هذا المكان

أَلشيء معنىً هنا، والشيء يصنعني
ذاتاً تعيد إلى المعنى ملامحه
فكيف أُولد من شيء... وأَصنعهُ

أَمتدُّ في الشجر العالي فيرفعني
إلى السماء، وأَعلو طائراً حَذِراً
لا شيء يخدعه، لا شيء يصرعُهُ

في كُلِّ شيء أرى روحي ويوجعني
ما لا أُحسّ به، أو لا يحسُّ
بروحي حين توجعُهُ

أَنا وأَنا لا نصدِّق هذا الطريق الترابيَّ،
لكننا سائران على أَثَر النمل [إنَّ
القيافة خارطةُ الحَدْس] لا الشمس
غابت تماماً، ولا القمر البرتقاليُّ ضاءَ

أَنا وأَنا لا نصدِّق أَنَّ البداية
تنتظر العائدين إليها، كأمّ على

دَرَج البيت. لكننا سائران ولو
خذلتنا السماء
أَنا وأنا لا نصدِّق أن الحكاية
عادت بنا شاهدين على ما فعلنا:
نسيتُكَ مثل قميصي المُبقّع بالتوت
حين ركضت إلى غابة وندمت..
وأَمَّا أنا فنسيتك حين احتفظت
بريشةِ عنقاءَ لي... وندمت

ــ أَلا نتصالحُ؟ قلتُ
فقال: تريَّثْ. هناكَ على بعد مترين
مدرستي، فتعال نخلِّصْ حروف الهجاء
من العنكبوت، ونتركْ له أحرف العلّة
الباكيات!
تذكرتُها: حائطانِ قديمانِ من دون

سقف كحرفين من لغة شوَّهتها الرمالُ
وهزَّةُ أرض سدوميَّةٌ. بقراتٌ سمانٌ
تنام على الأبجدية. كَلْبٌ يُحَرِّكُ ذيل
الرضا والفكاهة. ليلٌ صغيرٌ يرتِّبُ
أَشياءه لنشاط الثعالب /
قال: الحياة تواصل روتينها بعدنا.
يا لها! يا لها من إباحيَّةٍ لا تفكِّر إلّا
بإشباع شهوتها
قلتُ: هل نتصالح كي نتقاسَمَ هذا
الغياب. فنحن هنا وحدنا في القصيدة؟
قال: تريَّثْ. هناك على حافة التلِّ،
من جهة الشرق، مَقْبَرَةُ الأهل. فلنمضِ
قبل هبوط الظلام على الميتين

سلام على النائمين
سلام على الحالمين
ببستان فردوسهم آمنين
سلام على الصاعدين خفافاً
على سُلَّم الله /

في حضرة الموت لا نتشبَّث إلّا
بصحَّة أسمائنا...

عَبَثٌ ماجنٌ. لم نجد حجراً واحداً
يحمل اسم الضحية، لا اسمي ولا
اسمك /
ــ مَنْ مات منا، سألت، أَنا أم
أنا؟
قال: لا أعرف الآن

قلت: ألا نتصالح؟
قال: تريّث!
فقلت: أتلك هي العودة المشتهاة؟
فقال: وملهاة إحدى إلٰهاتنا العابثات،
فهل أَعجبتك الزيارة؟
قلت: أتلك نهاية منفاك؟
قال: وتلك بداية منفاك
قلت: وما الفرق؟
قال: دَهَاءُ البلاغةِ
قلت: البلاغةُ ليست ضروريّة للخسارةِ
قال: بلى، فالبلاغةُ تقنع أرملةً
بالزواج من السائح الأَجنبيِّ، وتحمي
ورود الحديقة من عَبَثِ الريحِ
قلت: أَلا نتصالَحُ؟
قال: إذا وقَّعَ الحيُّ والميت، في

جسد واحد، هدنةً
قلت: هذا أنا الميت والحيّ
قال: نسيتك، من أنت؟
قلت: أنا نسخة عن «أنا» ك التي انتبهت لكلام
الفراشة لي: يا أَخي في الهشاشة...
قال: ولكنها احترقت
قلت: لا تحترق مثلها

والتفتُّ إليه، فلم أَره، فصرخت
بكُلِّ قوايَ: ٱنتظرني! وخذ كل شيء
سوى الاسم /
لم ينتظرني، وطار.. وأَدركني الليل
فاستدرجت صرختي شبحاً عابراً
قلت: من أنت؟

قال: السلام عليك، فقلت: عليك السلام
فمن أنت؟

قال: أنا سائح أَجنبي أُحب أساطيركم
وأحب الزواج بأرملةٍ من بنات عناة!

# VIII منفى (٤)

## طباق

**[إلى إدوارد سعيد]**

---

نيويورك / نوفمبر / الشارعُ الخامسُ /
الشمسُ صَحْنٌ من المعدن المتطاير /
قُلْتُ لنفسي الغريبة في الظل:
هل هذه بابل أم سدوم؟

هناك، على باب هاوية كهربائـيَّـةٍ
بعُلُوِّ السماء، التقيتُ بإدوارد
قبل ثلاثين عاماً،
وكان الزمان أَقَلَّ جموحاً من الآن
قال كلانا:
إذا كان ماضيك تجربةً
فاجعلِ الغَدَ معنى ورؤيا!
لنذهبْ،

لنذهبْ إلى غدنا واثقين
بصدق الخيال، ومعجزة العشبِ /

لا أَتذكَّر أنَّا ذهبنا إلى السينما
في المساء. ولكنْ سمعْتُ هنوداً
قدامى ينادونني:
لا تَثِقْ بالحصان، ولا بالحداثةِ /

لا، لا ضحيَّـةَ تسأل جلّادها:
هل أَنا أَنت؟ لو كان سيفيَ
أكبرَ من وردتي، هل ستسأل
إن كُنْتُ أَفعل مثلَكْ؟

سؤالٌ كهذا يثير فُضُولَ الروائيِّ
في مكتبٍ من زجاج يُطلُّ على

زنبقٍ في الحديقة... حيث تكونُ
يَدُ الفرضيّة بيضاءَ مثل ضمير
الروائيّ، حين يُصَفِّي الحساب
مع النزعة البشرية: لا غَدَ
في الأمس، فلنتقدَّمْ إذاً! /

قد يكون التقدُّمُ جسرَ الرجوع
إلى البربريَّـة ...|

نيويورك. إدوارد يصحو على كسل
الفجر. يعزف لحناً لموتسارت. يركض
في ملعب التنس الجامعيّ. يفكّر في
هجرة الطير عبر الحدود وفوق الحواجز.
يقرأ «نيويورك تايمز». يكتب تعليقَهُ
المتوتّر. يلعن مستشرقاً يرشد الجنرال

إلى نقطة الضعف في قلب شرقيّة.
يستحمُّ. ويختار بدلَتَهُ بأناقة دِيكٍ.
ويشرب قهوته بالحليب. ويصرخ
بالفجر: هيّا، ولا تتلكّأ /

على الريح يمشي. وفي الريح
يعرف مَنْ هُوَ. لا سقف للريح.
لا بيت للريح. والريح بُوصلةٌ
لشمال الغريب.

يقول: أَنا من هناك. أَنا من هنا
ولستُ هناك، ولستُ هنا
لِيَ اسمانِ يلتقيان ويفترقان
ولي لُغتان، نسيت بأيِّهما
كنتُ أَحلُمُ،

لي لُغَةٌ إنجليزيَّةٌ للكتابة،
طيِّعةُ المفردات،
ولي لغةٌ من حوار السماء مع
القدس، فضيَّةُ النَّبْرِ، لكنها
لا تُطيعُ مخيّلتي!

والهويَّةُ؟ قلتُ
فقال: دفاعٌ عن الذات...
إنَّ الهويةَ بنتُ الولادة، لكنها
في النهاية إبداعُ صاحبها، لا
وراثة ماضٍ. أَنا المتعدِّد. في
داخلي خارجي المتجدِّدُ... لكنني
أَنتمي لسؤال الضحيَّة. لو لم
أكن من هناك لدرَّبْتُ قلبي
على أن يُربِّي هناك غزال الكِنايَةِ.

فاحملْ بلادك أَنَّى ذَهَبْتَ...
وكُنْ نرجسيّاً إذا لزم الأَمرُ /

ـ منفىً هو العالم الخارجيُّ
ومنفىً هو العالم الداخليُّ
فمن أَنت بينهما؟
ء لا أُعرِّفُ نفسي تماماً
لئلّا أُضيِّعها. وأَنا ما أَنا
وأنا آخري في ثُنَائيّةٍ
تتناغم بين الكلام وبين الإشارةْ.
ولو كنت أكتب شعراً لقلت:

أنا اثنان في واحد
كجناحَيْ سُنُونُوّةٍ،
إن تأخَّر فَصْلُ الربيع

## اكتفيتُ بحمل البشارةْ

يحبُّ بلاداً، ويرحل عنها
[هل المستحيل بعيد؟]
يحبُّ الرحيل إلى أيِّ شيء
ففي السفر الحر بين الثقافات
قد يجد الباحثون عن الجوهر البشريّ
مقاعدَ كافيةً للجميع.
هنا هامش يتقدَّمُ. أو مركز يتراجع
لا الشرقُ شرقٌ تماماً
ولا الغربُ غربٌ تماماً
لأن الهويَّةَ مفتوحةٌ للتعدُّد
لا قلعةً أو خنادقَ /

كان المجازُ ينام على ضفّة النهر،

لو لا التَلَوُّ ثُ،
لاحْتَضَنَ الضفَّةَ الثانيةْ
ـ هل كتبتَ الروايةَ؟
□ حاولتُ ... حاولت أن أستعيد بها
صورتي في مرايا النساء البعيدات،
لكنهن توغَّلْنَ في ليلهنَّ الحصين
وقلن: لنا عالم مستقلٌّ عن النصّ
لن يكتب الرجلُ المرأةَ اللغزَ والحُلْمَ
لن تكتب المرأةُ الرجل الرمز والنجمَ
لا حُبَّ يشبه حباً
ولا ليل يشبه ليلاً
دعونا نُعدِّدْ صفات الرجال ونضحكْ!

ـ وماذا فعلتَ؟
□ ضحكت على عبثي

ورميتُ الروايةَ في سلة المهملات!

| المُفَكِّرُ يكبَحُ سَرْدَ الروائيّ
والفيلسوفُ يُشَرِّحُ وَرْدَ المُغَنّي |

يحبُّ بلاداً ويرحل عنها:
أنا ما أكون وما سأكون
سأصنع نفسي بنفسي
وأختار منفايَ
منفايَ خلفيّةُ المشهد الملحميّ
أُدافع عن حاجة الشعراء
إلى الغد والذكريات معاً
وأدافع عن شَجَرٍ ترتديه الطيورُ
بلاداً ومنفى
وعن قمر لم يزل صالحاً لقصيدة حُبّ

أُدافع عن فكرة كسرتها هشاشةُ أصحابها
وأُدافع عن بلد خَطَفَتْهُ الأساطيرُ /

ـــ هل تستطيع الرجوعَ إلى أي شيء؟
□ أمامي يجرُّ ورائي ويُسرع...
لا وقت في ساعتي لأخُطَّ سطوراً
على الرمل. لكنني أستطيع زيارة أمس،
كما يفعل الغرباء،
إذا استمعوا في المساء
إلى الشاعر الرَّعَوِيِّ:

[فتاةٌ على النبع تملأ جَرَّتها
بحليب السحابْ
وتبكي وتضحك من نَحْلَةٍ
لسعت قلبها في مهبِّ الغيابْ

هل الحُبُّ ما يوجع الماءَ
أَم مَرَضٌ في الضبابْ..؟
إلى آخر الأُغنية]

ــ إذن، قد يصيبك داءُ الحنين؟
□ حنينٌ إلى الغد.. أبعد أَعلى
وأَبعد. حُلْمي يقود خُطاي. ورؤيايَ
تُجْلِسُ حُلْمي على ركبتيّ كقطٍّ أَليف.
هو الواقعيُّ الخياليُّ وابن الإرادة:

في وسعنا
أَن نُغيِّر
حتميَّة الهاويةْ!

ــ والحنينُ إلى أمس؟

□ عاطفةٌ لا تَخُصُّ المفكِّر إلَّا
ليفهم تَوْقَ الغريب إلى أدوات الغياب.
وأَمَّا أنا، فحنيني صراعٌ على حاضرٍ
يُمْسِكُ الغَدَ من خِصْيَـتيه

ــ ألم تتسلّلْ إلى أمس، حين ذهبتَ
إلى البيت، بيتك، في حارة الطالبيّة؟
□ هَيَّأتُ نفسي لأن أَتمدَّد في
تخت أُمي، كما يفعل الطفل حين يخاف
أَباه. وحاولت أن أستعيد ولادة
نفسي، وأَن أَتتبَّع درب الحليب
على سطح بيتي القديم، وحاولتُ أن
أتحسَّس جلدَ الغياب ورائحةَ الصيف
من ياسمين الحديقة. لكن وحش الحقيقة
أَبعدني عن حنين تلفَّتَ كاللص خلفي

ــ وهل خفت؟ ماذا أخافك؟

□ لا أستطيع لقاء الخسارة وجهاً
لوجه. وقفت على الباب كالمتسوّل.
هل أطلب الإذن من غرباء ينامون فوق
سريري أنا... بزيارة نفسي لخمس دقائق؟
هل أَنحني باحترامٍ لسُكان حلمي الطفوليِّ؟
هل يسألون: مَنِ الزائرُ الأجنبيُّ
الفضوليُّ؟ هل أستطيع الكلام عن
السلم والحرب بين الضحايا وبين ضحايا
الضحايا، بلا جملة اعتراضيّةٍ؟ هل
يقولون لي: لا مكان لحلمين في
مَخْدَع واحدٍ؟

[لا أَنا، أَو هُوَ
ولكنه قارئ يتساءل عمّا

## يقول لنا الشعرُ في زمن الكارثة]

دَمٌ،
ودمٌ،
ودمٌ
في بلادك،

في اسمي وفي اسمك، في زهرة
اللوز، في قشرة الموز، في لبن
الطفل، في الضوء والظلّ، في
حبة القمح، في عُلبة الملح /
قَنَّاصَةٌ بارعون يصيبون أَهدافهم
بامتياز
دماً،
ودماً،

ودماً..
هذه الأرض أَصغرُ من دم أبنائها
الواقفين على عتبات القيامة مثل
القرابين. هل هذه الأرض حقاً
مباركةٌ أَم مُعَمَّدَةٌ
بدمٍ،
ودمٍ،
ودمٍ

لا تُجفِّفُهُ الصلوات ولا الرمل.
لا عَدْلَ في صفحات الكتاب المُقَدَّس
يكفي لكي يفرح الشهداءُ بحريّة
المشي فوق الغمام. دم في النهار.
دم في الظلام. دم في الكلام.

يقول: القصيدةُ قد تستضيفُ الخسارة
خيطاً من الضوء يلمع في قلب جيتارة.
أو مسيحاً على فرس مثخناً بالمجاز
الجميل. فليس الجماليّ إلّا حضورَ
الحقيقيِّ في الشكل /

في عالم لا سماء له، تصبح الأرضُ
هاويةً. والقصيدة إحدى هبات العزاء
وإحدى صفات الرياح، شماليةً أو جنوبيةً.
لا تَصِفْ ما ترى الكاميرا من جروحك.
واصرخ لتسمع نفسك، واصرخ لتعلم
أنك ما زلتَ حيّاً وحيّاً، وأن الحياة
على هذه الأرض ممكنةٌ. فاخترع أملاً
للكلام، ابتكرْ جهة أو سراباً
يطيل الرجاء،

وغنِّ، فإنَّ الجماليَّ حريَّةٌ /
أقول: الحياة التي لا تُعَرَّفُ إلَّا
بضدِّ الموت... ليست حياة

يقول: سنحيا، ولو تركتنا الحياةُ
إلى شأننا. فلنكن سادة الكلمات
التي سوف تجعل قُرَّاءها خالدين ــ
على حدّ تعبير صاحبك الفذّ ريتسوس /

وقال: إذا متُّ قبلك
أُوصيكَ بالمستحيلْ!
سألت: هل المستحيل بعيد؟
فقال: على بُعْد جيلْ
سألت: وإن متّ قبلك؟
قال: أُعزِّي جبال الجليلْ

واكتب: «ليس الجماليُّ إلّا بلوغَ
الملائم». والآن، لا تنس:
إن متُّ قبلك أوصيك بالمستحيلْ

عندما زرتُهُ في سَدُومَ الجديدةِ،
في عام ألفين واثنين، كان
يقاوم حَرْبَ سَدُومَ على أهل بابل
والسرطان معاً،
كان كالبطل الملحميِّ الأخير
يدافع عن حَقّ طروادةٍ
في اقتسام الرواية /

نسرٌ يودِّع قمَّـتَـهُ عالياً
عالياً،
فالإقامة فوق الأولمب

وفوق القِمَمْ
قد تـثير السَّـأمْ

وداعاً،
وداعاً لشعر الأَلَمْ!

# في حضرة الغياب

نص

**يقولون: لا تبعد، وهم يدفنونني**
**وأين مكان البُعْد إلّا مكانيا؟**

مالك بن الريب

سَطْراً سَطْراً أَنثركَ أَمامي بكفاءةٍ لم أُوتَها إلّا في المطالع /

وكما أَوصيتَني، أقِفُ الآن باسمكَ كي أشكر مُشَيِّعيكَ إلى هذا السفر الأخير، وأدعوهم إلى اختصار الوداع، والانصرافِ إلى عشاءٍ احتفاليّ يليق بذكراك /

فلتأذنْ لي بأن أراكَ، وقد خرجتَ مني وخرجتُ منك، سالماً كالنثر المُصَفَّى على حجرٍ يخضرّ أو يصفرّ في غيابك. ولتأذن لي بأن أُلـمّكَ، واسمَكَ، كما يلمُّ السابلةُ ما نَسِيَ قاطفو الزيتون من حبّات خبّأها الحصى. ولنذهبنَّ معاً أنا وأنت في مَسَارَيْن:

أنتَ، إلى حياةٍ ثانية، وَعَدَتْكَ بها اللغة، في قارىء قد ينجو من سقوط نَيْزَكٍ على الأرض.

وأَنا، إلى موعدٍ أرجأتُهُ أكثرَ من مرَّة، مع موتٍ وَعَدْتُهُ بكأس نبيذٍ أَحمرَ في إحدى القصائد. فليس على الشاعر من حَرَجٍ إن كذب. وهو لا يكذب إلّا في الحب، لأن أَقاليم القلب مفتوحة للغزو الفاتن.

أمَّا الموت، فلا شيء يُهينُهُ كالغدر: اختصاصِهِ الـمُجَرَّب. فلأذهبْ إلى موعدي، فور عثوري على قبرٍ لا ينازعني عليه أَحدٌ من غير أَسلافي، بشاهدةٍ من رخام لا يعنيني إن سقط عنها حرف من حروف اسمي، كما سقط حرف الياء من اسم جدِّي سهواً.

ولأذهبنَّ، بلا عُكَّاز وقافية، على طريق سلكناه، على غير هدى، بلا رغبة في الوصول، من فرط ما قرأنا من كُتُب أنْذَرَتْنا بخُلُوِّ الذرى مما بعدها، فآثرنا الوقوف على سفوحٍ لا تخلو من لهفة الترقّب لما تُوحي الثنائيَّاتُ من امتنانٍ غير مُعْلَنٍ بين الضدِّ والضدّ. لو عرفتُكَ لامتلكتُكَ، ولو عرفتني لامتلكتني، فلا أكون ولا تكون.

هكذا سَمّينا، بتواطُؤٍ إيقاعيّ، ما كان بيننا من هاويةٍ

سفحاً. ونَسَبْنَا إلى كتب قرأناها عجْزَنا عن الوصول إلى ذروة تطلُّ على عَدَمٍ ضروريٍّ لاختبار الوجود يا صاحبي! يا «أنا» ي النائم على بزوغ البياض مِن أبدية، وعلى تلويحِ الأبدية ببياضٍ لا لون بعده. فبأيِّ معنى من معانيكَ أُقيم الشكل اللائق بعَبَثٍ أبيض؟ وبأيِّ شكلٍ أَحمي معناك من الهباء ... ما دامت رحلتنا أَقصرَ من خطبة الكاهن في كنيسة مهجورة، في يوم أَحدٍ، لم يسلم فيه أحدٌ من غضب الآلهة؟

لكنك مُسَجّى أَمامي، أَعني في كلامي الخالي من عثور الاستعارات على مصادرها، وعلى رابطٍ خفيٍّ بين أَرضٍ متديِّنةٍ، وسماء وثنيَّة. من هناك إلى هناك يرحل الغيم برفقة قمر لم يحرمنا افتضاحُ سرِّه الصخريّ من تذكُّر حُبٍّ سابق. ولم يمنعنا جفافُ القلب من مداواة أوجاع المفاصل بذكرى التمدُّد على العشب، تماماً كما أنت مسجّى أمامي في كلامي الذي لن يخذله غدٌ شخصيٌّ كفَّ عن الخداع، لا لأنه تأدَّب وتهذّب، بل لأنه يحتضر الآن ويصير إلى خبر، لا عَدُوَّ له ولا صديق... خبر عن مسافرين اثنين، أنت وأنا، لم يفترقا في مرآة أو طريق ... لم يفترقا إلّا لساعاتٍ يتأكَّدان خلالها من سطوة الأنثى على الذكر /

حيث يرى المرء نفسه في حرائق البرق، كما هي، معافاةً مُصَفَّاة من شوائب التشبيه بما ليس موتاً يُحْيِي... وحياةً تُحيا على حصَّة العاشق من سخاء المودة بين المخلوق والخالق. فلا جنة معلنة بالحواس وبالحدس سوى العاشقة، ولا جحيم إلّا خيبة العاشق.

فلتأذنْ لي، إذاً، ونحن نفترق على هذا البرزخ، بأن أَفسخ العَقد المبرم بين عبثٍ وعبث، فلا نعلم مَن انتصر منا ومن انكسر، أنا أم أنت أم الموت، لأننا لم نعترف من قبل، لننتصر، بأن العدوَّ أذكى منا وأدهى، فلا شيء يغوي الهزيمة أكثر من مجافاة هذا الاعتراف، يا صاحبي المُتْرَفَ بالأوصاف النقيضة، المُسْرِفَ في البحث عن عبث لا بُدَّ منه لتدريب النفس على التسامح، ولتحظى بنعمة التأمُّل في ماء يضحك في الغمازات، ويطيرُ فراشاتٍ فراشاتٍ تخلق الشعر من كل شيء حيّ. فالخفَّة، كالندى، قاهرةُ المعدن، وعذراء الزمن، هي التي تدرِّب الوحش على النفخ في النايات /

فلا تصالح شيئاً إلّا لهذا السبب المبهم، ولا تندم على حرب أَنضجتك كما يُنْضجُ آبُ أكوازَ الرّمان على

منحدرات الجبال المنهوبة، فلا جهنم أخرى في انتظارك.
ما كان لك صار عليك /

وعليك أن تدافع عن حروف اسمك المفكَّكة، كما تدافع القطَّة عن جِرائها. وعليك ما عليك: أن تدافع عن حقِّ النافذة في النظر إلى العابرين، فلا تسخرْ من نفسك إن كنت عاجزاً عن البرهان، الهواء هو الهواء ولا يحتاج إلى وثيقة دم. ولا تندم .. لا تندم على ما فاتك، حين غفوت، من تدوينٍ لأسماء الغزاة في كتاب الرمل، النمل يروي والمطر يمحو، وحين تصحو لا تندم لأنك كنت تحلم، ولم تسأل أحداً: هل أنت من القراصنة؟ لكنَّ أحداً ما سيسألك: هل أنت من القراصنة؟ فكيف تزوِّد البديهةَ بالوثائق والبنادق، وفيها ما يكفيها من محاريثَ خشبية، وجرارٍ من فخّار، وفيها زيت يضيء وإن لم تمسسه نار، وقرآن، وجدائل من فلفل وبامية، وحصان لا يحارب /

فلا تعاتب أسلافك على ما أورثوك من براءة النظر إلى التلال بلا استعدادٍ لتلقِّي الوحي من سماء خفيضة، بل لعدِّ النجوم على أصابع يديك العشر. فأنّى لك أن تثبت البديهة بالبرهان، والبرهان متعطِّش لنهب البديهة تعطّش القرصان إلى سفينة ضالة؟ البديهةُ عزلاء كظبي مطعون

بالأمان، مثلك مثلك، في هذا الحقل المفتوح لعلماء الآثار المسلحين الذين لم يكفّوا عن استجوابك: مَنْ أنت؟ فتحسستَ أعضاءك كلها، وقلتَ: أنا أنا. قالوا: ما البرهان؟ فقلتَ: أنا البرهان. فقالوا: هذا لا يكفي، نحتاج إلى نقصان. فقلتَ: أنا الكمال والنقصان. فقالوا: قل إنك حجرٌ كي ننهي أعمال التنقيب، فقلت لهم: ليت الفتى حجرٌ، فلم يفهموك /

وأَخرجوك من الحقل. أما ظلّك، فلم يتبعك ولم يخدعك، فقد تسمَّر هناك وتحجَّر، ثمّ اخضرّ كنَبْتَة سُمْسُم خضراءَ في النهار، زرقاءَ في الليل. ثم نما وسما كصفصافةٍ في النهار خضراءُ، وفي الليل زرقاءُ /

مهما نأيتَ ستدنو / ومهما قُتِلَت ستحيا / فلا تظننَّ أنك مَيْتٌ هناك / وأنك حيٌّ هنا /فلا شيء يثبت هذا وذلك إلّا المجاز / المجاز الذي درَّب الكائنات على لعبة الكلمات / المجاز الذي يجعل الظلّ جغرافيا / والمجاز الذي سيلمّك واسمَكَ / فاصعد وقومَك / أَعلى وأَبعد مما يعدّ تراث الأساطير لي ولك / اكتب بنفسك تاريخ قلبك / منذ إصابة آدمَ بالحبِّ / حتى قيامة شعبك / واكتب بنفسك تاريخ جنسك / منذ اقتبست من البحر إيقاعه ونظامَ

التنفُّس / حتى رجوعك حيّاً إليّ / فأنت مسجّى أمامي / كقافية غير كافية لاندفاع كلامي إليك / أنا المرثيُّ والراثي / فكّني كي أكونك / قُمْ لأحملك / اقترب مني لأعرفك / ابتعد عني لأعرفك!

## II

وُلدنا معاً على قارعة الزنزلخت، لا توأمين ولا جارين، بل واحداً في اثنين أو اثنين في واحد. لم يصدِّق أحد من الجالسين في ظلِّ شجرة التوت أنك ستحيا، من فرط ما شَرَقْتَ بحليب أُمك واختنقت. نحيلاً كنتَ كخاطرةٍ عابرة. نحيلاً كنبتة شعيرٍ خاليةٍ من الحَبّ كنت. لكن لشهر آذار، القادر على سفك دم المكان شقائقَ نعمان، مهارةَ الإنقاذ من موت مبكر لا تنساه إلَّا لتتذكر أن الحياة لم تأت إليك على طبق من ذهب أو فضّة، هاشَّةً باشَّةً، بل جاءتك على استحياء كجاريةٍ مدفوعةِ الأجر، صعبة وعذبة، وشديدة الممانعة. لكن التدريب الطويلَ على الألفة هو ما يجعل الحياة ممكنة.

وممكنةٌ هي مراوِغة الثعالب، أولى حيواناتك الماكرة، بعيونها الخضراء أُنثوية الإغراء ... تخافها ولا تقوى على الابتعاد، كجاذبيةٍ تدفعك إلى الرغبة في القفز من علٍ إلى جُرْف أو هاوية.

هكذا سكنتك منذ البداية فتنة الثعلب والهاوية،

وجرَّك فضولُ القطط، دون حذرها، إلى ملامسة الخطر. فغافَلْتَ أهلك المشغولين بفرم أوراق التبغ بسكاكين حادة، وتناولتَ إحداها ووضعتَ على شفرتها ركبتك اليسرى، وضغطت لتعرف إن كانت السكين تفعل بلحمك الطريّ ما تفعله بأوراق التبغ، ففاجأك السائل الأحمر. ولم تتوجَّع إلّا حين نزعوا السكين من ركبتك، وضمّدوا جرحك وعاقبوك على طيش التجربة.

هكذا رأيتَ الدم الأول ... دَمَكَ الذي علَّمك أن الندبة ذاكرة لا تكفّ عن العمل، كلما نظرت إليها شممت رائحة التبغ الذهبيِّ، وعباءةَ جدك المعلقة كخيمة في الريح. وكلما لمستَ الندبة استمعت إلى بكاء الدم وكرهت الحناء ... على أيدي العرائس وأَقدامهنَّ، وأَشَحْتَ بوجهك عن رقصة الديك الأخيرة، وعن خروف العيد، ولم تشارك أترابك لعبة تعذيب العصافير /

وحلمت، وما زلت تحلم حتى الهزيع الأخير من الحلم، بأنّ عصفوراً حطَّ على يدك، فضممته وشممته وفاحت من ريشه رائحة الصيف، ولثمته، ثم كلمته قائلاً: يا أَخي! عُدْ إلى فضائك، فعاد إليك في حلم الليلة التالية.

كأنك طفلي، كأني أَبوك. ولم يدلّلك أبوك لئلا يرميك إخوتك في جُبّ الحكاية. فاحملني كما حملتك، لأرى من بعيد إلى ذلك الأزرق المنساب من كل بعيد تُصَفّيه المسافة من كل شائبة، ففي الحكاية حقل أوسع مما كان.

ولم أكن طفلاً آنذاك، ولكني هو الآنَ في وداع يفتح لفعل الماضي الناقص باب المدائح على مصراعين: المكان المفقود، والزمان المفقود. ليس المكان هو الفخ إذ يصير إلى صورة، ففي الذاكرة ما يكفي من أدوات التجميل لتثبيت المكان في مكانه، وما يكفي لترتيب الأشجار على ذبذبة الرغبة، لا لأنه فينا وإن لم نكن فيه، بل لأن الأمل هو قوة الضعيف المستعصية على المقايضة. وفي الأمل ما يكفي من العافية لقطع المسافة الطويلة من اللامكان الواسع إلى المكان الضيّق. أما الزمان الذي لم نشعر به إلّا متأخرين، فهو الفخ الذي يتربَّص بنا على حافة المكان

الذي جئنا إليه متأخرين، عاجزين عن الرقص على البرزخ الفاصل بين البداية والنهاية!

فاحْمِلْني كما حَمَلَتْكَ الفراشاتُ إلى مدارج الضوء، خفيفاً مثلها، كلما انبلج الصبح من ثقوب بابك الخشبي، وانهمرت ألوانٌ طائرةٌ لم تعرف أسماءها، كخواطرَ سماويّةٍ مبعثرة، على حقول خالية من الجيش. هناك، حسبتَ أَن الأرض تطير وترقص. فوقفت على صخرةٍ وفتحتَ ذراعيك للريح وقفزت إلى أعلى لتطير، فأحاطت بك الفراشات كشقيقات، وأعانتك على الطيران... ولم تفلح. لكنها أدخلتك إلى مدار اللازورد، ودرّبتك على فقه العزلة. فابتعدت عن البيت، وخلوت إلى الشجر الذي لم تعرف من أسمائه إلّا ما خفَّ لفظه، كالزيتون والخرنوب والسنديان والبلُّوط. ولم تعرف من أسماء النباتات إلّا الخبيزة والهندباء ذات الزهر الليلكي كلون عيني جدتك.

هناك سكنتك فتنة الطيران والعزلة. وهناك، حاولت أن تولد من حلمك، دون أن تدرك الفارق بين الحلم والخيال. في مساءٍ ما، تسلَّلتَ من خلوتك الشجرية إلى بوابة الدار الجنوبية ودعوت الحصانَ إلى الخروج معك،

فأطاعك وخرج. وعلى محاذاة صخرة عالية أوقفتَ الحصان الفاتن وقفزت على ظهر أملس دون سرج. قادك، كما يقود الهواءُ سحابةً، إلى منحدرٍ يؤدي إلى حقل لا نهايةَ له. فهمزْتَهُ فاستجاب، وصار الهواء ريحاً فانتشيت: إني أطير. كل شيء يطير. الشجر، الأرض، الجهات، النباتات، الريح. ولا غايةَ من هذا الطيران سوى لذة الطيران إلى المجهول، حتى هبط الليل على المجهول وعلى المعلوم، وصار المكان أَعمى. لم تعلم أنك قد سقطت. لكن الحصان العائد بلا فارسه الصغير هو مَنْ دلَّ أهلك على موقع طيشك. ضمدوا الجرح في حاجبك الأيمن، ثم عاقبوك.

أما الندبة على حاجبك الأيمن، الندبة التي لا تراها غير الأنثى الخبيرة باستجواب قلب الذكر فهي ذاكرة فراشة تقلِّد نسراً.

وعلى سبابة يدك اليسرى ندبة أخرى. جلست وبنتاً صغيرة كيمامتين على حجرين في كرم زيتون. سأقاسِمُكِ هذه التفاحة، قلتَ لها، وأنت تنظر في عينيها وتمرِّر السكّين الصدئة على إصبعك بدلاً من التفاحة. خافت من الدم وهربت وأنت تناديها: خذي التفاحة كلّها!

وداويت جرحك بحفنة من تراب مخلوط بالعشب اليابس.

لم أسألك وأنت تكبر أمامي عما يجعلك تجرح نفسك كلما غبت في حضور، ألِكي تثير الانتباه، أم لتعوِّد الألم على رائحة البصل؟

سَمَّوكَ الشقيَّ، وأنت أطلقت على طائر الدوريِّ لقب الشقي. هو شبيهك في التوتّر، ونقيضك في الحذر. لكنك أحببت مهارته العالية في مراوغة الصيّاد، فلا عشّ له إلّا الحيلة. وأَحببتَ فيه حيرةَ اللون بين الحنطة والضوء، وخفةَ الطيران على ارتفاع منخفض وعال برفرفة واحدة، ومخاتلةَ المشي بين الناس، بلا وجل، كمخبر قادر على الإفلات من قبضة اليد الخائبة.

وسَمَّوكَ الشقيَّ لأنك تبكي من فرح أو من حزن، دون أن يُؤَوِّل أحدٌ صوتَ الريح في قَصَب سرعان ما يتحوَّلُ نايات. ماذا يقول الناي؟ هل يحمل في ما يحمل هذيان الريح، أمْ ينقل فرح الرُعاة بولادة حَمَل جديد، أم خوفهم من قطيع ذئاب يحاصر قطيع الأغنام؟. يستدرجك الناي إلى البعيد، وتبكي كمن يستبق الفاجعة. لا غيم أسود في الأفق /

فلماذا تبكي والموت بعيد؟ / وحديقةُ بيتك عاليةٌ / والشرفة عاليةٌ / والصفصافةُ عاليةٌ / فلماذا تبكي / وطريق التّبانة واضحةٌ / والليل يُضيئك من خصلة شعرك حتى أخمص قدميك؟ / وأَنت تطيع الناي وتركض تركض / لا ذئبٌ يعوي في الليل على قمر أصفر كالليمونة / لا شبحٌ يطلع من جذع الزيتونة كي يغتال أباك / لماذا تبكي؟ / هل خوفك من فرح يبكيك؟ سألتك / لكني أدرك أن هواء الليل على جبل مثقوب بالناي سيرشح دمعاً سمَّيناه ندى / ستصير غداً ناياً سحرياً / قلت / فلم تسمعني / لم يكبر جرحك بعد / فلا تتركني في هذا الوادي أبحث عنك سدى / لم تسمعني /

والآن وأنت مُسَجّىً فوق الكلمات وحيداً، ملفوفاً بالزنبق، والأخضر والأزرق، أدرك ما لم أدرك:

إن المستقبل مُنْذُئذٍ،

هو ماضيك القادم!

# III

للحروف البيضاء على اللوح الأسود مهابةُ فجر ريفيّ. وكما يُصُبُّون الماء، على مهل، في جَرّة لا تمتلىء، تشرَّبتَ الشكل الناقص وصوته معاً، بتعذيب الحنجرة وتطويعها للإشارة، وبإخضاع الحلق لما تراه العينان.

حين يُجْمَعُ حرفٌ إلى حرف، أي عَبَثٌ إلى عبث، يُسْفِرُ غامضُ الشكل عن وضوح صوتٍ ما، ويفتح هذا الوضوح البطيء مجرى لمعنى له صورة، فتصير ثلاثة أحرف باباً أو داراً. وهكذا تبني حروفٌ خاملة، لا قيمة لها إذا افترقت، بيتاً إذا اجتمعت.

يا لها من لعبة! يا له من سحر. يولد العالم تدريجياً من

كلمات. هكذا تصير المدرسة ملعباً للخيال ... فتركض إليها بفرح الموعود بهدية اكتشاف، لا لتحفظ الدرس فحسب، بل لتعتمد على المهارة في تسمية الأشياء. كلُّ بعيدٍ يقترب. وكل مُغْلَقٍ ينفتح. إذا لم تخطىء في كتابة كلمة نهر، فسيجري النهر في دفترك. السماء أيضاً تصبح جزءاً من مقتنياتك الشخصية إذا لم تخطىء في الإملاء.

كلُّ ما لا تبلغه يداك الصغيرتان مُلْكُ يديك الصغيرتين إذا أَتْقَنْتَ التدوين بلا أخطاء. من يكتب شيئاً يملكه. ستشمُّ رائحة الوردة من حرف التاء المربوطة كبرعم يتفتح. وستتذوَّق طعم التوت من جهتين: من التاء الـمُتَّصلة ومن التاء المفتوحة كراحة اليد /

الحروف أمامك، فخذْها من حيادها والعب بها كالفاتح في هذيان الكون. الحروفُ قلقة، جائعة إلى صورة، والصورةُ عطشى إلى معنى. الحروفُ أواني فخّار فارغةٌ فاملأها بسهر الغزو الأول. والحروفُ نداءٌ أخرسُ في حصى متناثر على قارعة المعنى. حُكَّ حرفاً بحرف تولد نجمة، قرِّب حرفاً من حرف تسمع صوت المطر، ضَعْ حرفاً على حرف تجد اسمك مرسوماً كَسُلّم قليل الدرج /

كُلُّ الحروف جاهزة لاستقبال الشكل / الكائن، الباحث

عن يد ماهرة تخلق الحاجة إلى الانسجام. ما عليك إلّا أن تسمِّي بيدك كائناتٍ تعرفها من قبل، وكائنات تعرِّفك على نفسها فيما بعد ./

ويَسْتَهْويكَ حرفُ النون المستقل كصحن من نحاس يتسع لاستضافة قمر كامل التكوين. يرنّ ويحنُّ إلى أي امتلاء ولا يمتلىء، ولا يكفّ عن الرنين مهما ابتعد ومهما ابتعدت. سيكبر فيك وتكبر فيه، ويُحْيِيكَ، ويُقْصِيكَ عن نفسك كَحُبٍّ ملحاح، ويُدْنيكَ من الآخرين... نون النسوة والجماعة والـمُثَنَّى وقلب «الأنا» وجناحا «نحن» الطليقان. ستأخذك سورة الرحمن إلى الإيمان المصحوب بالطرب، فتحبُّ اللّه وتشفى من قلق السؤال الأول: «من خلق اللّه»؟ /

وتحبُّ الشعر ويأخذك الإيقاعُ المهموزُ بحرف النون إلى ليل أَبيض. كلمات تنقل فرساناً من حب الحرب دفاعاً عن بئر الماء، إلى حرب الحب دفاعاً عن أميرة مخطوفة في بلاد الجن. لا تستقيم الحكاية إلّا بثلاثية الفروسية والشعر والحب. مقادير يصارعها السيف والقصيدة معاً، فلا تكون غلبة إلّا بهما مجتمعين. لم تنتصر قبيلة بلا شاعر، ولم ينتصر شاعر إلّا مهزوماً في الحبّ.

حين ينفضّ الساهرون من ديوان جدِّك، ويحملك جدك إلى النوم، تكون الحكاية قد هَيَّأتك لتحلم وفق خيالها المفتوح: ستتابع حروب عنترة تارة، والمهلهل تارة. وستدخل غرفاً لا تعرفها في تناسل الحكاية من الحكاية في ليالي شهرزاد التي لا تبلغ النهاية، فتصير جزءاً من حكاية في عالم سحريّ التكوين لا يشبه شيئاً مما حولك.

هكذا سكنتك فتنة الإيقاع والحكاية.

فابتعدتَ، وحيَّرك الخيط المقطوع بين الواقع والخيال، بين حرب تُروى وحرب تُرى.

في مساء ما، رأيت نساء الحيّ ذاهباتٍ آيبات بحماسة، يحملن على رؤوسهن أكياساً ملأى بحجارة يكدِّسنها على سطوح المنازل كالذخيرة، والرجال منهمكون بتدبيب رؤوس العصيّ بالمسامير. ما هذا؟ سألت، فقيل لك: غداً، صباحاً تندلع الحرب بين الحمولتين الكبيرتين في القرية. لنا حلفاء من الأنسباء ولهم حلفاء ... لكننا سننتصر. لم تسأل عن سبب الحرب، فلعلَّه الضجر أو خلاف على ظلٍّ شجرة، ولعلَّه اختراع حكاية. لكن المعركة التي امتدت من الصباح إلى المساء لم تسفر عن قتلى أو نصر، بل فتحت أبواب السجون للمحاربين، وأَغلقتْ باب

الحكايات في دار جدِّك. وكان عليك أن تبكي من فقر الليل. وكان عليك أن تكمل الحكايات وحدَك وعلى قدر حلمك، بلا رُواة ومعاونين!

أَما الحروف البيضاء على اللوح الأسود، فقد تشقَّقت ككلسٍ صدىء، لأن كابوساً ما رافقك إلى المدرسة: هل مات أَبي؟. وحين يسألك المعلم: ما معنى هذه الجملة: «انتظرِ السيارةَ حتى تعبر» تجيبهُ وأنت شارد الذهن: يعني إذا رأيت سيارة على الشارع، فلا تمش على الشارع حتى تزمِّر السيارة. يضحك المعلم: ما علاقة تعبر بـ تزمِّر؟ فتقول: أليست كلمة «تعبر» هي «تزمِّر» لأن للسيارة زُمَّارة. فيقول لك موبّخاً: تعبر معناها تمرّ. حتى الآن، وبعد ستين عاماً من هذه الوعكة اللغوية، ما زلت تسمع صوت الزمّور كلما قرأت أو سمعت كلمة «تعبر». وتضحك في سرِّك من قدرة الأخطاء الأولى على الحفر في الصخر. وتسأل: متى أشفى من تعريف الكلي بالجزئيّ؟ فالريشة ليست هي الطائر، والشجرة ليست هي الغابة، والعتبة ليست هي البيت.

لكن الكلمات هي الكائنات. ستسحرك اللعبة حتى تصبح جزءاً منها. وستقضي العمر في الدفاع عن حق

اللعبة في استدراجك إلى المتاهة، وفي استدراجها إلى الفكاهة. تقرأ ولا تفهم ما تقرأ، فتقرأ أكثر مستمتعاً بقدرة الكلمات على الاختلاف عن العاديّ. الكلمات هي الأمواج. تتعلَّم السباحة من إغواء موجة تلفّك بالزبَد. وللكلمات إيقاع البحر ونداء الغامض: فلتأتينّ إليَّ إليَّ بحثاً عما لا تعرف ــ ناداك الأزرق. وأَنقذك الحَظّ وحَرَسُ الشاطىء من انقطاع أكيد مع صوت الكلمات. لكن قنديل البحر ما زال يحكّك دون أن تتوب عن حبّ البحر، ودون أن تعلم أن البحر هو مصدر الإيقاع الأول. فكيف يسجن البحر في أحرف ثلاثة، ثانيها طافح بالملح؟ كيف تتسع الحروف لكل هذه الكلمات؟ وكيف تتسع الكلمات لاحتضان العالم؟

تكبر على مهل وببطء. وتودُّ لو تقفز أسرع أسرع في السباق إلى غد تروِّض فيه الكلمات، وتقول شعراً حماسياً مدفوعاً بقوة الحبّ وبواجب الدفاع عن القبيلة، فينفتح لك السرّي الخفيّ بانفتاح الكلمات على الوعي، فلا تكون لعبةً كما ظننت، بل تحديق الظاهر إلى الباطن، وتجلِّي الباطن في الظاهر، فتكونها وتكونك، فلا تعرف التمييز بين القائل والقول. ستسمّي البحر سماء مقلوبة،

وتسمّي البئر جرّة لحفظ الصوت من عبث الريح، وتسمِّي السماء بحراً معلقاً على الغيوم.

ثمة شيء يتزيًّا بالغامض، لا يُشَمُّ ولا يلمس ولا يتذوق ولا يبصر، هو ما يجعل الطفولة حاسَّة سادسة، فسمَّوك الحالم من فرط ما ركَّبتَ للكلمات من أَجنحة لا يراها الكبار، وتحرشت بالغامض، واغتربت /

فانهض من هذا الأبيض

عُدْ طفلاً ثانية / عَلِّمني الشعر / وعلِّمني إيقاع البحر / وأَرجعْ للكلمات براءتها الأولى / لِذْني من حبة قمح، لا من جرح، لِذْني / وأَعدني، لأضمَّك فوق العشب، إلى ما قبل المعنى / هل تسمعني: قبل المعنى / كان الشجر العالي يمشي مَعَنا شجراً لا معنى / والقمر العاري يحبو معنا / قمراً / لا طَبَقاً فضّياً للمعنى / عُدْ طفلاً ثانيةً / علِّمني الشعر / وعلِّمني إيقاع البحر / وخُذْ بيدي / كي نعبر هذا البرزخ ما بين الليل وبين الفجر معاً / ومعاً نتعلَّم أُولى الكلمات / ونبني عشاً سرياً للدوريّ: / أخينا الثالث / عُدْ طفلاً لأرى وجهي في مرآتك / هل أنت أنا / وأنا أنت؟ / فعلِّمني الشعر لكي أرثيك الآن الآن الآن / كما تَرْثيني!

# ١٧

لَكَ لَيْلٌ على هذا الوادي، فاهبط أَسرع من حَجَلٍ مذعور. الهواء ساكن لا يحرِّك ريشة، ولا دليل لرحيلك هذا أوضح من غراب يرافق النازحين إلى حدود الليل /

لك ليل، ولا إقامة لنا ولك، منذ الآن، تحت أشجار الزيتون، ولا درب خارج ما ينشره الظلّ الداكن لعرباتٍ نسمعها ولا نراها. الليل مكبّرات صوت. الليل طبل الصدى. لك ليل صارخ فاهدأ. واسمك الصغير وأسماؤنا كلها تتهيّأ للإقلاع إلى مصائرها العشوائية في فوضى التكوين.

يوقظونك من زمنك الخاص، ويقولون لك: اكبر الآن معنا

في زمن القافلة، واركض معنا لئلا يفترسك الذئب. فلا وقت لنا لنودِّع أي شيء ساخن. فاترك بقيَّة منامك نائماً على نافذة مفتوحة، ليلحق بك حين يصحو عند الفجر الأزرق. الحلم هو الذي يجد الحالمين، وما على الحالم إلّا أن يتذكر /

فاخرج معنا إلى هذا الليل الخالي من الرحمة. ستعرف فيما بعد كيف تنضِّد الكواكبَ في خزانة الذاكرة، وكيف تعوِّض الخسارة بقوة العبارة وتنتصر. أَمَّا الآن، فلا تنظر إلى النجمة لئلا تخطفك وتضيع. وتعلَّقْ بثوب أُمِّك ... الدليل الوحيد على أن الأرض تركض حافية القدمين، ولا تبك كأخيك الصغير، المولود منذ أيام، لئلّا يرشد البكاءُ الجنودَ إلى جهتنا المرمية في الهواء كيفما اتفق.

لن يقوى أَحدٌ على إخفاء الوجع عنك، فهو مرئيٌّ، ملموس، مسموع، كانكسار المكان المدوّي. وها أنت ذا معنا ترى الوجع الذي ينهبنا كل شيء، دفعة واحدة، وينسلُّ منا كنصل السكّين جالساً قبالتنا شامتاً، على الضفة الأخرى لنهر كان حاجزاً وصار لفظة حجرية. الوجع يسامرنا، عن بعد، ويعوي كإناث الوحوش: تعالوا إليَّ تعالوا! فلا نذهب ولا نرجع.

لم نكن بعد في حاجة للأساطير، لكن ما حدث فيها يحدث الآن فينا ... في هذا اليوم المهروس بجنازير الدبابة. فمن يروي قصّتنا نحن السائرين على هذا الليل، مطرودين من المكان ومن الأسطورة التي لم تجد منّا أَحداً يشهد على أن الجريمة لم تقع. فإذا لم نكن نحن نحن، فليسوا هم هم. لكن الخصوصية هي الخصوصية، ذريعة السارق.

فلا تنظر إلى نفسك في ما يكتب عنك. ولا تبحث عن الكنعانيِّ فيك لتثبت أنك موجود. بل اقبض على واقعك هذا، واسمك هذا، وتعلّم كيف تكتب برهانك. فأنت أنت، لا شبحك، هو المطرود في هذا الليل.

لك ليل. وللحنطة آباء هم آباؤك، وللمنازل بُناة هم أجدادك، وللجرح المبكر فيك صرخة هي أنت، لا ولد آخر أصابه سهواً سهم إلٰهة ماجنة. هكذا ستكتب عن تاريخ لا عن أسطورة، فليس من شأن نِساء الملح أن يشهدن عليك أو لك ... ولك أن تستعين بآلهة الأساطير، كذاكرة متخفّية، لتحمي الشعر من غلبة الجيش على الإيقاع وعلى تاريخ القمح، ولتحمي الزمن من هيمنة الراهن ... فلك في تعدّد الآلهة نصيبٌ ما من

عدل ممكن، ولك من هذا الماضي نصيب من طفولة لا تريد أن تشيخ سريعاً بلا حكمة. لكن ما هو راسخ هو أن اسمك هو اسم الأرض /

ولم تكن للأرض من أنوثة أجمل من الكنعانيات السابحات على السهل والتلّ مموَّهاتٍ بشقائق النعمان، والمريمية، وعصا الراعي، والنرجس المنحني بجلال الأمير على الماء /

الكنعانياتُ الكنعانياتُ المزهُوَّاتُ بصبوات الربيع، الشهوانياتُ، الطالعاتُ من صهيل الصافنات، ومن تأهُّب النايات للإمساك بأول الأرض الهارب من الخاصرة إلى جداول ترعى بين أقدامهن /

للاسم هنا رنَّةُ الفضة، وطعنةُ الرمح الطائش في خصور الكنعانيات المنذورات لتعليق الأرض، بحروف الأبجدية السامية، على قرون الأيائل /

وليس للاسم هنا قربان الحي للميت ولا غفران الميت للحيّ. فالكنعانيات، وقد أغواهنّ البابونج، أخرجن الأرض من وحشتها في الكهوف إلى بيوت على شاكلة الإيقاع الحجريّ /

وكنا أمام البحر شُهُودَ التُفَّاحات الأولى في الرحيل من

فردوس إلى آخر، وجنوداً لا سلاح لنا غير أعواد الذرة وقُوَّة القمح العظمى /

ورأينا كيف يخضرّ الظلّ ويحمرّ من شمس أريحا، ويبيضّ من رقة سلامنا الحار، سلامنا الزراعي السائر خفيفاً خفيفاً بين نارنا الأولى وما انقطع من رسائلنا الشفهية

من ريح إلى ريح /

سلامنا المنشور كالأزرق الأبدي على أرض تغطي جرحها الأنثوي بورق التين وبصوف الخراف الساعية بلا أجراس إلى ماء الينابيع /

سلامنا المكشوف كرائحة الفواكه الناضجة الفاضحة في ليالي الأعراس /

فلتغتسلن، أيتها الكنعانيات، بالماء والضوء والحبق، ليمتلىء المكان بأنوثة تهرول خلف قطيع الماعز. الفلفل أيضاً يشرئبّ كأثداء الشاة، ويشهد على سلام الفرح. ويلهب الأفخاذ المُبقَّعة بحليب العنب اللزج /

فاسبحن، أيتها الكنعانيات، اسبحن في النور الساخن، لتطفح قصيدةُ شاعرٍ ما بتراث الماء الصافي قبل الغزو ...

شاعر لم يولد على قارعة هذا الرحيل، بل وُلد منذ الأزل، منذ التقى آدم بحواء لتزجية الأبدية. شاعر لم يولد، هو وأسلافه إلّا على هذه الأرض المسمّاة بكنّ، المُدَمَّاة بشوك الورد الذي زرعتن.

لم تكن بنا حاجة للأساطير إلّا لتفسير العلاقة بين القمر والدورة الشهرية، وبين الشمس ودورة الفصول، وإضفاء السحر على الكلام في ليالي الشتاء الطويلة، وتدريب الوحوش على طاعة النغم.

فلتحفظْ ليل الألم هذا عن ظهر قلب. فقد تكون الراوي والرواية والمرويّ، فلا تنس هذا الطريق الضيِّق المتعرج الذي يحملك وتحمله إلى المجهول العربيد الذي سيرميك، وأهلَك، بالشبهات.

وتسأل: ما معنى كلمة «لاجىء»

سيقولون: هو من اقتُلِعَ من أرض الوطن.

وتسأل: ما معنى كلمة «وطن»؟

سيقولون: هو البيت، وشجرة التوت، وقنّ الدجاج، وقفير النحل، ورائحة الخبز، والسماء الأولى.

وتسأل: هل تتّسع كلمة واحدة من ثلاثة أحرف لكل

هذه المحتويات ... وتضيق بنا؟

وبسرعة تكبر على وقع الكلمات الكبيرة، وعلى الحافة بين عالم ينهار خلفك، وعالم لم يتشكل بعد أمامك ... عالم مرميّ كحجر طائش في لعبة أقدار. تسأل نفسك: من أنا؟ ولا تعرف كيف تعرِّف نفسك. ما زلتَ صغيراً على سؤال يحيِّر الفلاسفة. لكن سؤال الهوية الثقيل قد أقعد الفراشة عن الطيران.

تنتحي ركناً قصيّاً على صخرة مهجورة على البحر اللبنانيّ. تبكي كأمير صغير أنزلوه عن عرش الطفولة، قبل أن يُلَقِّنُوه فِقْهَ الرُشْد التدريجيّ، ودرس الجغرافيا الضروريّ لمعرفة المسافة بين «هنا» و«هناك»:

يا بحر، يا بحر ... ولا تفلح في تركيب النداء الكافي. لكن حرف الحاء يدرِّب الحلق على بُحَّة الملح: يا بحر، يا بحر! وتبكي، فيذوب قليل من الملح الصاعد إلى العينين، وتتضح وُجْهة النداء: يا بحر، يا بحر .. خذني إلى هناك.

يدنو طائر أبيض منك، طائر بحريٌّ، سحريٌّ يهبط برفق إليك، وبرفق يطوي عليك جناحيه ويلمُّك كأنك واحد من فراخ سلالته، ويقلع ويطير على ارتفاع منخفض، فلا

تدري إن كنت أنت الطائر أم صفةً من صفاته. تحلقان على طول الساحل المتعرِّج المتدرّج بين الأزرق والأخضر. وبلا ألم تهبطان على باحة البيت الواقف كالأم على التلة. النافذة ما زالت مفتوحة. يفرد الطائر الأبيض جناحيه برفق على سريرك، فتنام خفيفاً كما على غيمة. لكن أصواتاً عالية توقظك فجأة: ماذا تفعل هنا أيها الولد الأحمق؟ كيف تنام على هذه الصخرة المهجورة على شاطىء البحر، في مثل هذا الليل؟ ألا بيت لك ولا أهل؟ فانتبهت إلى أنك تحلم /

لَكَ حُلْمٌ يسبق الشعر، بهيٌّ

ونداءٌ يسبق الإيقاع، بحريّ

كأنَّ الليل هذا

خلوةُ الخالق بالمخلوق:

كن سيِّد أوصافك منذ الآن،

يا ابني لك حُلْمٌ

فاتبعِ الـحُلْمُ بما أوتيتَ من ليلٍ! وكن إحدى صفات الحلم

واحلُمْ تَجِدِ الفردوسَ في موضعِهِ!

# ٧

ظلام، ظلام، ظلام. نجاةُ اللون من التأويل، وخيالٌ يهب الأعشى ما فاته من فروق الإملاء، ومساواةٌ ترجِّح كفَّة الخطأ. لو خلا الليل منا لعاد صيّادو الأشباح إلى ثكناتهم خائبين. ولو خلا الليل منهم لعدنا إلى بيوتنا سالمين.

الأشجار سوداء عمياء بلا أَسماء وبلا ظلال. وفي كل حجر سرّ ما. كأنَّ الموت الذي لم تره من قبل ينصب فخاخه بدهاءٍ تامّ السرية. فماذا تفعل في هذا الخلاء الكامل لو نقصت هذه القافلة الصغيرة؟ ومن أَية جهة تنجو، وماذا تفعل بنجاتك؟ إلى أَين تأخذها وأنت لا تعرف أيَّ طريق؟

لم تفكر بموتك أنت، فما زلت صغيراً على هذه التجربة، إذ لم تدرك بعد أَنَّ بمقدور الصغار أيضاً أَن يموتوا. لكن، كيف تمضي وحيداً إلى حياة لا تعرفها ولا تعرف مكانها؟ فأبكاك احتمالٌ يُهيل عليك، بلا رأفة، سماءً ثقيلة الوطأة. ويروي لك، بلا رحمة، نهاية قصة عن ضياع أَبديّ في ليل وحشيّ مُطبِقٍ على بغلتين، وطريقٍ صخريّ، وسمسارِ حنينٍ يقود خمسة عائدين إلى خطاهم المعاكسة.

وستروي إلى لا أَحد واضحِ الملامح: لم يكن لنا من عَدُوٍّ، وقتئذٍ، إلّا الضوء والصوت. ولم يكن لنا، ليلتئذٍ، من حليف سوى الحظّ، ينهرك صوت الخوف الخفيض: لا تسعل أيها الولد، ففي السعال دليل الموت إلى مقصده. ولا تشعل عود الثقاب، أيها الأب، فإنَّ في بصيص نارك الصغيرة إغواءً لنار البنادق.

وخُيِّل لك أن الليل هذا هو خباء الموت الواسع، وأنك تمشي أو تزحف أو تقفز كالجندب في برية الذئاب الخالية من المارة. وخيّل لك أن الضوء القادم من نجمة شاردة، أو من سيارة بعيدة، هو أَحد الأدلّاء السرّيين لصاحب هذه البرية. وعليك إذا لاح الضوء من بعيد أن تتخذ هيئة

شجرة واطئة أو صخرة صغيرة، وأن تحبس أنفاسك لئلّا يسمعك الضوء الواشي.

وستروي لي عندما أتقن التدوين، أَو ستروي للا أحد كيف عثرت هناك، في ذلك الليل، على قرون استشعار جاهزة لالتقاط الرسائل البعيدة، وكيف تدرّبت على الإقامة في المغامرة، وكيف اكتويت بجمرة الثنائيات، وجاهدت في مكابدة الضد للضد، وتجنَّبت تعريف العكس بالعكس، فليس كل عكس لما هو خطأ صواباً دائماً. وليس الوطن هو النهار، دائماً. وليس المنفى هو الليل...

ظلامٌ يوحِّد العناصر في كهف الوجود الخالي من الصُّوَر. يطفح المجهول المحمول على عواء الذئاب وعلى هسيس العشب الدامي. وتمشي خطوةً على خواطرَ سوداء، وعلى صخرةِ ليلٍ خطوةً. وأنت تسأل في سرِّك عمّا يجعل العتمة صلبة، وعما يجعل الحياة صعبة. وتحنُّ إلى مطر في الجنوب، إلى مطر يذيب هذا الحبر الكوني الهائل، وتقول: لو هطل المطر علينا في هذا الليل لذاب الظلام ورأينا خطانا والطريق، وقادتنا رائحة المطر إلى الشجر الذي شبَّ في الغياب ودخلت أغصانه العالية إلى الغرف.

لكن همساً مالحاً يأمرك بأن تنبطح على الأرض. هو

الضبع ـ يقولون لك وهم يشيرون إلى ضوء سيارة من بعيد، ولا يأذنون لك بأن تسأل: هل يقود الضبعُ سيارة؟ لم تعرف المجاز بعد، فلم تعرف أن الضبع هو «حرس الحدود». إذ ظَنُّوا أن الضبع لمن هو في سنك أرحم. فهو لا يحمل بندقية ولا يعرف المحاجحة. ويكفيك، لتنجو منه، أن تخفي خوفك في جيبك، وتتظاهر بالمشية اللامبالية. يبتعد الضوء، وتزدرد الخوف، وتمشي مع بغلتين، وعائلة، وسمسار حنين على هدي الظلام.

وأَنا الراوي، لا أنت، أُذكِّرك الآن بمنادي قريةٍ كان يقف على سطح بيت ويصرخ: جاء الضبع. فيهرول عشرات من أَمثالك إلى كهف القرية، إلى أن يعود الجنود من حملة التفتيش عمن عادوا إلى بلدهم «متسللين». تلك القرية المنحوتة في سفح جبل ذات بيوت من جدران ثلاثة. أما الرابع فهو ظهر الجبل. بيوت لو نظرتَ إليها من تحت، من كرْم الزيتون، لرأيتَ لوحة عشوائية رسمها فنَّان أعمى على عجل، صخرةً على صخرةٍ، ونَسِيَ أن يرشَّ عليها شيئاً من نعمة اللون، فقد كان خائفاً من أن يرى، فجأة، ما صنعت يداه. أَما النوافذ فإنها تطل على جهة واحدة: جهة الضبع!

هناك، عرفت من آثار النكبة المدمرة ما سيدفعك إلى كراهية النصف الثاني من الطفولة. فإنَّ كنزة صوف واحدة، منتهية الصلاحية، لا تكفي لعقد صداقةٍ مع الشتاء. ستبحث عن الدفء في الرواية، وستهرب مما أَنت فيه إلى عالم متخيَّل مكتوب بحبر على ورق. أما الأغاني، فلن تسمعها إلّا من راديو الجيران. وأمَّا الأحلام فلن تجد متسعاً لها في بيت طيني، مبنيّ على عجل كقنّ دجاج، يُحْشَرُ فيه سبعةُ حالمين، لا أَحد منهم ينادي الآخر باسمه منذ صار الاسم رقماً. الكلام إشارات يابسة تتبادلونها في الضرورات القصوى، كأنْ يغمى عليك من سوء التغذية، فتُداوى بزيت السمك ... هبةِ العالم المتمدن لمن أخرجوا من ديارهم. تشربه مكرهاً كما تُكْرِهُ الألم على إخفاء صوته في ادعاء الرضا.

تتذكر مذاق العسل الجارح الذي كان جدك يرغمك على تناوله فتأبى، وتهرب من مشهد جدتك التي تضع المنخل على وجهها لتتّقي عقصات النحل وتقطف الشَّهْد بيد جريئة. كل شيء هنا برهان على الخسارة والنقصان. كل شيء هنا مقارنة موجعة مع ما كان هناك. وما يجرحك أكثر هو أن «هناك» قريبة من «هنا». جارة ممنوعة من الزيارة. ترى إلى حياتك التي يتابعها مهاجرون من اليمن

دون أن تتدخل في ما يفعلون بها، فهم أصحاب الحقّ الإلهي وأنت الطارىء اللاجىء.

وحين تقول لأهلك: لم أذق في حياتي طعماً أسوأ من زيت السمك، يسخر منك الكبار: ألك حياة يا ابن السابعة .. أَلك ذكريات؟ تقول: نعم. وهذا هو الفارق. وُلد الماضي فجأة كالفطر. صار لك ماضٍ تراه بعيداً. وبعيد هو البيت الذي يسكنه وحيداً. وُلد الماضي من الغياب. ويناديك الماضي بكل ما ملكتْ يداه من أزهار الصُبَّار الصفراء على طريق يصعد فوق التلال، ومن رائحة الحنين الشبيهة برائحة البلّوط المشويّ في المواقد، ومن عباءة جدِّك البنيّة كالتبغ الذي بلّله الماء، الخفَّاقة كصوت صراع وُدّي بين الحكمة والعبث. ولد الماضي كأثداء كلبة توشك على الولادة، ومن خوفك من الغد وُلد الماضي كاملاً جاهزاً لخطف العروس على حصان الحكاية. من كل ما أنت فيه، ومن كل ما فيك من بؤس الحاضر الجائع إلى تعريف الهوية ... وُلد الماضي.

وكما لو كنت تهذي: البعيد هو السعيد. والسعيد هو البعيد. سأجعل الليل إثمداً لأستعيد عافية الماضي وأداوي بها حُمَّى أصابت الأرض المتشعبة فيَّ كالنَّجيل. وأهذي

وأَعرف أني أهذي، ففي الهذيان وعْي المريض برؤياه، لأنه أَنبل مراتب الألم.

سيقول الطبيب مرة أخرى: إنه يشكو من سوء التغذية، فهل أقلع عن تناول زيت السمك؟ كلا، ولكنه يتذكر أشياء لا يحتملها من هو في مثل عمره. يتمنَّى أن يكون فراشة، فهل للفراشات ذكريات؟ الفراشات هي الذكريات لمن يتقنون الغناء قرب نبع الماء، فهل غنّى؟ ما زال صغيراً فأنَّى له أن يدحرج الكلام على مصطبة من رمل؟ إنه يشكو من سوء الحاضر، فلتأخذوه إلى الغد.

ليس لنا في اليد حيلة ولا غد ــ قالوا ــ ونحن على هذه الحال، مربوطون إلى مصائر متينة التركيب، ومشدودون إلى هاوية بعد هاوية. نشتري الماء من آبار الجيران، ونقترض الخبز من سخاء الحجر. ونحيا، إن كان لنا أن نحيا، في ماض رضيع مزروع في حقول كانت لنا، منذ مئات السنين، إلى ما قبل قليل ... قبل أن يختمر العجين وتبرد أباريق القهوة. بساعة نحس واحدة دخل التاريخ كلصّ بَجسور من باب، وخرج الحاضر من شباك. وبمذبحة أو اثنتين، انتقل اسم البلاد، بلادنا، إلى اسم آخر. وصار الواقع فكرة وانتقل التاريخ إلى ذاكرة.

الأسطورة تغزو، والغزو يعزو كل شيء إلى مشيئة الرب الذي وعد ولم يخلف الميعاد. كتبوا روايتهم: عدنا. وكتبوا روايتنا: عادوا إلى الصحراء. وحاكمونا: لماذا وُلدتم هنا؟ فقلنا: لماذا وُلد آدم في الجنة؟

تذكَّرْ، لتكبر، نفسك قبل الهباءْ

تذكر تذكرْ

أصابعك العشر، وانس الحذاءْ

تذكر ملامح وجهك،

وانس ضباب الشتاءْ

تذكَّر مع اسمك، أمَّكَ

وانس حروف الهجاء

تذكر بلادك، وانس السماءْ

تذكر تذكّرْ!

# VI

وعشتَ، لأنَّ يداً إلٰهية حَمَلَتْكَ من عين العاصفة إلى وادٍ غير ذي زرع. وعشتَ في منزلة الصفر، أو أَقلَّ وأكثر. عشتَ عصيَّ القلب، قصيَّ الالتفات إلى ما يوجع ويجعل الوجع جهةً، وإلى ما يرجع من صدى أَجراس تضع المكان على أُهبة السفر: من هنا مرت الغجريات المصابات بحُمَّى الرقص والإغواء. علَّقن سراويلهن على أغصان الشجر وارتدين العري المتخفِّي في رشاقة الحركة. على الخيال وحده أن يرى فضيحة العُرْي في إيمان الفنِّ بذاته المتمنِّعة عن الإفصاح. فالغجريات الماهرات بدسِّ البرق في عظام المشاهدين، هُنَّ هُنَّ القادرات على ستر

العري بضوء يسطع من نهود ترشح حبيبات ماءٍ يضحك ...

في كلٍّ وَلَدٍ غجريَّةٌ. وفي كل غجرية سَفَرٌ مرتجل. وفي كل سفر حكاية لا تُروى إلّا بعد اجتياز الذكرى سنَّ الخجل من أَصحابها. ألهذا حَمَلْتَ الغجر معك كلما افترق المكان عن زمانه، وكلما تشرَّد المكان في سُكّانه الباحثين عنه في ما تبقّى من روائح هي الدليل على حسيَّة الروح؟ ألهذا بحثت في النساء الغريبات عن فوضى الجسد في شهوة الغجريات الراقصات على حبال الريح، واصطحبت المعنى الخالي من الزركشة، في الحب، إلى آخر العبث؟

وعشتَ، لأن يداً إلٰهية أنقذتك من حادثة. عشت في كل مكان كمسافر في قاعة انتظار في مطار يُرْسِلُكَ، كبريدٍ جوّيّ، إلى مطار .. عابراً عابراً بين اختلاط الهُنا بالهناك، وزائراً متحرراً من واجبات التأكُّد من أي شيء. هكذا مرّت الغجرياتُ على حقل أيامك البعيدة، في طريقهن الشريد من الهند إلى ما يرد على حاسة التيه من هواجس بلا خرائط وهويات ... جميلات وبائسات وراقصات بلا سبب، سوى ما للدم الساخن من نسب إلى الإيقاع. هُنَّ

هُنَّ، سِرْبُ خيامٍ مهاجرة إلى مغامرة قد يَجِدْنَ فيها كفاف حياة في متناول اليد. ولا يودِّعن شيئاً لئلَّا يَحْزنَّ، فالحزن مهنة لا تليق بهنَّ، فهنّ الحزينات منذ وُلِدْنَ. ويرقصن كي لا يَمُتْن. ويَترُكْنَ الأمس وراءِهن حفنةً من رماد موقدٍ مؤقت. ولا يفكرن بالغد لئلَّا يعكِّر التوقع صفو الارتجال. اليوم اليوم هو الزمن كله /

فاحذر طريق الغجريات، لأنه لا يوصل إلى أَيّ هدف.

وعشتَ، لأن كثيراً من الرصاص الطائش مرَّ من بين ذراعيك ورجليك ولم يصبك في قلبك، كما لم يَشُجَّ حَجَرٌ طائشٌ رأسك. وعشتَ لأن سائق الشاحنة انتبه في اللحظة الأخيرة إلى ولد يصرخ بين مؤخرة الشاحنة وبين الجدار الذي تلتصق به. وعشتَ، لأن سائق سيارة رأى في الظلام قميصاً أَبيض واقفاً على حافة الشارع، فأنقذك من خطر الليل وأعادك إلى الأهل المشغولين بتقليب الافتراضات على جمر الخوف. وعشتَ، لأن ضوء القمر اخترق الماء وأضاء صخوراً مدببة أقنعتك بأن الموت سيكون مؤلماً لو قفزت من تلك الصخرة إلى البحر، لا سباحةً في مياه الأبدية.

وعشتَ، دون أن تعرف كيف تصوغ كلمات الشكر

البسيطة: حمداً للحياة حمداً. ولم تسأل إلّا متأخراً: كم مرة متُّ ولم أنتبه؟ وكلما متّ وانتبهتَ التهمتَ الحياة كحبة خوخ، فلا وقت طويلاً للخوف من المجهول ما دامت الحياة، وهي أنثى، مشغولة عن الموتى بتجديد صباها وفجورها وتقواها، على مرأى من المحرومين.

تجلس في مطعم المطار في ركن قصيّ، وتفكِّر في جدوى الرحلة: هل أنا في ذهاب أم إياب. لا أحد ينتظرني في الذهاب ولا سبب يدعوني إلى الإياب. لي أكثر من اسم وأكثر من تاريخ ميلاد في جوازات سفر جليلة الأغلفة، حمراء وزرقاء وخضراء. وحُرٌّ أنا في هذا الزحام المسافر، وآمِنٌ كبضائع الحوانيت المعفاة من الجمارك، ومحروس بأجهزة الإنذار الإلكترونية. لا أحد يسألني من أنت ولا أَحد يلتفت إلى مشيتي المتلعثمة، وإلى الزر المقطوع في معطفي، وإلى بقعة الزيت على قميصي. كأني شخص هارب من إحدى الروايات المعروضة في كشك الصحف، هارب من المؤلف والقارىء والبائع. وفي وسعي أن أضيف وأن أحذف وأن أعدِّل وأن أبدِّل وأن أَقْتُلَ وأن أُقْتَلَ وأن أمشي وأن أجلس وأن أطير وأن أصير ما أريد وأن أحبّ وأن أكره وأن أَعلو وأن أهبط وأن أسقط من أعالي الجبال ولا أصاب بسوء لأني لا أَعتدي على حقوق

المؤلف، ولي في المصائر، أعني مصائري، وجهة نظر أخرى /

لم يَنْهَكَ أحدٌ في المطار عن الإفراط في الخروج من انضباط المؤلف، فاسترسلتَ في طرق المعلوم على فولاذ المجهول، فتطاير شَرَرُ الممكن من خيال كلما ضاقت عليه الجدران شعّ كبلّور مكسور في مجاز السجين. فرأيت إلى نفسك في المطار التالي شخصاً غير مرغوب فيه، لافتقار الوثائق إلى فِقْهِ الربط بين الجغرافيا وأسمائها: فَمَنْ وُلِدَ في بلدٍ لا يوجد .. لا يوجد هو أيضاً. وإن قلتَ مجازاً إنك من لا مكان قيل لك: لا مكان للامكان هناك. وإن قلت له، لموظف الجوازات: اللامكان هو المنفى، أجابك: لا وقت لدينا للبلاغة .. فاذهب إذا كنت تحبُّ البلاغة إلى لا مكان آخر /

ورأيتَ إلى نفسك في مطار ثالث ورابع وعاشر تشرح لموظفين لا مبالين درساً في التاريخ المعاصر عن شعب النكبة الموزع بين المنافي والاحتلال، دون أن يفهموك وأن يمنحوك إذناً بالدخول. ورأيتَ إلى نفسك في شريط سينمائيّ طويل تروي على رسلك ما حلَّ بأهلك مسروقي اللسان، والقمح والبيت والبرهان... منذ هَبَطَتْ عليهم

جرّافة التاريخ العملاقة وجرفتهم من مكانهم وسوَّت المكان على مقاس أسطورة مدجّجة بالسلاح وبالمقدّس. مَنْ لم يكن آنئذٍ في الأسطورة لن يكون الآن. وتساءلت: هل من جلاّد مقدس؟ ورأيتَ إلى نفسك تكمل ما تيسَّر لك من عمرك، بلا مؤرخين ومؤلفين في المطار المزدحم بالمسرعين إلى مواعيدهم التجارية والغرامية /

وأَنت الـمُفْرَغُ من لقاء أو وداع، تجلس على المقعد الجلديِّ وتنام. وتستيقظ لأن مسافراً مستعجلاً تعثّر بك واعتذر دون أن ينظر إليك. تمضي إلى الحمَّام وتغسل ثيابك الداخلية وجوربيك وتحلق ذقنك، ثم تتوجَّه إلى الكافتيريا لتحتسي فنجان قهوة، وتبحث في الجرائد عن آخر أَخبارك: هل من بلد يقبل بي؟ فلا تجد فيها، في الجرائد، إلّا أخباراً مُفَصَّلة عن الحروب والزلازل والفيضانات. لعل الله غاضب على ما يفعل البشر بالأرض! لعل الأرض حبلى بالقيامة!

ما معنى أن يحيا إنسان في المطار؟ تهجس: لو كنتُ مكاني لكتبتُ مديحاً لحريتي في المطار: أنا والذبابة حُرَّان / أُختي الذبابة تحنو عليَّ / تحطُّ على كتفي ويدي/ وتُذَكِّرني بالكتابة / ثم تطير. وأكتب سطراً:

كأن المطار بلاد لمن لا بلاد له / وتعود الذبابة بعد قليل / وتمحو الرتابة، ثم تطير تطير تطير / ولا أستطيع الحديث إلى أحد / أين أختي الذبابة، أين أنا؟

ترى إلى نفسك في شريط سينمائي تُحَدِّق إلى امرأة تجلس في الركن المقابل لك في الكافتيريا. وحين تراك وأنت تراها تتشاغل بتنظيف قميصك من قطرة نبيذ، وَقَعَتْ ككلمةٍ شاردة من عبارةٍ كُنْتَ ستقولها لها لو كانت معك: جمالك هذا كثير عليَّ كسماء، فارفعي السماء قليلاً لأتمكَّن من الكلام. ترفع عينيك عن صحن الحساء الساخن، فتراها تراك، لكنها سرعان ما تتشاغل برشِّ الملح على طعامها بيد يرتجف عليها الضوءُ، فتخاطبها في سرِّك: لو كنتِ مثلي ممنوعةً من الخروج، لو كنتِ مثلي! تشعر بأنك أَحْرَجْتَها، فتتظاهر بأنك تخاطب النادل: لا، عفواً. لُؤْلُؤةٌ من عَرَقٍ تلمع في جيدها المرفوع للثناء، فتقول لها في سرِّك: لو كُنْتُ مَعَكِ لَلَحَسْتُ حبَّة العرق. الرغبة ماثلة واضحة كالصحن، كالشوكة والملعقة والسكين، كزجاجة الماء، كالشرشف، وكأرجل الطاولة. والهواء مُعَطَّر. تلتقي النظرتان وتشعران بالحرج فتفترقان. هي تحتسي جرعة من كأس النبيذ الذي ذابت فيه اللؤلؤة. وأنت تشعر بأنها قد سمعتْ بكاءَ الحوت في محيط

عميق، وإلّا، فما الذي يُغْرِقُها في هذا الصمت الكثيف؟ تقول لها في سرّك: إن أعلنوا أن قنبلةً ستنفجر في المطار، فلا تصدِّقي.. لأني أنا من أطلق هذه الشائعة لأقترب منك وأقول لك إني، لا غيري، من أطلق هذه الشائعة. يخيَّل لك أنها اطمأنت، فرفعتْ نخبك متلألئاً، وانسلَّ خيط من الرغبة من أطراف أناملها، وحرَّك في عمودك الفقريّ نبضة كهربائية، وهزتك قشعريرة ... فتولَّهْتَ وتأوهت، وفاحت رائحة المانجو من سرير سرّي مُعَلَّقٍ في الهواء، وناحت كمنجات بعيدات وارتخت أوتارها في نهاية الهياج /

لم تنظر إليها، لأنك تعلم أنها تنظر إليك ولا تراك، فقد حَلَكَ الضبابُ على طاولتك الدائخة من فرط ما كدَّستَ عليها من أدوات التأويل، ومن أوراق بيضاء لا يكفي عشرون مؤلفاً لإشباعها بالكنايات. لم يكن النادل، بل هي من ربَّتت على إغمائك، وقالت: هل كانت وجبتك شهيّة؟ وأنتِ ــ سألتها، فقالت: سعدتُ بلقائك ... هل تذكرتَني؟ قلتَ: قد يفقد المرء ذاكرته في المطارات. فقالت: وداعاً! لم تنظر إليها وهي تبتعد، لأنك لا تريد أن ترى الرغبة وهي تدقُّ بكعبين عاليين رخام الكاتدرائيات، وتوقظ في أجساد الكمنجات شبقاً إلى

الرحيل. لكنك تذكَّرتها حين تسلَّل النعاس، كما تسلَّل خدر النبيذ إلى جسدك، بدءاً من الركبتين إلى ما لا تتذكر من غابة الجسد. أمَّا اسمها، فقد تعرفه غداً، على طاولة أخرى في مطار آخر!

## VII

ألسجنُ كثافةٌ. ما مِنْ أحدٍ قضى ليلةً فيه إلّا درَّب حنجرته على ما يُشْبِهُ الغناء، فتلك هي الطريقةُ المتاحةُ لترويض العُزْلة وصيانةِ كرامة الألم. أن تسمَعَ صوتك المبحوح يعني أن آخَرَك قد سامَرَكَ وأسرَّ لك بأخبارك الشخصية، في غرفة كلما ضاقت اتسع ما وراءها واحتضنتَ العالم بشَغَفِ المصالحة /

وأَنتَ إذ تغنِّي لا تُغَنِّي لتتقاسم الليل مع أحد. ولا تغني لتقيس إيقاع وقتٍ بلا إيقاع ولا علامة، بل تغنِّي لأنّ الزنزانة تُغْريك بمناجاة الخارج، نُقْصانِكَ في كمال العزلة: تأتي الحقول إليك بحفيف السنابل الذهبية. والشمس تملأ

قلبك بضوء البرتقال. وتأتي إليك زهور السفوح المبعثرة كشعر فتاة فوضوية. ورائحةُ القهوة المشحونةِ بهياج الهال تأتي إليك. كأنك لم تنتبه من قبل إلى ما في خارجك من سعة ودعة... وإلى ما كان ينقصك من احتفاء بالطبيعة.

وكما في القصائد والغَسَق، يحتفل الغموض بالوضوح، لأن بؤرة سرية تطلق إشعاعها في الجهات وفي الكلمات، وتحرم الظلام من أبديَّة الصفات. تزورك الذكرياتُ الصغيرة قطيعاً من ماعز وأيائل تتقافز كأكواز صنوبر على طريق جبليّ. في كل أغنية فتاةٌ تنتظر على محطة باص أو على شرفة. وعلى كل شرفة منديلٌ يلوِّحُ وحمامةٌ آمنة.

وأَنتَ، أنتَ وأكثر /

مأهولٌ، كمجمّع سكانيّ، بالصاعدين على الدرج وبالنازلين إلى الشارع. مأهول بأدوات المطبخ والغسالات ونزاع الأزواج على أفضل طريقة لتقشير البطاطا وقلي السمك. وَجَعٌ خفيفٌ في المعدة يتبعُهُ وَجَعٌ ميتافيزيقيّ: هل تصاب الملائكة بالزكام؟

وأنتَ، أنتَ وأقلّ /

لا تستطيع وُلُوجَ يومٍ جديد بلا حمّام، وحلاقة، وصحيفة، وفنجان قهوة. حجم الأرض هنا متران مربّعان لهما بابٌ حديديٌّ دائمُ الإغلاق. أصواتُ أحذيةٍ غليظةٌ تحمل إليك حساء العدس المطبوخ بالسوس، فتدرك أن نهاراً جديداً قد حلَّ ضيفاً على العالم. لكنك لا تُحصي الأيّام، فلا خَرَزَ في زنزانتك ولا حصى للتقويم الجديد. ولا تعلم إن كانت حرب جديدة قد اندلعت، أو كانت الحرب القديمة قد وضعت أوزارها. ولا تعرف إن كانت ثيابك قد توقفت عن بثّ رائحتها، أم أن حاسة الشمّ فيك هي التي تعطلت.

لا جديد إذاً. لا جديد في هذه القطيعة الصلبة مع الزمن. لا جديد سوى قديمك الزاحف منك وإليك، متحولاً فكرةً وصورةً تتناوبان، بلا مهارة، ذرائعَ هدوئك الذي لا غنىً لك عنه للتنفُّس الطبيعي في هواء فاسد. لا شيء رهن إشارة القلب الذي كان يأمرك فتنصاع، ويأمرك بأن تعصى فتعصى، ويأخذك إلى أقصى ما في مطاردة الحجل من بريّة، وإلى أَقسى ما في الكلام من خشونة الهجاء.

كم أنت هادىء لتقول: الهجاءُ فحولةُ اللغة القادرةِ على مناطحة الجنادل، كلما توقفت البلابل عن الغناء، وامتثلت

فرسٌ غير أَصيلةٍ، إلى إغواء حمار. الهجاء فروسيَّةٌ مقهورةٌ تعوِّض نقصان التشبّه بالقادر برفع إنشاء الخاسر إلى مرتبة العرش، لكنه، الهجاء، يُطرب الجمهور الغاضب، ويعذّب الغالب بطنين الأولاد الذين يلاحقونه بأصوات التنك والشتائم، ويحرمه من تتويج النصر بالطرب.

وأَنت، تقريباً أَنت /

لا سجين ولا طليق. فالسجن كثافة. ما من أَحد قضى ليلة فيه إلّا وأَمضى الليل كله في تدليك عضلات الحرية المتشنّجة، من فرط السهر على الأرصفة، حافيةً وعاريةً وجائعة. وها أنت ذا تحتضنها من كل ناحية، حراً متحرراً من عبء البرهان. ما أصغرَها وما أَبسطها وما أسرعها في الاستجابة إلى نشاط السراب. وهي فيك وفي متناول يدك التي تدقُّ بها جدران الزنزانة: في اقتباسك أُمثولة الطير، وفي هطول المطر، وفي هبوب الرياح، وفي ضحكة الضوء على حجر منسيّ، وفي كبرياء شحاذ يُوَبّخ مانحيه إذا بخلوا، وفي حوار غير متكافىء مع سجانك حين تقول له:

أنت، لا أنا، هو الخاسر، فمن يحيا على حرمان غيره من الضوء يغرق نفسه في عتمة ظلّه. ولن تتحرر مني إلّا إذا

بالَغَتْ حريّتي في الكرم، كأنْ تعلِّمك السلام وترشدك إلى بيتك. أنت الخائف، لا أنا، مما تفعله الزنزانة بي، يا حارس نومي وحلمي وهذياناتي الملغومة بالإشارات. لي الرؤيا ولك البرجُ وسلسلة المفاتيح الثقيلة والبندقية المصوَّبة إلى شبح. لي النعاسُ حريريُّ الطبع والملمس، ولك السَهَرُ عليَّ لئلا يسحب النعاسُ سلاحَكَ من يدك قبل أن يرتدَّ إليك طرْفك. الحلم مهنتي، ومهنتك استراق السمع، سدىً، إلى حديث غير وُديّ بيني وبين حريتي /

لا يصغي السجّان إليك، ولا يراك وأَنت تغافله وتدخل في نفسك دخول الغريب إلى مقهى على الرصيف. لم تحبَّ المقاهي وملاهي الليل، كما أشاعوا عنك. المقهى هو امتلاء الروائيِّ بفضول النص المتعطش إلى مراقبة المصائر. المقهى هو إفراغ الوقت من ضجرٍ مصاحب للكائن في كؤوس نميمة. والضجر مُذلّ كالشهوة المتأججة في غير موضعها. المقهى هو الشَّرَكُ الملائم لاصطياد أفكار نسيها أصحابها مع البقشيش على الموائد، واقتباسات غير دقيقة لعناوين ثقافية تشبه الوجبات السريعة.

لكنك تحسُّ الآن برغبة ملتهبة في الذهاب من الزنزانة إلى المقهى. ستجلس وحدك مع فنجان قهوة وجريدة قد

تقرأها وتنسى ما قرأت. وقد لا تقرأها وتتذكر ما لم تقرأ. لكنها ستارة ورقية لاختلاس النظر إلى الآخرين: إلى سيِّدة تخاطب كلبها بحنان عائليّ، وإلى جنرال يأكل بنهم، فالجنرال هو أَيضاً كائن يجوع... وإلى فتاة تنزل خصلة شعر على جبينها بنزق المنتظرة... وإلى صحافيّ يدوِّن ملاحظات عن رجل أمامه يحاول حل الكلمات المتقاطعة. وحين تختلس النظر إلى نفسك، تكتشف أنك لا تفكر بشيء ولا تنتظر أحداً، ولا تشعر بفراغ أو امتلاء أو ضجر.

الضوءُ ساطع، فتخرج إلى الشارع النازل من قِمَمِ الصنوبر إلى البحر. السجنُ هو حرمان الكائن من مشهد الشجرة والبحر. والحرية هي المخيّلة القادرة على استدعائهما إلى السجن، وجعل ما ليس مرئياً مرئياً. لا .. هذا ما يفعله الشعر. الشعر إذاً فعل حريّة، ويجعل ما هو مرئيّ غير مرئيّ عند مواجهة الخطر. والمشي رياضة وحرّية. تتخيّل أنك تمشي على شارعك الشخصي بطيئاً في البداية. تتملّى شبابيك مفتوحةً على الداخل، على أسرار صغيرة وحمّامات. تقيس المسافة بين لقاء طويل ووداع صغير، فينتابك شعور حامض بالندم على خطأ لم ترتكبه: لست أنا المسؤول عما حدث. لكنَّ الحربَ أعادت كُلاًّ منا إلى

خيمته. أنتِ إلى نشيدكِ الوطني، وأنا إلى السجن، فلم تَعُدْ أغنيةُ الجَسَديْنِ مشتركة!

المشي رياضةٌ وحريّةٌ. تتخيَّل أنك تمشي على شارعك الشخصيِّ سريعاً سريعاً لتحرق السعيرات الزائدة لساندويتش الشورما وألواح الشوكولاته. ألدِّهْنُ والسّكّر هما شهوة السجين إلى استرداد عافية المألوف. والمشي رياضة الكلمات وتدريب الذاكرة على ما تحتاج إليه من نسيان الزؤان والإهانة. المشي السريع يخفِّف عن الكلمات شحم النعوت والمترادفات وما يجعل السهم طائشاً. المشي السريع يضع الرمزيَّ في موقعه الصحيح من الواقعيِّ مهما تحرَّش الضباب بالصورة والفكرة والرؤيا. المشي السريع يلفُّ الكلامَ بسَرْوَةِ القِوام الرشيقة تحت سماءٍ صافية. فلتُسْرِعْ قبل أن يوقفك السجّانُ عن رياضة المجاز في منتصف هذا الشارع الواسع. ولتسرع قبل أن يوقظك، ويرمي إليك بوعاء البول الصباحيّ.

وأنتَ أنتَ ولا أنت في آن واحد /

منقسمٌ إلى داخل يخرج وإلى خارج يدخل. لكنك حُرٌّ في الاختلاء بحريّةٍ غير حَمَّالة أوجه ... حرّ في وضع الخيال على ركبتيك. ولا تجري، كما هي العادة، مقارنة

بين سجن كبير وسجن صغير، لأن لا شيء في الزنزانة يلهيك عن التحديق إلى بؤرة سوداء تشعّ نوراً، فتغنّي له وتطير، كما يفعل المتصوف، أبعد من هدهد في أقاصي السؤال!

# VIII

لم يسحرك أَكَلَةُ اللوتس بمذاق النسيان العسليِّ. خرجوا من أسطورتهم سالمين، ودخلتَ وأَهلك بلا استعداد كاف في التيه. تعرف تماماً ماذا تركت وراءك: ماضياً غير مُدوَّن في نشيد، عن طُرْواديِّين جُدُدٍ لا يُرْوَى عنهم إلّا ما يقول أعداؤهم عنهم. لكنهم لم يخطفوا هيلين ولم يكونوا سبباً للحرب. كانوا طيِّبين مسالمين، ولا ذنب لهم غير أنهم وُلِدُوا على سفوحٍ شُبّهتْ بالدرج المؤدِّي إلى الله. وكانوا شجعاناً بلا سيوف، وعفويين بلا بلاغة، فانكسروا أمام الدبابات، وهُجِّروا وبعثروا في مهبِّ الريح، دون أَن يفقدوا إيمانهم بالشفاء من جرح التاريخ.

فمن أَنت في هذه الرحلة؟ أَشاعر طرواديّ نجا من المذبحة

ليروي ما حدث، أم خليط منه ومن إغريقي ضلَّ طريق العودة؟ إنَّ فتنة الأسطورة تجعلك نهباً لانتقاء الاستعارات... فَخُذْ منها ما يصلح لصعود النشيد إلى ختام آخر، يتّسع لصوت الضحية الطرواديِّ المفقود، ولعجز النصر الإغريقي عن إعادة الشباب إلى المحارب الذي شاخ في ثنائية البيت والطريق.

مشدوداً كالوتر بين الماضي والغد، تعرف كل ما خسرت وتركت وراءك. ولا تتبيّن أمراً من أمور الأمام. لكن جاذبية أُفقية تدفعك بقوة العاصفة إلى محتويات الأمام، إلى مجهول فاتن في قصيدة لم تكتمل تبدأها أنت، ثم تقوم هي بتولِّي مسارها، حيث يتغلَّب المصنوع على الصانع والوليد على الوالدة. سمّوك الحالم، حين قلت إن الطروادي يقاوم. وفسروا أحلامك قبل أن تراها. وقلتَ: ابتعدتُ قليلاً لأقترب، فقالوا: هذه هي طريقة النادم في الكلام. فهل ندمتَ حقاً على هذا السفر؟ قلتَ: لا أَعرف ما دمتُ في أوّل الطريق.

وكان عليك أن تختار الهامش لتعرف أَين أَنت. الهامش نافذة تطل على العالم، فلا أنت فيه ولا أنت خارجه. الهامش زنزانة بلا جدران. الهامش كاميرا شخصية تنتقي

من المشهد ما تشاء من صور، فلا يكون الملك هو الملك. ولا يكون مقلاع داود إلّا سلاح جوليات. هل صحيح أنَّ من يكتب قصته قبل الآخر يكسب أرض القصة؟ لكن الكتابة تحتاج إلى مخالب كي تحفر الأثر في الصخر.

وسَمَّوْكَ الحالم حين اخترتَ الهامش لترى حلمك ويراك مُنْكَبّاً على تذكّر اسمك القديم الذي يتبعك كظلِّك، ولا ينطق. لو نطق الظلُّ لأرشدني ـ قلت لي. أمَّا أنا فذهبت إلى الشارع أهتف وأنزف وأهتف بسقوط الذرائع والأسباب، حتى خُيِّل لي أَنني حَرَّرتُ وَتَحرَّرتُ وكَفَّرتُ عن ذنوب لم أرتكبها. وكنت تنظر إليَّ من الهامش، لأن المسافة كما قلت لي مصفاة ومرآة. وفي المساء التقينا، كما هي العادة، فعانَقْتَني وربّتَّ على كتفي وقلت لي: سأمضي غداً معك، لأن الهامش يتأمَّلُ ولا يفعل.

طريق يعلو ويهبط، يتموَّج ويتعرَّج ويطول، ويتفرع إلى طرق لا حصر لها ولا نهاية تجتمع بالبداية. كم مرة نبدأ من البداية؟ ونجونا من موت كثير، وهزمنا النسيان، وقلت لي: نحن ننجو ولا ننتصر، وقلت لك: النجاة هيَ انتصار الطريدة الممكن على الصيّاد. الصمود هو البقاء والبقاء هو أول الوجود. وصمدنا، وسال دمٌ غزير على السواحل

والصحارى... دمٌ فاض عن حاجة الاسم إلى هوية، وحاجة الهوية إلى الاسم.

وبحثنا عن زهرتنا الوطنية، فلم نجد أفضل من شقائق النعمان التي سمَّاها الكنعانيون «جراح الحبيب»، وبحثنا عن طائرنا الوطني، فاخترنا «الأخضر» تَيَمُّناً بانبعاثه من الرماد، وتجنّباً لسوء فهم مع أخوة «الفينيق»، وبحثنا عن علَمنا الوطني، فأرشَدَنا بُعْدُنا القوميُّ إلى بيت الشعر إياه، الذي أغدق على الألوان الأربعة أوصافاً قد تجافي الموصوف، ولكنها تهيِّج الحماسة.

وسال دم غزير حتى صارت قيافَةُ الدمِ... دَمِنا دليلَ العدوّ إلى طمأنة ذاته الخائفة مما فعل بنا، لا مما قد نفعل به. فنحن الذين لا وجود لنا على «الأرض الموعودة» صرنا شبح القتيل الذي يطارد القاتل في النوم وفي اليقظة وفي ما بينهما، فيضطرب ويكتئب ويشكو من الأرق ويصرخ: «ألم يموتوا بعد؟» كلا... فقد بلغ الشَبَحُ سنَّ الفطام وسنّ الرشد وسنَّ المقاومة وسنَّ العودة. الطائرات تطارد الشبح في الهواء. الدبابات تطارد الشبح في البر. والغوّاصات تطارد الشبح في البحر. والشبح يكبر ويحتلُّ وعيَ القاتل حتى يصيبه بالجنون:

على شرفة في مشفى الأمراض النفسية تطلّ على آثار دير ياسين، يجلس ملك إسرائيل الجديد ويهذي: هنا، هنا كانت بداية معجزتي. هنا قتلتُهُمْ ورأيتُهم قتلى. رأيتهم موتى ملء البصر والسمع. هنا سمعت أنين الوحوش البشرية الذي لم يعكّر صَفْوَ مُوسيقاي . ومن هنا نشرتُ أصواتهم شمالاً لتُفْزِعَ سائر القطيع الذي يُرَنِّق ماء الأرض المقدسة. ومن هنا أذعت الذعر في ما تبقى من حيوانات تدبُّ على اثنتين .... ليدخلوا في رحلة التيه. لا، لا فالتّيه ليس اللفظ الملائم لمصيرهم. التيهُ خُصُوصيَّتي. التيهُ يفضي إلى الهداية. التيه يفضي إلى عودة. التيه احتكاري كما هو الله لي. يتناول الملك أقراص المهدّىء ويتذكّر: لولا بطولتي، لولا ما فعلت بدير ياسين، لما قامت مملتكي. لولا الغياب، غيابهم، لما حضرت. أن لا يكونوا هو أن أكون. فمن أين طلعوا عليَّ، أنا الذي لم أرض بهم جيراناً أو عبيداً، لا حطّابين ولا سقاة ماء. يضغط الملك على كأس الماء بعصبيّة فيهشِّمه، فيبزغ من يده خيط دم، فيهذي: لم أرَ دم الشبح الذي يطارده جيشي في لبنان وأرى دمي؟ هنا قتلتُهُم ورأيتهم قتلى، فكيف غَشُّوا الموت وعصوا أوامري... وأنا من يهَب الموت والحياة... أنا الملك، ملك إسرائيل الجديد. وكيف صار الميت شبحاً وكيف تطاول

الشبح عليَّ؟ أأَنا في حلم أم في كابوس أنا؟ أما من شرفة في هذا العالم تطلّ على نهاية أخرى؟ أبعدوا عني دير ياسين ثانية، أبعدوا عني صراخ هذه الأشباح، أو أَبعدوني عنها ... فلا أستطيع الاعتذار لها ولا أريد. حيرام! حيرام يا ملك صور أَسْعِفْني. لقد غضب عليَّ شعبي، وقال إن حربي عبث، وإن اغتيال الشبح عبث، وإن سلامي عبث. أَسعفني يا حيرام ولو بصُلْحٍ كَذِب، أخدِّر به عقلي وقلبي وشعبي، وأشفى من أَتراحي. ألا تعرفني؟ ... ألا تسمعني يا ابن الكلبة والكلب! لا أَحد يستمع إلى الملك المعتكف في بيته المطل على موقع جريمته الأولى. وحين يخرج متكئاً على عكاز لزيارة قبر زوجته لا يتكلم مع أَحد. الشبح هو رفيقه الوحيد. عدوُّه الذي لا يغادره، عدوُّهُ الذي يعوده في مرضه، ويقوده إلى لقائهما الأول: هنا قَتَلْتَني، ودَفَنْتَني في هذه الحفرة، فلا يقوى على صدِّه، وينهار: يسقط القاتل في قبر القتيل!

سأَلتُكَ: ما معنى ذلك؟ فقلتَ لي: قد يحتاج المعنى إلى وقتٍ آخر لينضج في ملح الأرض. وقد يحتاج إلى شاعر آخر خلو من الطرواديين والإغريق، شاعرٍ ينظر من علٍ إلى هاويةٍ لم يَقَعْ فيها، فتصير بحيرة. أمَّا الآن، فنكتفي من المعنى بتلويحة يد من بعيد: ما زلنا أحياء، وقادرين على

تعديل النصِّ الإغريقي، فالفصل الأخير، فصل النهاية مفتوح إلى ما لا نهاية!

المجازُ، الكنايةُ، والاستعارةُ، والتوريةْ
هي ظلُّ الكلام، فلا
صورةُ الشيء كالشيء ... أو عكسُهُ
إنها حيلةُ الشعر في التسميةْ
ولي في المجاز مآربُ أخرى
كأنْ أترك الأغنيةْ
على رِسْلها ...
تتلفَّتُ شرقاً وغرباً
وتقفز بين السماوات والأوديةْ
وتعالج أوجاعها
بقليلٍ من السخريةْ

# IX

سألتُكَ، فقاطَعَتْني قذيفةٌ تبحث عن هدف مراوغ. هبطنا إلى ملجأ وسألتُكَ بمكرٍ تعرفه فيّ: متى تُبْحرُ السُفُن؟ قلتَ بنزق: إلى أين؟ قلتُ: إلى ما لا نعرف .. إلى مجهول جديد. أليس هذا هو طريق المعنى؟ لم تعجبك السخرية التي تحلّ في غير مقامها، كأنْ يضحك المرء في جنازة، أو يبكي في عرس. فأشحتَ بوجهك عني وابتعدت وغبت، وأصغيتَ إلى صوتٍ فيك يناديك ويرميك بوَخْزِ الإبر، كلما وصلتَ إلى مفترق أو منحدر: لماذا ... لماذا نزلتُ عن جبل الكرمل؟ لم تصدِّق مَنْ صدَّقوك. فقد عاملوك كما يعامل المضيفون طائراً مهيض الجناح توارى عن

السرب، فعالجوك ودرَّبوكَ على الطيران التدريجيِّ، فطرت. وعلَّموك الغناء فغنَّيتَ وقلت: أنا ما سأكون.

في القاهرة الساحرة الساهرة تحلم بأنك في الجنة، فتقوم في الليل وتفتح النافذة لتتأكد من صحَّة الأبديَّة كلما رأيتَ النيل. لكن، لماذا نزلت عن الكرمل؟ يغيب السؤال عن الآخرين ويحضر فيك وحدك، سرّياً خفيّاً كآلام الشبح التي يوقظها عُضْوٌ مبتور. فتقول: كفى هذا. وتنام.

يوقظك سؤالي: متى تبحر السفن؟ فتجيب بعصبيّة تستدرج المعنى إلى العبث: لن أَخرج! فأذكِّركَ بأن بيروت ليست حيفا. وكان عليك أَن تقول ذلك هناك، فتخجل من تصويب الخطأ بالخطأ، وتستدرك: أَعني لن أَخرج من جهة البحر، لأني لا أُجيد السباحة. أُمازحك قليلاً: لكنَّ كلامَكَ منظوماً بحريٌّ كله، وأَنت لا تعرف البحر؟ تهدأ وتقول: البحر سرير استعارات مائية. البحر مشهدٌ لغويّ. البحر إيقاعات.

خرجنا من الملجأ إلى شوارعَ خاليةٍ من المارة والقذائف. إنها هدنة تصمّ الآذان. لقد أُفرغتِ السماءُ من الطائرات وامتلأت بالأزرق الذي يتصبَّب بُخاراً. بوسعك الآن أن تحصي دقات القلب، في الوداع الحزين لثورةٍ تبحث عن

طريق أبعد أَبعد، للوصول إلى أرضها التي كانت على مرمى تفاحة، فسألتك: هل ابتعدتَ لتقترب، أم اقتربتَ لتبتعد؟ قلتَ: المناخُ غيرُ ملائمٍ لتمليح الجرح وتشريح التورية.

وبكيتَ كما لم تفعل من قبل. بكيت من كل الحواس. بكيت كأنك لا تبكي، بل تذوب دفعة واحدة وتمطر. فلممتك من كل جهاتك وحملتك إلى شُقّتك الصغيرة في الطابق الثامن من بناية تطل، من بعيد، على البحر الذي ستبحر فيه السُفُن. كل شيء يبكي: السماء الواطئة. الرصاص الذي يودِّع المقاتلين يبكي. الشوارع تبكي، والشرفات وأطلال البنايات، والشعارات على جدران المدينة تبكي، والمواعيد المرمية في الممكن والمستحيل تبكي.

تركتُكَ وخرجتُ ألقي نظرات الوداع على مَنْ تدرّبوا على إخفاء الدموع ولوَّحوا بالبنادق باسمين، فأوجَعَتْني إشاراتُ النصر المرسومةُ بأصابع لم ينتبه أبطالُها إلى ما بُترَ منها. وسمعت هتافات تزفّ البطولة إلى بدايات جديدة. الفكرة جمرة. والطريق هو البحث عن صواب الطريق. وسننجو وننتصر. لم أَعد قادراً على البكاء، فقد أحرق

الغضب دموعي، ولم أَعد قادراً على النظر إلى الحاضر، فقد رفعتني الحماسةُ إلى أَعلى مدارجها، وأضاءت شمسُ الغد أنفاقي كُلَّها. فكأني أقوى مني ما دامت البداية فينا حيَّة، وفينا من كثافة الغيم ما يروي الصحراء لو تقطَّر ومطر. وفينا من آثار الظلم ما يُغنينا عن طلب العدالة بفصاحة اللسان والتبيين والبيان. لم يعد البحر مجهولاً وكفَّ صوت السفن المبحرة عن العويل، وصرختُ: من كل مرفأ .. نبدأ.

وحين عدتُ إليك، ورأيتُ الأخضر الرماديَّ في عينين صافيتين، سألتُكَ: هل تعجبك الهمزةُ في آخر الكلمة؟ فأجبتَ: تعجبني أينما وَقَعَتْ، ولا يعجبني سؤالك. فاذهبْ عني، فقد اشتقتُ إلى الصمت!

بيروت نائمةٌ حالمةً بيوم آخر. غداً تحصي قتلاها وجرحاها. وتمددتَ على هدير الصمت. الصمت كُلّيٌّ كونيّ مشحون بوحشةٍ بريَّة، يعلو ويهبط صدىً لصدى خلاء السماء من عواء الفولاذ. كأنك تسمع قطرات الماء تُنَقّطها حَنَفيَّةٌ غيرُ مُحْكَمَةِ الإغلاق.. أو تصغي إلى خطوة تتقدم من الباب ولا تصل أَبداً. للصمت نميمة الجدران، ووشاية الفراغ للفراغ. وللصمت صوت العتمة

التي تنساب وتنساح بهيبة جيش سريّ المواقع. وللصمت هَسِيسُ حاسَّةٍ تتطلّع إلى وظيفة حاسة أخرى بين النوم واليقظة. الصمت تَأْتَأَةٌ ثرثارةٌ بين عناصرَ لا تتقن الكلام. الصمت ما يتناهى إلينا من قَهْقَهَةِ عاصفةٍ بعدما أدَّتْ واجبها العبثيَّ بنجاح. الصمت طنين يحوِّل غرفة النوم غابة أشباح.

تصرخ وتصرخ كي تكسر هذا الصمت الملحاح بصمت أعلى، فيندحر الصمت ثم يعود إليك مستعيناً بطاغوت الأرق، فتوقد شمعة وترشد الصمت إلى باب الخروج: من هنا... من هنا تمضي وتصل إلى مقرّك الدائم: ضمير العالم، فيطيعُكَ ويمضي مُخَلِّفاً لك الأرق... وتلك مسألة أخرى يسبِّبها سوءُ التفاهم المتبادل بين الوعي وأعضاء الجسد، وسوء الفهم الدائم بين الواقع والخيال. لكنك اعتدت حلّها بالمراوغة، إذ قلتَ للواقع: أنتَ الخياليُّ الوحيد، وقلتَ للخيال: أنت الواقعيُّ الأكيد.

ونمت. همت بجسدك وهام بك. تعب شهيُّ الخَدَر يَلِجُكَ سُمّاً سُمّاً. ويرفرف عليك سربٌ من النوارس المتزاحمة على نشيد البحر للسفن. نشيدٌ شجيّ يلتفت إلى الوراء، إلى يابسة تبتعد وإلى زمن يبتعد كنصٍّ زائدٍ

دوّنه شعب زائد لا كتاب له على اليابسة. فجأة، تخلع النوارسُ بياضها وترمَدّ وتسوَدّ، ويشتدّ سوادها وتصير إلى جوارح تنقضُّ على أطفال ينامون في العراء، تخطفهم بمخالب مُقوَّسة، فيصرخون من الهلع والوجع، ويصرخون ويصرخون ثم يتوقفون عن الهلع والوجع والصراخ في بطن الوحش.

يضربك الكابوسُ بقبضته الحديدية فتصرخ بلا صوت. تتفقَّد أعضاء جسمك التي قطَّعها الكابوس بمهارة جزّار، فتجدها سوية سليمة لكنها ترتجف وتصرخ من أَثر الذبح. تحاول أن تنهض من السرير لترى أين قُتِلْتَ، فلا ترى دماً في الغرفة. تبحث عن وجهك في المرآة، وعن قدميك في الحذاء، وعن يدك حول كأس الماء، وعن قلبك تحت القميص. وتتأكّد من أنك حيّ، أو ميت وجد نفسه حيّاً، من آثارك لا من حياتك /

أنتَ والفجر وحيدان. وحيدان أنت والفجر في الشارع. الفُرْنُ مغلق والباعة غائبون والأبواب موصدة. لا قطط في الشارع المزدحم بأكوام القمامة. والشجرة الوحيدة واقفة وحدها على باب البناية، لاستقبال الفجر المبشِّر بأبدية لا تعني أَحداً في هذا الوقت الزائد. أَنت والفجر وحيدان

غريبان اجتمعا عنوة، دون أن تجمعهما أُلفة ولا فضول. لا تدري إلى أين تمشي، لكنك تمشي على خُطَىً سابقةٍ ريثما يدلق الفجر زرقته الكحلية وينصرف. وتعترف بأنك أخطأت: لماذا نزلتُ عن الكرمل، ولم أكمل رحلتي مع إخوتي إلى البحر... إلى ما لا أعرف؟

ترى دَبَّابَةً عملاقة في منتصف الشارع، فلا تدري إن كان عليك أن تعود القهقرى أم تواصل السير كأنك لا ترى ما ترى. تنظر إلى الساعة كأنك على موعد، وتمشي بخطى تسابق دقات قلبك إلى لا هدف، فلا يكترث بك الجنود المأخوذون بمتعة التعرُّف إلى أول عاصمة عربية يغزونها. ستعلم من الإذاعات أن ليل صبرا وشاتيلا كان مضاءً كُلُّهُ، لينظر القَتَلَةُ في عيون قتلاهم فلا تفوتهم لحظة نشوة على موائد الذبح، وستقرأ ما سيكتبه جان جونيه:

«يا لها من حفلات ومآدب فاخرة تلك التي أقيمت حيث كان الموت يبدو وكأنه يشارك في مسرّات الجنود المنتشين بالخمرة والكراهية. ولا شك أنهم كانوا منتشين أيضاً بكونهم قد نالوا إعجاب الجيش الإسرائيلي الذي كان يستمع وينظر ويشجع ويوبِّخ المترددين. إنني لم أرَ هذا

الجيش رؤية العين، غيرَ أني رأيت ما فعله. إنَّ قتلة قد أنجزوا العملية، لكن جماعات عديدة من فرق التعذيب هي، في غالب الظن، التي كانت تفتح الجماجم وتشرِّح الأفخاذ، وتنشر الأذرع والأيدي والأصابع. وهي التي كانت تَجُرّ، بالحبال، محتضرين معاقين، رجالاً ونساء كانوا لا يزالون على قيد الحياة. حفلة وحشية جرت هناك: سمر، نشوة، رقص، غناء، نداء، عويل، تأوّهات ... على شرف متفرّجين كانوا يضحكون وهم جالسون في الطابق الأخير من مستشفى عكا».

لا تستطيع اجتياز منطقة الألم، ولا الوصول إلى مصدر الكابوس، لتكون شاهداً على تقطيع جسدك والنظر عميقاً في عيني قاتلك الذي تعرفه جيداً. ولا تستطيع الكلام إلى أحد، فقد خلا العالم، خلا تماماً من الأحياء، واكتظّ بالقتلى الذين ودَّعوا أمس إخوتهم وحراسهم المبحرين على سُفُنٍ يونانية الصنع، طروادية الدلالة. لم يكمل القتلى عملاً من أعمالهم: لم ينهوا عشاءهم، ولا صلاتهم، ولا كوابيسهم.

وتجنَّبتَ البلاغة، فهي في غير موضعها ضرب من ضروب المشاركة في التعذيب. وفي السيّارة ذات الحصانة

الدبلوماسية، التي هرَّبتك من بيروت إلى دمشق، قال لك السفيرُ الليبيّ: لو عرفت جزءاً مما أَعرف، لكفرت باللغة العربية. قلت له: شكراً، وشَرَقْتَ بأحرف العلّة. لم تبك هذه المرة... لأن النار والدمع لا يجتمعان في عين واحدة وفي عبارة واحدة. وحين دخلتَ إلى حمَّام مطعمٍ على شاطىء طرابلس تغسلِ يديك، ونظرت إلى المرآة، رأيت وجهاً لا تعرفه: كان أَنفاً كبيراً يحمل نظارة طبية، ولا يشبهك!.. لكنه وجهك.

إذا كنتَ أنتَ أنا، وأنا أنتَ يا

صاحبي، فلنا موعدٌ مرجأ

في الأساطير. أيَّ طريق سنسلك؟

قلتَ: الطريقُ طريقُنا في الكلام عن الغد. قلتُ لك: الرحلة ابتدأت. قلتَ: كم مرَّةً ستقول لي: الرحلةُ ابتدأتْ؟

قلتُ: لا غد يبقى على حاله!

قلتَ: لكنه لم يصل

قلتُ: مرَّ بنا ومررنا به ذات يوم ولم ننتبه.

قلتَ: كم مرة ستقول لي الرحلةُ ابتدأت؟

قلتُ: إنَّ القصيدة ناقصةٌ...

# X

خريفُكَ هذا. فاعْتَنِ به كما يليق بشاعرٍ يُتْقِنُ الزجَّ بنفسه في الشَبَه: كم أُحبُّ الخريف. وجُرَّ المكان برَسَنِ العبارة، قبل أَن يركلك الوقتُ إلى هاويةٍ عالية. جُرَّه ... جُرَّه بكل ما فيك من نضج خسارة، وائتمانٍ على حنين يتلفت إلى خُلُوِّ الجهات من اليقين.

هذا الخريف لَكَ، ولَكَ ما تستغني عنه الأشجار من زينةٍ ورقةً ورقةً. وما من زينة لك غيرها، وأنت تتغاوى في الدخول إلى قاعات فارغة. تدقُّ البلاط دقًّاً لتُسمع نفسَكَ صوتَ خطواتك عالياً عالياً، بلا سبب. كأنَّ الوقتَ كُلَّه يومُ أَحَد ... ما من أَحد يصحو، الساعة، ليتأكد من أيِّ

شيء. وفي الضوء على الأرصفة ثقوب فضّية كحروف من لغة لم تدوَّن بعد. وفي الورد المطمئن في المربعات فرح يُحَيِّيك ويُسَلِّيك: تمهَّلْ! وتأمَّلْ في ما ينسيك المقارنة الجاهزة، وأرخِ رسن المكان قليلاً، فالذاكرة هي أيضاً في حاجة إلى ما يرتِّبُ فوضاها، دُرْجاً دُرْجاً، في هذا الخريف.

هذا خريفك من أَوَّله، ينشر رائحة منفى فائغة، ورسائلَ فارغة، فلتمْلأْها بالأصفر البُنيِّ الذهبيِّ النحاسيّ المرسل إلى اشتقاقات اللون، غير المترادفة، من أوراقٍ تأخذ وقتها الكافي في وداع الشجرة، إذ لا رِيح تهب اليوم. وأَنت، من فرط ما أنت وحيد، لا تفكِّر بالوحدة. ولأنك لم تودِّع أَحداً، من البارحة، لم تكترث لظلِّك «إن كان يمشي أمامك أم خلفك». الهواء خفيف، والأرض تبدو صلبة.

وليست تلك، كما قالوا، إحدى صفات المنفى /

هذا هو خريفُكَ الخارج من صيف حارّ، من فصل كونيٍّ الإجهاد، ومن حرب لا تظهر لها نهاية. خريفٌ يُنضِجُ عِنَبَ الجبال العالية المنسيّ. خريف يُعدُّ لاجتماعات كبرى يراجع فيها مجلس الآلهة القدامى مُسَوَّداتِ مصائرَ ما

زالت قيد التأليف، ويختلفون ويتّفقون على هُدْنَةٍ بين الصيف والشتاء. لكن خريف الشرق قصير، يمر كتلويحة يد سريعة من مسافرٍ على حصانٍ إلى مسافر على حصان في اتجاهين متعاكسين، فلا يعوِّل أَحد على خريف كهذا، على عواصفَ من غبار... وعلى زواج متعة.

أما الخريف هنا، خريف باريس العائدة من إجازتها الكبرى، فهو انكباب الطبيعة التي أَغواها المطر على كتابة أشعارها الباذخة بكل ما أُوتيتْ من مهارةٍ ونبيذ يتخمَّر. خريفٌ طويل طويل كعقد زواج كاثوليكي لا يشي بما فيه من سعادة أو شقاء لعابرٍ مثلك على المشهد. خريفٌ طويلُ البال. عناق إيروسي بين الضوء والظل والأنثى والذكر، وبين سماء تنخفض باحترام على شجر يتعرّى بكرامة، أمام التباس الغوايات بين قطرات ضوء يُمطر، وبين قطرات ماء يشعّ ويُشْرِق... خريف يتباهى. خريف يتماهى مع أوائل فصول ثلاثة: عُرْي الصيف، وجِماع الشتاء، وفتوة الربيع.

وأَنت، أنت تمشي خفيفاً على سطح هذا النهار الخريفيّ. تنتعش وترتعش وتندهش: «أَفي مثل هذا النهار يموت أَحد؟». ولا تعرف إن كنت تسكن الخريف أم هو الذي

يسكنك، حتى لو تذكرت أنك الآن في خريف العمر، حيث يُتْقِنُ العقلُ والقلب الإنصات إلى الزمن بتناغمِ التواطؤِ بين المتعة والحكمة. إيقاع نبيل يرفع الجسد إلى مرتبة الانتباه لما ينقص، فيزداد امتلاء بما يفد إليه من جماليات الصحو والغيم. ويستعدُّ، كَمَرْصَدٍ جَوّيّ، لرصد المناخ المناسب لحوار عابر: هذا النهار جميل، أليس كذلك؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نحتسي القهوة معاً؟ لرائحة القهوة أبواب تفضي إلى سفر آخر: إلى صداقة، أو حب، أو إلى ضياع لا يؤلم... فتنتقل القهوةُ من الاستعارة إلى الملموس.

إيقاع سريّ يقود التجربة إلى ذهاب أَقصى... إلى لقاء بين خريف يتنزَّه في الساحات مع الجميع، مع الناس والحمام، وبين خريفك الخاص بك، خريفك الجوّاني. وتتساءل كما تساءل غيرك: «هل نحن ما نصنع بالزمن، أم نحن ما يصنع الزمن بنا؟». لا تعنيك حيرةُ الإجابة قدر ما يعنيك تخفيف السرعة. لا تريد لهذا الخريف أن ينتهي، كما لا تريد للقصيدة أن تمتلىء فتنتهي. لا تريد بلوغ الشتاء. فليكن الخريف أبديتك الخصوصيَّة.

وليست تلك، كما يقولون، إحدى صفات المنفى! /

ليس المنفى سفراً، ذهاباً وإياباً، وليس إقامة في حنين. فقد يكون زيارة، وانتظاراً لما يفعل بك الزمن، وخروجاً من الذات إلى غيرها للتعارف والتآلف أو لعودة الذات إلى الصَدَفَة. لكلٍّ منفى طبيعةٌ ولكل منفيّ طبائع. في المنفى تدريب على التأمُّل في ما ليس لك، وإعجاب بما ليس لك. فالمنفى يهذِّب الجسد، يفتنك جمال الشكل، ولو كان المعنى ناقصاً، فالكمال هو وعي النقصان. تماثيل تمجِّد الماضي وتماثيل تتوثب للقفز عن عاطفة الهوية إلى هوية العاطفة، وتماثيل تحرِّر الغد من الجماليات وتحرِّر الطبيعة من نظام المخيلة الصارم. الجمال هو العُلُوّ. لكنك تنحاز، لأنك ريفيُّ التكوين، إلى الأشجار التي تنعكس في ماء النهر، وإلى الحمام البر ــ جَوّيّ، وتتوقف طويلاً عند سوسنة نبتت، وحدها، خارج الأحواض... لا لأنها مثلك غريبة بين الأزهار، بل لأنها تعتمد على نفسها في نموّ بلا رعاية. ألمنفى سفر الشاعر في قصيدة، سفر داخل السفر، لكن اللغة المجازية تتلفت إلى الوراء.

والنظر إلى الوراء، يقولون، صفةٌ من صفات المنفى /

إلى أَين أَعود؟ تساءلتَ وأنت تعلِّق لوحاتٍ على جدران عنوانك الجديد، وإلى أَين أذهب؟ كان الأمام مؤقتاً.

وكان الوراء الطاعن في المؤقت مُشَتَّتاً. وكانت الأبدية الطالعة مع الضوء من الحديقة تقهقه. مازَحْتَها قائلاً: أنتِ أَيضاً منفى. وتساءلت: كم من مساميرَ دَقَقْتَ على جدران بيوت أخرى؟ وكم من لوحات عَلَّقْتَ، وكم من أسرَّة هجرت لينام عليها غيرك، وكم من مُسَوَّدَاتٍ ومطالعَ نسيتَ في أدراج أخرى، وكم من صور نساء ضاعت في طيات كتب لم تقرأها. وكم مرة قلت: كم مرة أسافر، أو أهاجر، أو أرحل؟ دون أن يتضح الفارق في مصيرك بين السفر والهجرة والرحيل، من كثرة ما تتسع المفردات لوهم المترادفات، ومن فرط ما تتعرض الاستعارة للتحولات: من «وطني ليس حقيبة» إلى «وطني حقيبة».

وفي المنفى تختار حيزاً لترويض العادة، حيِّزاً خصوصياً ليومياتك، فتكتب: ليس المكان هو الفخ / في وسعنا أن نقول: لنا شارع جانبيٌّ هنا / وبريد / وبائع خبز / ومغسلة للثياب / وحانوت تبغ / وركن صغير / ورائحة تتذكَّرُ...

المدن رائحة: عكا رائحةُ اليود البحري والبهارات. حيفا رائحة الصنوبر والشراشف المجعلكة. موسكو رائحة الفودكا على الثلج. القاهرة رائحة المانجو والزنجبيل. بيروت

رائحة الشمس والبحر والدخان والليمون. باريس رائحة الخبز الطازج والأجبان ومشتقات الفتنة. دمشق رائحة الياسمين والفواكه المجففة. تونس رائحة مسك الليل والملح. الرباط رائحة الحناء والبخور والعسل. وكل مدينة لا تُعْرَفُ من رائحتها لا يُعَوَّل على ذكراها. وللمنافي رائحة مشتركة هي رائحة الحنين إلى ما عداها... رائحة تتذكر رائحة أخرى. رائحة متقطعة الأنفاس، عاطفيَّة تقودك كخارطة سياحية كثيرة الاستعمال إلى رائحة المكان الأول. الرائحة ذاكرةٌ وغروب شمس. والغروب هنا توبيخ الجمال للغريب.

وليس حُبُّ الغروب، كما يقولون، صفةً من صفات المنفى /

تُدْخِلُكَ الذاكرة، وهي متحفك الشخصيّ، في محتويات الضائع... في حقل سمسم وحوض خسّ ونعناع... وفي قرص شمس يتهاوى في دخول البحر. يكبر الضائع فيك، ويكبر في هذا الغروب الذي يضفي على البعيد صفات الفردوسِ، ويُنَقِّيه من كل سوء. فكل ما هو مفقود معبود. وهو ليس كذلك!

جُرَّ المكان إذاً برسَن العبارة، واحمله كما تحمل اسمك،

لا ظلَّك، في خيالك لا في حقيبة. الكلمات هي وحدها الـمُؤَهَّلَةُ في هذا الغروب لترميم ما انكسر من زمان ومكان، ولتسمية آلهة غفلت عنك وخاضت حروبها بأسلحة بدائية. الكلمات هي المواد الأولية لبناء بيت. الكلمات وطن!

ضع قمراً على كل صفصافة، وفتاةً على كل نافذة، وغزالاً على كل نبع. وَدَعِ القصيدةَ تبني الجهة الجنوبية من العدم. إن أوجعك المنفى ولم يقتلك أرجعك إلى مهد الخيال وقوَّاك وساواك بمن يسهرون على تدجين الغامض. والمنفى، وهو سوء تفاهم بين الوجود والحدود، هو جسرٌ لعبور الحساسية بين الصور، وهو اختبار لقدرة النرجس على الزهو والتواضع معاً، ومناظرة المختلف للمختلف، ومُجَانَبَةُ الشبيه للشبيه. فليس كل ما ينبذك هنا يحتضنك هناك. وليس كل ما تشبهه هناك يحتضنك هنا. فدع للخيال ما للخيال: حرية الكلمات في إِطاعة العواطف.

لكن إعلان العاطفة ــ يقولون ــ ليس من صفات المنفى /

فلتصقل المسافة بكفاءة المحترف الماهر، لا بهشاشة المشتاق الحائر، فليس شعر المنفى ما يقول لك المنفى، بل ما تقول

له أَنت، ندّاً لندّ. المنفى هو أيضاً مضياف الاختلاف والائتلاف. فلتصنع نفسك من نفسك. ولا تنس أن تشكر المنفى بشهامة: سأمدحك، أيها المنفى، حيث يليق بك المديح. هناك... تحت شجرة التين التي تستضيفني، عند بيت أمي، عابراً في خريف عابر!

# XI

عاديٌّ يومك. الغيم رماديٌّ يهمل ما تقرأ عليه وما تكتب من خواطر، ويكمل جملةً موسيقية بعيدة بعيدة في مكان ما وزمان ما. تشعل الضوء صباحاً لترى القاموس الذي تفتحه عشوائياً على كلمة ما تُجْرِي عليها تدريبك الذهنيّ. ويفرحك أن تعرف أنك لا تعرف. تصحِّح أخطاءك اللغوية، والماء يغلي في المطبخ. تضع القاموس جانباً، وتمشي إلى المطبخ. تشرب كأساً من عصير البرتقال البارد. يُنعشك السكريُّ الحامض، وتحس بتيّار عافية يسري في العضلات وفي المعنويات. تصنع قهوتك طبقاً لتقاليدك الصارمة، ولتعاليم ديك الهال. تعود إلى القاموس وتحفظ أبياتاً من الشعر مصاحبة لتنوع استخدام

الكلمة. تتجه نحو الباب فلا ينفتح. تنسى أنك قد سحبت المفتاح من القفل ووضعته على الطاولة. فأنت تفعل ذلك منذ فترة طويلة، منذ مات صاحبك في غرفة مغلقة: تبقي القفل جاهزاً لاستقبال مفتاح آخر تحتفظ به مُدبِّرة المنزل التي تأتي في منتصف النهار. فقد تموت ولا ينفتح الباب، فتبقى أنت والموت وحيدين في الداخل. يا لها من خاطرة خبيثة: تريد أن تتزوج من امرأة لا وظيفة لها إلّا إعلان موتك! يا لها من أنانية! ويا له من حُبّ يزفُّ النعي للنعي. تشرب فنجان قهوة آخر. ثم تجمع البريد الملقى خلف الباب. تفضّ الرسائل على عجل: فاتورة الهاتف، ضريبة التلفزيون، أجرة الشقة، فاتورة الكهرباء، إعلان عن موسم تنزيلات للسجاد الفارسي، إعلانات عن تخفيض في أسعار السفر إلى جزر نائية، ودعوات إلى مزاد علني لأثاث من عصر لويس الرابع عشر، وإلى معرض مجوهرات. تبتسم: لا شيء يعنيني. ثم تدير زرّ الراديو لتستمع إلى نشرة الأخبار: ثلوج ومنزلقات، ثلوج وإضرابات، ثلوج وموتى من المسنين. لا ثلج في شرق المتوسط، فلا خبر. تغلق الراديو وتمضي إلى الحمّام. تحدِّق إلى وجهك في المرآة: لا جديد سوى ارتفاع السخرية إلى الحاجبين. لا عدوّ أقوى من الزمن، ولا خصم لك أنبل من المرآة. كان الزمن، فيما مضى،

يمضي بطيئاً كنملة. وكنا نستحثّه: عجّل بنا! فلنا موعد بعد ساعة، فلا تستجيب عقارب الساعة لخرير دمنا الساخن. كان الزمن كسولاً كتلميذ خامل، ثقيلاً كأستاذ. كان يحرِّضنا على التأفُّف من بطء الغد، ولا يمحضنا نظرة إلى الماضي، إذ لم يكن للفُتوَّة ماض بعد. وما أن أتقنّا قراءة الكتب الصعبة، ودخلنا في التجربة، حتى تحوَّلت حكمةً مطبوخةً في قِدْر الزمن، مطبوخةً كوعل بريّ يحتاج إلى توابل يمنعنا الأطباء من تناولها، فقد تأخَّرْنا عن الوصول إلى الوليمة في موعدها الصحيِّ، ودخلنا في سباق غير متكافىء مع الزمن الذي يقود مركبته الفضائية بأقصى سرعة. وصرنا نستمهله: أيها الزمن انتظرنا! فلنا موعد بعد شهر، فلا تسرع... لا وقت كافياً لنا لانتقاء الكلمات اللائقة بالمرأة الناضجة ولحجز مقعدين في الأوبرا، والتأكد من أنَّ أَحداً لن يُقْتَلَ نيابةً عنا، من فرط الشبه بين المارة على الليل، ولا وقت كافياً لنا لمراجعة ضرورية لأسماء العاطفة في موسوعة المترادفات. ونقول للزمن أيضاً: لا تلتهمنا قبل أن نعبر النهر وننظر من الضفة الثانية إلى المقاعد الخشبية التي تركناها خلفنا، على الضفة الأولى، نظيفةً لاستقبال عشاق آخرين سينظرون إلينا ونحن ننظر إليهم قائلين: كانوا مثلنا، فهل نصير مثلهم. تحدِّق إلى وجهك في

المرآة. تضع عليه رغوة الصابون وتشرع في الحلاقة. تبدأ من الجانب الأيسر، من أسفل السالف نزولاً إلى الذقن، ثم من تحت إلى فوق. تفتح حنفية الماء الساخن لتنظيف ماكنة الحلاقة، وتباشر العملية ذاتها في الجانب الأيمن. تواجه صعوبة في حلاقة العَنْفَقَة والسامِغَيْن. وكالعادة تسيل قطرات من الدم، فتضغط على الجرح الصغير بإبهامك، ثم تنظر إلى المرآة برضا مَنْ يتناسى مخاتلة الزمن. تتعرّى، تغطس في حوض الماء الساخن، تداعب فقاعات الصابون والرغوة الملونة كقوس قزح ذائب. تفرك أعضاءك عضواً عضواً بعناية فائقة، كأنك أمّ تُحمِّم طفلها. ويحلو لك أن تغنّي، فينقِّحُ الصدى نشاز اللحن وتطرب... وتعجب من ارتباط الماء بالغناء، صوت الماء إيقاع. ولعلَّ الموسيقى هي انتظام قطرات الماء في روح تتجلّى بيد العازف على آلات مصنوعة من مادة مائية عاطفية. تدلف إلى غرفة النوم. تفتح خزانة الثياب. ترتدي ملابسك الداخلية البيضاء، ثم قميصاً أزرق وبنطلوناً كحلياً وجوربين كحليين [لا تميّز بين الكحلي والأسود] وتنتعل حذاء أَنيقاً أسود [الأناقة تبدأ من الحذاء]، وتمضي إلى موعدك الصباحي... إلى الغامض، إلى الهواية التي صارت حرفة، والحرفة التي ظلَّت هواية. فنجان القهوة على يسار المكتب، وعلبة الأقلام على يمينه قرب دواة

الحبر الأسود. وفي الوسط أوراق بيضاء ملأى بكتابة بيضاء. تناديك وتناديها، وفيها ما فيها من ذاكرة السابقين المتخفّية. وأنت وحدك بلا معين وبلا ضمان، تحاول أن تعثر على سطرك الخاص بك في هذا الزحام الأبيض الممتد ما بين الكتابة والكلام. لم تعد تسأل: ماذا أكتب، بل كيف أكتب؟ تستدعي حلماً فيفرُّ من الصورة، وتناشد معنى فيضيق به الإيقاع. وفي ظنك أنك قد تخطَّيتَ العتبة الفاصلة بين الأفق والهاوية، وتدرَّبت على فتح الاستعارة لغياب يحضر ولحضور يغيب بتلقائية تبدو مطيعة. وتعرف أن المعنى في الشعر يتكوّن من حركة المعنى في إيقاع يتطلع فيه النثر إلى رعوية الشعر، ويتطلع فيه الشعر إلى أرستقراطية النثر. «خذني إلى ما لستُ أعرف من صفات النهر.. خذني». جملة موسيقية كهذه تشق طريقها في مجرى الكلام، جنيناً يتكون، ويكوِّن ملامح صوت ووعداً بقصيدة. لكنها في حاجة إلى فكر يقودها وتقوده في مناخ الإمكانيات المفتوحة، وإلى أرض تحملها وإلى قلق وجودي وإلى تاريخ أو أسطورة. ألسطر الأول هو ما سمّاه الحائرون، إزاء مصدره، الإلهامَ أو الإشراق. والباقي عليك وحدك. عليك أن تجد الباقي وعناصر البناء الكفيلة بصب الشعر، شعر الحياة، في نظام القصيدة. فمنذ هبط عليك السطر الأول أصبحت أنت

الصانع الماهر والشاعر إن حالفك الحظ وأدركت الخطأ. أليس الشعر محاولة ما لإصلاح خطأ؟ تترك المكتب مطمئناً إلى أن صباح الغد سيوفر لك عملاً ما دام السطر الأول في انتظارك. تتناول وجبة الغداء مع كأس النبيذ، على وقع جيتارات جُنَّت على طريق الأندلس. ويعجبك أَن تظن أَن الغيم الرماديَّ ذاكرةُ موسيقى متخفيَّة. تتمدَّد في القيلولة نصف ساعة لا أكثر، نصف ساعة تكسر روتين النهار وتهدّىء دقات القلب. تستيقظ نشيطاً بعدها، وتقضم تفَّاحة أَو أجاصة على عجل، وتذهب إلى موعدك بعد الظهر. تصل دائماً قبل الوقت بعشر دقائق. تختار مقعداً قرب الحائط الزجاجيِّ في مقهى غير مزدحم. تتصفَّح الجرائد التي لا تقرأها في الصباح. تنظر إلى الساحة المزدحمة بالمشاة والطيور الجريئة. تتأمل مشي النساء: منهنَّ مَنْ تمايلت، ومنهن مَنْ تثاقلتْ، ومنهنَّ مَنْ تَهَادَتْ، ومنهنَّ مَنْ تمادت في إيقاظ البرق بين الساق والساق. ثم تتلهَّى بالنظر إلى أشجار الجوز الباسقة السامقة تتشرَّب قطرات الضوء. وتحسُّ بيد تربِّت على كتفك. تعانق صاحبك النحّات الذي يهدِّدك: هذه آخر مرة أرشِّحُكَ فيها للخلود. تضحك من تواضعه ومن الخلود معاً: أَلم أَقل لك إن الخلود عَلَف الحمار المُفَكِّر، وَرِشْوَةٌ يعرضها الماكرُ على تاريخ أمكر؟ يتدخل النادل

وهو يضع فنجان القهوة: الخلود ورقة يانصيب رابحةٌ مات صاحبها قبل إعلان النتيجة بدقائق. يسألك النحّات: لماذا ترفض أن أصنع لك تمثالاً صغيراً تضعه إلى جانب ألبوم الصور. تقول له: ليس عندي ألبوم صور ولا أَرشيف. يسأل بدهش: وإن متّ فأين سيجدونك. تقول: في قبري. يلحّ بالسؤال: لماذا ترفض التمثال؟ تقول: لأني أريد أن أتحرّك .... أن أمدَّ يدي لأكشّ الذباب عن وجهي، وأن أمدّ لساني ساخراً، وأن أُنْزل رِجْلي إلى الشارع. يقول: ثق بي، سأجعل الحركة مرئيَّة. تقول: ولا أُريد أن يكسرني أَحد. أنا من يفعل ذلك. والتمثال غير قادر على النقد الذاتي. يقول لك: أنت إذاً حمار. تقول: كخلودك هذا. تفترقان بمودّة. تعود إلى شُقّتك ماشياً لا على أربع، لأنك لست حماراً. تبحث في التلفزيون عن مباراة كرة قدم، وعن فيلم بالأسود والأبيض، ولا تجد. تنتظر مكالمة من امرأة غضبت منك لأنها اختلفت معك على تعريف الحب. تقرأ حتى منتصف الليل. ثم تضع رأسك على المخدة وتستعرض يومك: هل أسأتُ إلى أحد؟ وتنام على سطرين:

خُذْني إلى ما لَسْتُ أَعرف من صفات النهر، خذني!
خذني إليك ...

# XII

تحبُّ النوم ... اليقظةَ المغمى عليها كحالك هذا. ألنوم سيِّد وسلطان. وأَنت، نائماً، سيِّدُ نفسك وسلطانُها. حيٌّ بلا تكاليف حياة. حيّ في موت مجازي مُنْتقىً بعنايةِ ملاك، لتمرين الجسد على زيارة اللامرئيّ بهيئة اللائق باللائق. النائم لا يكبر في النوم، ولا يخاف ولا يسمع أنباء تعصر العلقم في القلب. لكنك تسأل نفسك قبل النوم: ماذا فعلتُ اليوم؟ وتنوس بين أَلم النقد ونقد الألم... وتدريجياً تصفو وتغفو في حضنك الذي يلمّك من أقاصي الأرض، ويضُمُّك كأنك أمُّك. النوم بهجة النسيان العليا. وإذا حلمت، فلأنَّ الذاكرة تذكَّرتْ ما نَسِيَتْ من الغامض.

تنام، وتعلم أنك تنام فيفرحك النوم وتمدح الكسل، صديق النوم والمواهب. ولا يهمُّك أن يُطيل النومُ عمرك، بل يهمك أن يطيل العمرُ نومَك. النوم ضيافة الأبيض على الحواس، وارتيادُ الأزرق أَرضَ المُطْلَقِ بلا مرشدين وكهنة وصوفيين. والنائمون سواسية على الرغم من اختلاف السُرُر والسرائر. لكن اليقظة هي التي تفرِّق بين النائمين، وتجرهم إلى حروبِ ما قبل النوم وبعدَه. لو نام العالَمُ أكثرَ لصارتِ الفوارقُ أَقلَّ.

وأَنت نائم تعلم أنك نائم فتتوغَّل في النوم، وتنتشي بسحابة دافئة تحتضنك وتحتضنها، طائرين بلا موعد وبلا مقصد غير هذا العناق المجانيِّ. جناحُكَ الأيسر لك وحدك، والأيمن أَيضاً. يوقظُكَ شخيرُكَ ليذكِّركَ بما أَنت فيه من لهفة إلى مزيد من الخفة: أنت نائم. قد تنسى أين أنت ومن أين أتيت ومتى وصلت، فتشعل ضوء المصباح وتعلم أنك في أرض النوم، فتشكر خفَّة الريش المباركة. وتغفو غير آبه بشعاع يتلصَّص عليك من النافذة، وغير آبه بصخب الشارع. فالنوم، معافىً، لا يُصْغِي ولا يُبْصر.

لكنك ترى النوم وتسمعه وتشم روائحه وتذوق نعماه وتلمسه عضواً عضواً، وتنام وتعلم أنك نائم، وأنك موغل

في سفر بلا طرُق وخرائط وعناوين، في نزهة منزّهة عن أية غاية. تغادر العالم، عالم الأشياء والكلمات وما يفرق بينها، ويجمع في ساعات الليل، كأن الليل سرير. وتعجب لمن جعلوا الليل نهاراً والنهار ليلاً. النوم امتلاء الجسد بالطمأنينة والسكينة، وخلوّ الذهن من الرعب والضجر. لا ضجر في النوم ولا خطر. هو حاجة الصحو إلى غيبوبة قريبة من تشبيه الشيء بشبيهه الغائب، وتنبيه المخيلة إلى آثار الوقت السلبية فيها، إن لم نعطِّل الساعة. النوم يوقف الوقت عن العمل. ثماني ساعات، ثماني ساعات نائمة لا أَقلَّ. فإذا نَقَصَتْ لسببٍ ما، كأن يوقظها رنينُ الهاتف أو جرس الباب، كان صَحْوُكَ دائخاً ومشوباً بالكمد. كأنَّ الأرق الذي لم يُصِبْكَ في الليل قد أمسك بتلابيب النهار كلِّه.

كم كُنْتَ تمقت الأرق! لأنه يستعصي على المحاورة، عنيد شديد المراوغة سعيد بقدرته على المناورة. كلما جامَلْتَهُ ازداد ثرثرة واستبسالاً على وهن الجسد العاجز عن شرف المقاومة أو راحةِ الاستسلام، واستعان عليه، ليذلَّهُ، بتسليط الوعي على الحواس. الأرق ضَيْفٌ ثقيل يحلّ عليك بلا موعد. يحرمك من النوم ومن اليقظة معاً. الأرق طنين بعوضة، وصراع خفيّ على لحاف ومخدّة

وركبتين. وأَنت الذي تُقْتَلعُ عُنْوةً من جسدك، وتُعادُ إلى جسدك الأول مُخَدَّراً مُسَهَّداً لا تجد وصفاً لعذاب الخَدَر إذا ما طال وصحا. والنوم، إذا تدخّل الأرق لا يُفاوَض، كالوحي لا يُفاوَض، وكأيّ عضو يأبى الاستجابة لا يُفَاوَض.

تحاول أن تنتشل جسدك العالق بين النعاس واليقظة، فتضغط على زر الضوء بصعوبة. وبصعوبة تفتح كتاباً، وبصعوبة تقرأ، وبسهولة تنسى ما قرأت. تحاول أن تحلم يقظاً، أن تحلم بأنك نائم، فتنام وتعلم أنك نائم... ولا تحلم كثيراً. منذ متى لا تحلم كثيراً؟ منذ وَضَعْتَ قلماً ودفتراً على طرف النوم لتدوِّن أطراف كلام خفيف الوزن خفيف اللحن، يهبط عليك كحبيبات الندى، لا هو شعر ولا هو نثر، لا أَرضيّ ولا سماويّ. لكنه يطير بك وتطير به، فتصفو وتخفّ وتشفّ، وتفنى في معنى لا تفهمه. تستيقظ في الصباح مرحاً فرحاً كأنك تتمّم ما هبط عليك من نداء لا تتذكر منه إلّا الرعشة التي تَمُدُّكَ بطاقةِ إنشاد، فتدرك أن يومك هو امتداد حلمك... فاعرف ــ قُلْتَ لنفسك ــ كيف تحلم.

ومنذ نصبت القلم والدفتر شرَكاً لاصطياد الحلم جفل

الحلم من التدوين، ربما لأنه لا يرغب في أن يُكْتَبَ أو يُطْلَبَ عند الحاجة، فلا تنتظِرْهُ كما تنتظر الوحي. سيأتي هو السيِّد كما يأتي الحب بلا استئذان. سيأتي هو السيِّد، حين لا تنتظره، شفّافاً لتعرف أنك نائم لا ميت. وقد يأخذ بيدك كي تمشي معه في جولة تتفقَّد فيها آثار نفسك المنسية على أرض بعيدة. تقول: أنا هو، وهو الظلّ... وتركض في ذكراك. وحين يراك الحلم على وشك الانتباه إلى خارطة الذاكرة يعيرك أحد جناحيه، ويقلع بك إلى بساتين برتقال مُعَلَّقةٍ فوق الغيوم، وإلى طيور لا تعرفها، لكنها تخاطبك بمنطقها الذي تفهمه دون مكابدة... فتولد من ذاتك ذاتٌ أخرى أعلى، وتحتضن الكون ويحتضنك الكون، فَيَصير داخِلُك خارجَك، وخارجُك داخلَك. وتقول: أنا هو أنا!

تصحو في الصباح مُبلَّلاً بندى يرشح من عناق الليل والنهار، وتسير إلى الغد الذي فتحه لك الحلم بكلمات مبهمة، تأخذك إلى أعلى وأَبعد من هذا القاع. فاذهب معها... مع الكلمات، والعب بها لعبة البراءة والقَصْد. واكتب بها ما فاتك من أسماء، وتوقاً إلى طيران يجعل الأرض أكثر استدارة، تُفَّاحةً تسقط إلى فوق، وتدور على نفسها ويدور الزمان معها، فليس كل ما كان سيكون،

وليس كل ما سيكون كان. فلا تثريب عليك إذا حدث خلل طارئ في هبوط الحلم عليك. فهو مثلي ومثلك يصاب بالحُمَّى، فيهذي مثلنا بكلمات تحتكّ بكلمات لا تنتج عبارة، ويتواصل اللامعنى مع ارتفاع الحرارة.

ويأخذك الكابوسُ إلى مرتفع يُطِلُّ على مرتفعٍ بينهما هاوية لا يبلغ البصر قرارها. تحاول القفز من المرتفع إلى المرتفع فتسقط في الهاوية وتصحو على صراخك المبلَّل بالعرق. ويأخذك الكابوس إلى احتفال رسمي. وحين تصعد إلى المنصة تجد نفسك حافياً عارياً دون أن تتمكّن من النزول عن المنصة. ويأخذك الكابوس إلى امتحان في قواعد اللغة الصينية. لكنه لم يأخذك مرة واحدة إلى موت أكيد وإلى زواج طويل.

لكنك تحبُّ النوم. وتُحَيِّي هيبنوس، إلٰه النوم الإغريقي، وتنسى أَنه شقيق الموت. تحبُّ النوم... اليقظة المغمى عليها كحالك هذا، دون أن تعلم أن نومك هذا قد زاد عن حدِّه. ودون أن تعلم، هذه المرة، أنك نائم!

طال نومُكَ، فانهضْ وحُلْمَكَ، وآْروِ لنا ما رأيت /

هل رأيت ملائكةً يعزفون على الناي ألحان موزارت / ولا يسكرون من الخمر؟ /

هل دَلَّلوك وهل أطعموك من العنب السُكَّريّ؟ /

وهل أخذوك إلى نزهة في ضواحي البساتين؟ /

هل كُنْتَ تشبههم عندما أنزلوك إلى النهر، طفلاً، كما كنت أيَّام رفقتهم؟ /

مَنْ تغيَّر منكم هناك، ومن قال: يا صاحبي في الطفولة؟ /

هل يشبه التينُ تينَ سياجك؟ /

هل يشبه الحُلْمُ، حلمك، أشياءَ بيضاء، خضراء، زرقاء تعرفها؟ /

طال نومك، فانهض وحُلْمَك، وارو لنا ما رأيت؟

«هل الموتُ نومٌ طويلٌ، أم النوم موت قصير؟» تأخرت في النوم... فانهضْ!

# XIII

في نوملكَ هذا ذكرى نومٍ آخر أَحملها الآن بدلاً منك: اخترقَ خنجرٌ صدرَك، فصرختَ: في أيِّ قلبٍ أُصبتُ؟ لم تسمع أَحداً يذكِّرك بأن لك قلباً واحداً، فقد أُغمي عليك في ليل ڤيينا البارد. وعشتَ، لأن يداً إلٰهيَّةً أَسْعَفَتْكَ. فلماذا لا تنهض الآن وتسألني: في أَيِّ قلب أُصبت! فأكذب عليك: من القلب المحفور على جذع شجرة!

نومٌ أبيض. نومٌ باهرٌ كان يحملك كريشة على غيوم بيضاء... تخرج من جسدك وتسبح ذرَّةً من ذرات الكون. تخرج من نفسك ولا تدخل في شكل. تسبح

كما لو كنت تطير، وتطير كما لو كُنْتَ تسبح... خفيفاً شفيفاً كأنَّك روحُك، خالياً من الماضي وخاوياً من الحاضر، مُفْرَغاً من الزمن والعاطفة. فلا أنت شيء ولا أَنت لا شيء. لكنك ترى كما لم تَرَ من قبل. ترى الضوءَ أَبيضَ والغيمَ أَبيضَ والهواءَ أَبيضَ. ولا تسأل أَين أنت. لا أَحد حولك ولا تريد أَن تعرف إلى أَين تطير ولا تخاف الطيران. كأنك صِفَةٌ من صفات المسرَّة الكبرى منثورٌ على قطن الراحة الأبدية. لا تخشى السقوط من علٍ، ولا تخشى الصعود إلى أَعلى، فلا انخفاض ولا عُلُوّ في اللامكان الدائريّ هذا. لا تُشبه نجمةً خرجت عن مسارها وظلَّت تدور في المجرَّة. ولا تتذكر متى خرجت من جسدك لأنك لا تتذكر أنك كنت في جسد. اجْتَزْتَ نفقاً ضيِّقاً نقَّطك كقطرة ماء، في الأفق. هكذا خُلِقْتَ قبلك في هذا الفضاء الأبيض المنعش. وعُدْتَ إلى أوَّلك. تنام ولا تعلم أنك نائم ولا تحلم، كأن الحلم هو اختراع المحرومين من السكنى في مثل هذه السماء. كأنك روحُكَ وقد أُعْتقتْ من أَسر الزمن والشكل، وهامت وحامت وقامت إلى لا مستقرّ.

ثم صرخت، صرختَ فجأة حين عُدْتَ إلى جسد مربوط بأسلاكٍ وأَجهزة في غرفة رمادية. أَين أَنا؟ سألتَ، فنهَوك

عن الكلام. وعلمت فيما بعد أَن صرخة الألم كانت دليلَ عودتك إلى الحياة التي تبدأ وتنتهي بصرخة. وسألت: أَين كنتُ إذاً؟ فقيل لك إن الموت قد اختطفك لمدة دقيقة ونصف الدقيقة، وأن صدمة كهربائية قد أَعادتك إلى الحياة. وفكرت: هل كان الموت جميلاً ومريحاً إلى هذا الحدّ؟ لا. ليس هذا موتاً. إنه حياة من نوع آخر. إنه نوم مُعافىً. نوم كُلّيٌّ الهناءة. وأدركت ما لم تدرك من قبل: أدركت أن الموت لا يوجع الموتى، بل يوجع الأحياء. وفي غرفة العناية الفائقة أذن لنا الأطباء بأن نحتفل بعيد ميلادك.

فاصرُخْ، يا صاحبي، لأعرف أنك حيّ. واسألني لأكذب عليك: أنا حيّ مثلك. ناجٍ من حادثةِ حياةٍ يذكّرنا الموت بمعناها فنحياها بفرح الذاهبين إلى نزهة... وينساها الموتُ فنحياها كما لو كانت غزواً بلا نهاية. وأَنا مثلك على هذا البرزخ: أَصرخ لأعرف أني حيّ. لكنك لا تصرخ مثلي لأعرف أنك حيّ. طالت خطبتي ولم تنهض. وعليَّ أن أنهي خطبتي لألتحق بما يُمْليه عليَّ الموتُ من واجب العزاء بمن ماتوا في هذه الساعات .... ولألتحق بما تُمْليه عليَّ الحياةُ من واجب التهنئة بمن وُلدوا في هذه الساعات. الصرخة هي الصرخة في البابين: باب الدخول،

وباب الخروج. أَمَّا العَدَم، فإنه يكتفي ببلاغة الوعيد من بعيد.

ومن بعيد تجيء القصائد. أشبهُكَ ولا أكونُكَ. وأكونُكَ ولا أشبهُكَ.

وفي نومك هذا ذكرى نوم آخر، أحملها الآن نيابة عنك. قال لنا الطبيب: ابدأوا منذ اليوم بإعداد الجنازة. لم نصدِّق، فلم نسأل: أين؟ لأنك لم تترك وصية. كانت باريس وضواحيها في هيجان الربيع. وكان الرذاذ يختلط بدموعنا. أَلم نحتفل قبل أُسبوع هنا بعيد ميلادك، حيث قُلْتَ لنا مازحاً: لعلَّه الأخير؟ ثم دخلت إلى غرفة العمليات بحماسة لم نفهمها.

تهذي. تضرب الهواء والأسلاك الطبية بيديك ورجليك، وتهذي. قيّدوك وخدروك ونوَّموا الثور الهائج فيك، وظللت تهذي.

سردابٌ كقاع بئر مهجورة. تصرخ ولا تسمع صراخك. تختنق بدخان ينشره خَلَلٌ ما في جهاز التنفس. لكنك تراه وتشمه وتختنق. يربطك مُمَرِّضان إلى صخرة وينهالان عليك ضرباً. ثم تنقلك حافلةٌ بلا سائق إلى زنزانة. تصرخ

ولا تسمع صراخك. ترى إلى نفسك تمشي عارياً في الشارع. تحاول أن تغطّي عورتك بيدك فتسقط منك يدك. يتناولها أَحد الصبية ويرميك بها ضاحكاً: أَبي مجنون. تصرخ ولا يخرج منك صراخك. يسقط في رئتيك كالحجر. تنزع أَحد الأجهزة الطبية، فيرنّ جرس الإنذار. يأتيك السَّجّانُ بهراوة غليظة. تحاول أن تقول له شيئاً، فلا يخرج منك صوتك. تشير بأصابعك إلى أنك تريد ورقة وقلماً. تكتب: فقدتُ لغتي!

حين تصحو من الهلوسة وتهدأ، تعلم أنك في المستشفى، فتسأل: متى يجرون العملية الجراحية؟ يقولون لك إنها تمَّت منذ أسبوع. تواصل قراءة «باب الشمس». يزورك مؤلف الرواية وتناقشه في بعض التفاصيل وأنت صافي الذهن. وفي نهاية الزيارة تهمس له: بعد قليل، حين يتلهّى الحُرَّاس، خذني معك! هَرِّبني من هذا السجن! لا تفهم لماذا تدمع عيناه، وما إن يودِّعك ويخرج حتى تسقط ثانيةً في قاع البئر المهجورة، وتصرخ: أَخرجوني! فينهال عليك السجانون ضرباً إلى أن يُغْمى عليك.

كلما عادَكَ زائر بَدَوْتَ هادئاً في البداية. وفي نهاية الزيارة تروي قصة تعذيبك وتطلب منه التواطؤ على عملية

التهريب. لم تعرف أنك في صراع مع الموت. بل كنت تحسب أنك في صراع على الحرية ... حتى ظَنّت ليلى، ملاكك الحارس وأصدقاؤك نبيل وصبحي والياس وفاروق، أَنك قد أُصبت بالجنون، فاتصلتْ بالطبيب في ساعة متأخرة من الليل لتسأله إن كنت قد جُنِنْتَ حقاً. فَطَمْأَنَها إلى أَنَّ ما تراه هو هلوسةٌ ناتجة عن جرعات التخدير العالية قائلاً: إن لا وعيه هو الذي يقاوم الموت. ولكن استعدّوا لما هو أَسوأ! وفكرتَ فيما بعد: أيهما أسوأ، أن ينتصر عليك الموت فتطير في رحلة البياض؟ أم أن تنتصر على الموت بالجنون فتسير في شوارع الفضيحة؟

ورأيتَ الفأر الذي امترق من أمامك قبل عام، واختبأ في غرفة النوم. بحثتَ عنه في كل زاوية ومعطف وحذاء ودُرجٍ ولم تجده، فنمت في غرفة أخرى. وحين فتحتَ حقيبة الملابس في مدينة أخرى رأيتَهُ يقفز من الحقيبة ويختبىء في ما يشبه الهوس، فطلبت من إدارة الفندق استبدال الغرفة بغيرها. وحين عُدْتَ من السفر وفتحتَ الحقيبة رأيتَهُ يقفز ساخراً منك ويختبىء في المراوغة. هل يطاردك الفأر أم تطارده؟ هل هو فأر أم وسواس؟ هل تخافه أم يخافك؟. سرداب كقاع بئر مهجورة. وفأر يقفز من هذيان حُرّ إلى هذيان حُرّ. وأنتَ مشدود إلى صخرة

كصرخة مُكمَّمة: ليتني كنت هناك، في ذاك الموت الأول، غيمةً بين الغيوم. ولم يسمعك أَحد سواي.

ورأيتَ الشعراء ينصبون الفخاخ لصيد الحجل.

ورأيت الشهداء واقفين، كلٌّ على نجمته، سعداء بما قدَّموا للموتى الأحياء من أَمل.

ورأيتَ رأيتَ رأيت بلاداً يلبسها الشهداء ويرتفعون بها أَعلى منها / وَحْياً وحياً. ويعودون بها خضراءَ وزرقاء / وقاسيةً في تربية سلالتهم: موتوا لأعيش! / فلا يعتذرون ولا يَنْسَوْن وصاياهم لسلالتهم: أَنتم غَدُنا، فاحْيَوْا كي نحيا فيكم! / وأَحِبُّوا زهر الرُمّان / وزهر الليمون /. وصُبُّوا خمرتنا في عيد الحب /! فلم نجد الوقت لنشربها معكم /. عفواً! لم نجد الوقت /. فلا تَنْسَوْا أَنتم أن تجدوا الوقت لتحتفلوا بالحب /، وتنتقموا بالحب لنا ولكم! /

تصغي إليهم إصغاء المديح للإيقاع. فتقع الجرَّةُ من يد الموت وتنكسر. تلمّ الشظايا حرفاً حرفاً وتركِّب الاسم وتنطق. وتدرك ــ حين تراهم يحملون أقواس قزح بخفّة الصاعدين إلى أعلى ــ أن البطولة أَبسط من وصفها. وأن ثمة مشاريع وراءهم ــ أَمامك تتحرَّق لاشتقاق المعنى من

العبث. وتدرك، حين تسمعهم يُرَتِّلون ما لا تفهم، أن الموت مجاز غامض أمام كثافة الوضوح في هذا الممر الطويل. فتنهض من سريرك واثقاً من عافية الروح... وتزحف. تزحف على يديك ورجليك إلى الحمَّام، معتمداً على نفسك. وحين تسمع صوت الماء يخرخر في دورة المياه تعلم أنك حيّ. وتعيد الكَرَّة، لتسمع صوت الماء. الماء الماء الماء.

ألا تسمع صوت الماء الآن. إنها تمطر!

# XIV

ألحنينُ مسامرةُ الغائب للغائب، والتفات البعيد إلى البعيد. الحنين عَطَشُ النبع إلى حاملات الجرار، والعكس أَيضاً صحيح. الحنين يجرّ المسافة وراءً وراءً، كأنَّ التطلُّعَ إلى أمام، وقد سُمِّيَ أَملاً، خاطرةٌ شعرية ومغامرة. فعل المضارع حائر متردِّد، وفعل الماضي الناقص معلَّقٌ على سَرْوَةٍ وَقَفتْ خلف تلَّة، على ساقها الراسخة، والتفّت بأخضرها الداكن، وأرهفت السمع إلى صوت واحد: صوت الريح. الحنين هو صوت الريح.

وكلما توغَّلْتَ في وحدتك، كتلك الشجرة، أَخذك الحنين برفق أمومي إلى بلده المصنوع من موادَّ شفّافةٍ هشّة،

فللحنين بلد وعائلة وذوق رفيع في تصفيف الأزهار البرية. وله زمن منتقىً برعاية إلهية، زمن أسطوريّ هادىء يَنْضجُ فيه التين على مهل، وينام فيه الظَّبْيُ إلى جانب الذئب في خيال الولد الذي لم يشاهد مذبحة. ويطوف بك الحنين، كدليل جنة سياحي، في أنحاء بلاده، ويصعد بك إلى جبل كنت تأوي إليه وتتمرَّغُ في النباتات البرية، حتى تتشرَّب مسامُّ جلدك برائحة المريمية. الحنين هو الرائحة.

وللحنين فصل مُدلّل هو الشتاء. يُولَدُ من قطرات الماء الأولى على عشب يابس، فيصعِّد زفرات استغاثة أُنثوية، عطشى إلى البلل. وَعْدٌ بزفاف كونيّ هو المطر. وَعْدٌ بانفتاح المُغْلَق على جوهر، وحلولُ المطلق في ماهيّاتٍ... هو المطر.

كم من سنديانة هناك تَشْرَئِبُّ إلى اثنين: أنتَ وهي، تركضان تحت المطر، بلا مظلّة وبلا قُبَّعة، سعيدين بفضيحةٍ شريفة، سعيدين بنصف عُرْي. تركضان ولا تعرفان إلى أين، متحرّرين من الطريق ومن الهدف. تلهثان معاً من تعب لذيذ السبب. وتندسَّان في جوف سنديانة ضيِّق لا يتسع إلّا لواحد. فتلتصق بك وتلتصق بها حتى تصيرا اثنين في واحد. وتَعْتَصِرُكَ وتعتصرها فيسخن الماءُ

عليكما وفيكما وتلهثان من الدفء، ولا تحتاج الشهوة إلى ذريعة المطر الذي أدخلكما إلى مخدع السنديانة وانصرف. الحنين هو اختلاط النار في الماء.

وللحُمّى صفةٌ أخرى هي الحنين. في كل شتاء يوجعك فرح غائب، وتمشي تحت المطر واحداً في اثنين: أنتَ ومن كُنْتَهُ في شتاء آخر، فَتُفَتْفِتُ إلى نفسك كلاماً لا تفهمه لعجز الذاكرة عن استعادة العاطفة السالفة، ولقدرة الحنين على إضفاء ما لم يكن على ما كان، كأنْ تصبح الشجرة غابة، والحجر حجلة، وكأنْ تكون سعيداً في زنزانة تراها أَوسع من حديقة عامة، وكأنْ يكون الماضي واقفاً في انتظارك غداً ككلب وفيّ. الحنين يكذب ولا يتعب من الكذب لأنه يكذب بصدق. كذب الحنين مهنة. والحنين شاعر محبط يعيد كتابة القصيدة الواحدة مئات المرات. وعجوز ما زال يحبو لأنه نسي حركة الزمن وتحاشى النظر في المرآة. الحنين هو التزوير البريء للوثائق لحماية مرجعية المنفيّ من الصدأ. وهو الكِلْسُ الضروري لتلميع البيوت المهجورة.

لكن أحداً لا يحنّ إلى وجع أَو هلع وجنازة. الحنين هو اختصاص الذاكرة في تجميل ما احتجب من المشهد،

وترميم شُبَّاك سقط دون أن يصل سقوطه إلى الشارع. والحنين قَصَاصُ المنفى من المنفيّ، وخجل المنفيّ من الإعجاب بموسيقى منفى وحدائق ... فأنْ تحنَّ يعني أن لا تغتبط بشيء، هنا، إلّا على استحياء. لو كنتُ هناك ــ تقول ــ لو كنتُ هناك لكانت ضحكتي أعلى وكلامي أوضح. فالحنين هو توق الكلمات إلى حيِّزها الأول حتى لو كانت غامضة وغريبة عن الجماعة. لكنني ــ تقول لنفسك ــ أوثر الاغتراب في المنفى على الاغتراب في البيت، ففي المنفى ما يوجب ذلك.

لذلك تحنُّ في الزحام إلى نفسك، إلى خلوة للكتابة. الكتابة اقتراب واغتراب يتبادلان الماضي والحاضر. ظمأ الكلمات إلى ماء يلمع في سراب الأسطورة، وانقلاب التشبيه على المُشَبَّه، وتمويه الواقع بالصورة، بيديْ الحنين الحريريَّتَينْ تروِّض المسافة ... إذ تسقف سماءك بكواكب مستعارة، وتمضي مع امرأة أخرى، حقيقيّة، إلى غرفة دافئة، معافىً من أسباب الحُمَّى، ومن أنين متقطّع لا يكتمل. فلصوت المطر على الزجاج هياج الرغبة. ليس أكثر من هذا ليبزغ الضوء من ليل الجسد: سريرُكِ سرُّكِ / ماضيكِ يأتي غدا / على نجمةٍ لا تصيب الندى / بأذى. تلقي برأسك على ركبتيها لتستمع إلى ما يقول الجسد

الخالي من الحنين، فقد خُلِقَتْ حوّاءُ للتوِّ، وللتوِّ ولدتَ بلا ذاكرة. أنتِ غدي وحاضري ولا أمس لي ــ تقول لها. وتقول لك: أنتَ غدي وحاضري ولا أمس لي. تنامان اثنين في واحد، ولا تحلمان بما هو أكثر من هذا. لم يسأل أحد منكما الآخر عن معنى الاسم، من شدَّة ما كان مجهولكما الشهيّ عاكفاً على تأجيج الفتنة. تفتنك وتفتنها. وبعد أن تمتلكها وتمتلكك، وتمتلىء بها وتمتلىء بك، يناديك ما يناديها من أقاليم البعيد، فتحنّ هي إلى ماضيها خلف الباب، وإلى أُغنية غير أُغنيتك /

ألحنينُ إلى البداية، إلى الطريقة التي تمَّ بها إيلاج المفتاح في قفل الباب. وإخفاء النظرة عن غايتها. واختيار المقعد وموسيقى الليل بعفوية مُتَمَرِّسة ــ هو التمرين العاطفيّ على جسِّ نبض الكون. وهو، أي ذاك الحنين، استرجاعٌ للفصل الأجمل في الحكاية: الفصل الأول المُرْتَجَل بكفاءة البديهة.

هكذا يُولَدُ الحنين من كل حادثة جميلة، ولا يُولَدُ من جرح. فليس الحنين ذكرى، بل هو ما ينتقى من متحف الذاكرة. الحنين انتقائيٌّ كبستاني ماهر، وهو تكرار للذكرى وقد صُفِّيتْ من الشوائب. وللحنين أعراضٌ

جانبيَّة من بينها: إدمانُ الخيال النظرَ إلى الوراء، والـحَرَجُ من رفع الكلفة مع الممكن، والإفراط في تحويل الحاضر إلى ماض، حتى في الحبِّ: تعالي معي لنصنع الليلة ماضياً مشتركاً ــ يقول المريض بالحنين. سآتي مَعَكَ لنصنع غداً مشتركاً ــ تقول المصابة بالحبّ. هي لا تحبُّ الماضي وتريد نسيان الحرب التي انتهت. وهو يخاف الغد لأن الحرب لم تنته، ولأنه لا يريد أن يكبر أكثر.

الحنين ندبة في القلب، وبصمة بلد على جسد. لكن لا أحد يحنُّ إلى جرحه، لا أحد يحن إلى وجع أو كابوس، بل يحنُّ إلى ما قبله، إلى زمن لا ألم فيه سوى ألم الملذات الأولى التي تذوّب الوقت كقطعة سكّر في فنجان شاي، إلى زمن فردوسيّ الصورة. والحنين نداء الناي للناي لترميم الجهة التي كسرتها حوافرُ الخيل في حملة عسكرية. هو المرض المتقطِّع الذي لا يُعْدِي ولا يُميت، حتى لو اتخذ شكل الوباء الجمعيّ. هو دعوةٌ للسهر مع الوحيد، وذريعةُ العجز عن المساواة مع ركّاب قطار يعرفون عناوينهم جيداً. وهو ما يُجمع لأحلام الغرباء من مواد مصنوعة من شفافية اللاشيء الجميل، ويُحمِّص لهم بُنَّ اليقظة.

ونادراً ما يأتي صباحاً. ونادراً ما يتدخل في حديث عابر مع سائق تاكسي. ونادراً ما يتطفل على قاعة مؤتمر، أو على الموعد الأول بين أُنثى وذكر... هو زائر المساء، حين تبحث عن آثارك في ما حولك ولا تجدها، حين يحطّ على الشرفة دوريٌّ يبدو لك أنه رسالة من بلد لم تحبَّه وأَنت فيه، كما تحبُّه الآن وهو فيك. كان معطىً وشجرة وصخرة، وصار عناوين روح وفكرة، وجمرةً في اللغة. كان هواء وتراباً وماءً، وصار إلى قصيدة.

أَلحنين أنينُ الحقّ العاجز عن الإتيان بالبرهان على قوة الحق أمام حق القوة المتمادية... أَنين البيوت المدفونة تحت المستعمرات، يورثه الغائب للغائب، والحاضر للغائب، مع قطرة الحليب الأولى، في المهاجر والمخيمات. الحنين صوت الحرير الصاعد من التوت إلى مَنْ يحن إليه في أنين متبادل. هو اندماج الغريزة بالوعي وباللاوعي.. وشكوى الزمن المفقود من ساديَّة الحاضر.

الحنين وَجَعٌ لا يحنُّ إلى وَجَع. هو الوجع الذي يسبِّبه الهواءُ النقيُّ القادمُ من أعالي جبل بعيد، وجع البحث عن فرح سابق. لكنه وجع من نوع صحيّ، لأنه يذكرنا بأننا مرضى بالأمل... وعاطفيون!

# XV

ألـحُبُّ كالمعاني على قارعة الطريق. لكنه كالشعر صعب، تعوزه الموهبةُ والمكابدةُ والصوغُ الماهر، لكثرة ما فيه من مراتـب. لا يكـفي أَن تحبّ ــ فذلك فِعْلٌ من أفعال الطبيعة السحرية، كهطول المطر واشتعال البرق، يأخذكَ منكَ إلى مدار الآخر لتتدبّر أَمرك بنفسك. لا يكفي أن تحبّ، بل عليك أن تعرف كيف تحبّ. فهل عرفت؟ لم تستطع الإجابة لأنك لا تستطيع استعادة الرعشات التي هزَّتك وبعثرتك على نزوات الليلك، وكَهْرَبَتْكَ وعَذبتكَ بمذاق العسل الحارق. ولا تستطيع استرجاع أكثر أطوار الموت عذوبةً وحياةً، حيث غادَرَتْكَ «أنا» ك إلى أنثاك لملاقاة نفسك الطازجة فيها كالثمرة الناضجة.

تلك اللحظات، حين تَسْترجعها الكلمات، عصيَّةٌ على رفع الجسد إلى مقام الروح. من منَّا لم يقل لأُنثاهُ: «لا وجود لي إلّا فيك» وكنا صادقين؟. وكنا صادقين أيضاً حين وجدنا وجودنا في قول مشابه وفي مكان آخر. فهل عرفتَ كيف تحب؟ لم تستطع الإجابة، ربما لأنك لم تتبيّن أحوال الحسِّ المتنقل في الفوارق بين: الحبّ والعشق، والوَلَع والوَلَه، والهوى والجوى، والشَغَفِ والدَنَفِ، والهيام والغرام، والشَبَق والنزوة، والصبوة والشهوة، والإعجاب والانجذاب ... وغيرها من التباس الصفات على الرغبات. لكلِّ مرتبةٍ حالٌ من أحوال الجسد، ولكلِّ حالٍ من أحوال الجسد مرتبةٌ بين موت وحياة. فلا تعرف أين كنت وكيف كنت.

لكنك الآن، إذ تشرف على حياتك إشراف البحّار على خيبته من أسرار البحر التي لا تُدْرك، وتسأل: أَين مينائي؟ تحار من عودة قلبك سالماً صَلْباً كحبَّة سَفَرْجل صعبة القضم. فلماذا بكيتَ إذاً لأن العذراء لم تكن عذراء قرب الشجرة التي سَبَقَكَ إليها أَحَدُ مُرَوِّضي الريح؟ ولماذا بكيت ثانيةً لأن الثانيةَ لم تفتح لك الباب، وأنت واقف في الزمهرير مرتجفاً من الذل، لا من البرد الذي أَوقد مدفأتك؟ ولماذا بكيتَ مرَّةً ثالثةً، لأن الثالثة سافرت، دون

أن تنتبه إلى أنك كنت تعانق وسادة، لا جسداً من حرير وريش نعام؟

لا حُبَّ ــ تقول ــ لأن لا حُبَّ يشبه حباً، ولا تعريف لقوة الجاذبية التي تخلع الكائن من كيانه، فلا يسأل عن ذاته وقد اغتربت، وعن حريّته وقد اقتربت من عبوديّة مختارة: أنا لك. بخصلةِ شعرٍ طائشةٍ في الريح تنتقل الجبال من أمكنتها. وبشفتين مفتوحتين تنضج بساتينُ الكرز في غير أوانها. وبكلمة لا معنى لها يُنصِّبك التأويلُ ملكاً على عرش الهباء.

وأَنتَ، أنتَ الممسوس بتيَّار كهرباء تسير على غير هدى، على أَثر ما يتساقط من أوراقك، تدور بك العاصفة والعاطفة، وتدور بهما، ولا تدري إن كنت حزيناً أم فرحاً لأن الالتباس الذي أنت فيه هو الإحساس بخفَّة الأرض وبغلبة القلب على المعرفة. وستدرك فيما بعد أن الحب، حُبَّك، هو أَوَّلهُ. في أَوَّل الحب، تكون معدَّاً، كآلة موسيقية، لإطاعة الهواء في ما يملي عليك من تأليف: كل نسمة نغمة، وكل سكون صلاةُ شكر. وتكون مُعَدَّاً أَيضاً لاستطلاع ليليّ لكُلّ نأمة تفد إليك من ديار النجمة. فأَطِلْ هذا الأوَّل، أوَّل الحب، ليمتثل الخيال لك امتثال

الفرَس للفارس، ولتغزوك اللغة وتغزوها كرجل وامرأة يتسابقان على استضافة المجهول بكرم الطاعة المتبادلة.

في أول الحبِّ تنهمرُ عليك المطالعُ، زرقاءَ زرقاءَ. وفي أوج الحب تحياه، وينساك وتنساه ويُنْسيك المطالع. وفي آخر الحب تطيل النظر إلى الساعة. وفي الغياب تعثر المطالع على المواجع المترسبة في خُلوّ الغرفة من كأس النبيذ الثانية، ومن شال أزرق، فتمتلىء القصيدة بما ينقصها. وحين تكملها بنقصان مفتوح على أخرى، تبرأ من ذكرى ومن ندم ولا يصدأ فيك الذهب. كأن الكتابة، كالحب، بنتُ السحابة إن أمْسَكتَ بها ذابت. وكأنَّ العبارة لا تتحفَّز إلّا لتعويض خسارة. فتتجلَّى صورة الحب هناك: في غياب كثيف الحضور.

وحين تخرج من نفسك، كأنَّكَ أنتَ، وتنظر إليك من بعيد كأنك هُوَ: واقفاً تحت المطر، على شارع مزدحم بالمارة، وفي يدك باقة ورد أحمر، لا تشعر بالبرد، بل بسخريةٍ من وقفتك الزائغة. وتتساءل: هل كان حُبّاً أم شهوة، هل كان عشقاً أم شبقاً؟ وتنسى شعورك ... تنساه ولا تبحث عنه، فلا تتألم ولا تندم، بل تكتفي بالسلام عليه، عن بعد، وهو ينتقل إلى ذكرى بعيدة لا تُؤَرِّق،

ذكرى تتحكَّم بها كما تتحكَّم بجهاز الفيديو: تَضَعُ النهايةَ في البداية، أو تثبّتُ الصورةَ على ضرورات القلب المتقلِّب.

وتضحك خجلاً من كلام تمادى في مديح الشبق حتى احترق: يبدأ من القدمين المنحوتتين بقطعة شمس، فإلى أعلى يلمع البرق من ساقين مسكوبتين بقلق المهارات، فأعلى إلى الرُكْبَتَيْنِ الـمُصَنَّفَتَيـنْ كمعجزتين، فإلى أعلى: البطن ـــ الموج في حالة جَزْر، فأعلى: يبدأ الغروب تدريجياً بامتصاصك بنَهَمٍ نبيلٍ خَفِر، فتُقْبل وتُدْبِرُ وتعلو وتهبط وتعرق وتشهق وتغرق في ليل ساخن العتمة فاتن. يداك أو يداها ـــ لا تدري ـــ تلمّانك وتحملانك كنسرٍ أُغمي عليه في فضاء يدلف كواكب... فتنظر إلى العينين نصف المفتوحتين على عينين نصف مغمضتين، ليتأكد كل منكما أنه ينبتُ في الآخر.

لكن أحداً لا يسكن الذروة، تسقطان دفعةً واحدة من أعلى سماء إلى نعاسٍ مبلّل بالرذاذ. تهمسان بصمت واحد، بلا شيءٍ أَوضحَ من أيِّ شيء. وتحلمان معاً، وعلى حدة، بأن يستمر هذا العناق إلى الأبد، إلى أن يتضح لكما أن لهذا الأبد عمراً قصير الأمد، وأن الأبدية لا

تنصاع إلى أحد، فهي كثيرة التداول والانتقال من لحظة إلى أخرى، ومن حالة إلى سواها.

وأَنتَ الذي لا تعرف الحب إلّا عندما تحبّ، لا تسأل ما هو ولا تبحث عنه. لكن امرأة سألتك إن كنت تحب الحب لذاته، فتملّصت وتخلصت من حيرة الجواب، وقلت: أُحبُّكِ أنتِ. فألحّتْ: ألا تُحبُّ الحب، فقلت: أحبك أنت لذاتك، فانصرفتْ عنك لأنك لا تؤتمن على غيابها. ليس الحبُّ فكرة. إنه عاطفة تسخن وتبرد وتأتي وتذهب. عاطفة تتجسَّد في شكلٍ وقوام، وله خمسُ حواسّ وأكثر. يطلع علينا أحياناً في شكل ملاكٍ ذي أجنحة خفيفة قادرة على اقتلاعنا من الأرض. ويَجْتَاحُنا أحياناً في شكل ثور يطرحنا أرضاً وينصرف. ويهبُّ أحياناً أُخرى في شكل عاصفة نتعرَّف إليها من آثارها المدمرة. وينزل علينا أحياناً في شكل ندى ليليّ حين تحلب يدٌ سحريَّةٌ غيمةً شاردة.

لكن هذه الأشكال كُلّها تجتمع في امرأة، حسية مرئية، ملموسة محسوسة، لا في فكرة. فنحبُّ الشكل الجاذب، وينكبُّ الخيال على تفحُّص ما فيه من غموض وغرائب. أما الأرواح فتتعارف وتتآلف حول الشكل المتلألىء

بالجوهر. وقد تختلف على تأويل ما يقول الجسد للجسد، فتنصرف إلى شفافية أخرى وتحلّ في أجسادٍ أكثر امتلاءً بالماء والتناغم والموسيقى. ألحبّ هو الـمُتَحَوِّلُ الـمُتَنَقِّلُ العصيُّ على الهوية. هو الانخطاف الذي يلتبس فيه الشغف مع الإشراق. هو ما لا تعرف وتعرف أنك لا تعرف. هو اكتمال المعنى باللامعنى من فرط جنوحه إلى المجانية وتبذير الحضور. وهو نقيض التكرار والإلحاح على إصلاح الهواء واللون، وإلّا صار زواجاً تحلُّ فيه صيانةُ الكلام من الزلل محلَّ الارتجال الضروريِّ لشعرٍ لا يقوم الحب إلّا عليه، فلا يصلح نثر التدبير المنزلي لإبقاء إجاصتين طازجتين على طبق المرمر، ولتحريض المجهول على إغلاق الطريق أمام المعلوم. لا بد من سرّ، لا بد من سرّ دائم، ليبقى الحب مفاجأة وهدية، فلا تفتح خزانة ثيابها الملأى بأسرار طباعها!

وإن خمد الشغف ابتعد الحب، رويداً رويداً، إلى نهار الصداقة. وتقول لها: ما أجمل الصداقة حين نشيخ معاً، وأتَّكيء عليك وتتَّكئين عليَّ، وأرحمك وترحمينني في دار العجزة حيث لا نقوى على التذكّر. لكنني أوثر أن أعتمد على عكازي، لا عليك. ولا أريد أن أرى روميو وجولييت، ولا قيساً وليلى، أمامي في أرذل العمر. للحبِّ

تاريخُ انتهاء، كما للعمر وكما للمعلّبات والأدوية. لكني أفضِّل سقوط الحب، بسكتة قلبية، في أوج الشبق والشغف، كما يسقط حصان من جبل إلى هاوية.

سألتُكَ: مَنْ هِيَ، فقلت: لا أعرفها من فرط تعدّدها في واحدة. هي ولا هي. هي وهُنَّ إذا ما اجتمعن في قصيدة حب كثيرة المصادر، تتوزَّعها ضروراتُ البحث عن تحقق ما لا يتحقق، وعن نداء يغمرنا دون أن ندرك أنه لم يصل، وعن تجدُّد العطش أمام النبع. هي ولا هي إن حضرت وإن غابت، فكأنَّ حضورَها غيابي فيها، وكأن غيابها حضورُ التفاصيل. لكنها تنتشر بعدة أسماء، فلا أدري إن كانت هي هي، أم من نساء مخيلتي ورغباتي المتبدِّلة. لذلك يبدو أنها اختراع، لأني لا أخطىء بالأسماء، فلا أنادي غيرها باسمها الذي نسيته من قلة الاستعمال.

وسألتك: لَمْ تعرفْ، إذاً، كيف تحب؟ فأدهشني قولُكَ: ما الحبُّ؟ كأنني لم أحبّ إلّا عندما كان يخيَّل لي أنني أحبّ ... كأنْ تخطفني من نافذة قطار تلويحةُ يد، ربما لم تكن مرسلة إليّ، فأوَّلتها وقبَّلتُها عن بعد... وكأَنْ أرى على مدخل دار السينما فتاةً تنتظر أَحداً، فأتخيَّل أني ذاك

الأحد، وأختار مقعدي إلى جوارها، وأراني وأراها على الشاشة في مشهد عاطفيّ، ولا يعنيني أن أَفرح أو أحزن من نهاية الفيلم. فأنا أبحث في ما بعد النهاية عنها. ولا أجدها إلى جواري منذ أنزلت الستارة.

وسألتك: هل كنت تمثِّل يا صاحبي؟

قلتَ لي: كُنْتُ أخترعُ الحب عند الضرورة / حين أسير وحيداً على ضفة النهر / أو كلما ارتفعتْ نسبة الملح في جسدي كنت أخترع النهر...

# XVI

بين الخروج والدخول زَمَنٌ مديدٌ يأذن لك بوداع المنفى بما يستحقُّ من شَجَن. لكنك لم تفهم لماذا اختبأ الدمعُ تحت سطح الكلمات، ثم طفا وطفح، وأَنتَ تودِّعُ تونس في مسرحها البلديّ.. وتودِّع الذاهبين إلى ساحة البلاد الخلفية... الخارجين من فضاء الأسطورة إلى وعاء الواقع الضيّق. أَمَلٌ ما يرشح من أفقٍ مُغْرَوْرِقٍ ببخار الرطوبة الصيفية على أَلم لم ينتبهوا إلى آثاره الجانبية. لعلَّ الفرح بالمغامرة، مغامرة اكتشاف الأرض الموعودة من جديد، هو ما أَنسى العائدين مديح قرطاج بكلام يليق ببحرها وبحسن ضيافتها.

عائدون، عائدون بلا نشيد عالٍ وبلا راية جسور، كمتسلّلين من ثُقْب جدار تارةً، وتارةً كمحتفلين بدخول بوَّابة واسعة لسجنٍ حَسَنِ التسمية، وَطَنيّ الفوضى. المهاجرون عائدون والعائدون مهاجرون. وبين الفارق والفارق بهجةُ نسيانٍ ضروريّ للشرط الذي يتحكّم بالكلمات، كما يحدث حين تنفصل الرموز عن الواقع، والتسميات عن المسميات، والألفاظ عن معانيها: عودة، استقلال، دولة، سلام، سيادة، سجّاد أحمر، وزارة، رئاسة ــ كلمات تشير إلى الشيء عن بعد ولا تعبِّر عنه ولا تشبهه. كأن الهوية العَطْشى إلى امتلاءٍ ما تمتلىء بأمنية ظنَّتها محقّقة.

سجالٌ مع الذات صامتٌ تُرْجِئُهُ فرحةُ اكتمال الدائرة على أمواج البحر، بَحْرِنا هذه المرة. وفي مخيّلة العائد من إعجاز جماليات الصور ما يُكَفِّر عن خطيئة الخروج، الإجباريِّ وشبه الإجباري معاً، وما يعوّض عن سِفْرِ الهجرة. سنرى شمسنا تشرق من شرقنا، لا من جهة المنفى. ولفواكهنا تأويلُ الذهنيّ للحسيّ:

ألتفاحةُ عضُّ الشكل، بلا عقوبة على معرفة ./

ألأجّاصَةْ نَهْدٌ مثاليٌّ التكوين لا يزيد عن راحة اليد ولا ينقص /

ألعِنَبُ نداء السُكّر: أنِ ٱعتصرني في فمك أو في الجرار ./

ألمشمشُ عودةُ الحنين إلى أصله شاحباً ./

ألبرتقالةُ فكرةٌ تضيء في الليل، وتؤكل في كل حين ./

ألتينُ انفراج الشفتين، بأصبعين، لتلقّي المعنى الإيروسيّ دُفْعةً واحدة./

ألتينُ الشوكيُّ دفاعُ العذراء عن كنزها ./

ألكَرَزُ اختصار المسافة بين شهوة العينين وصبوة الشفتين./

ألسَفَرْجَلُ مشاكسةُ الأنثى للذكر تترك غَصّةً في حلق الخائب ./

ألمانجو لعاب يسيل على لذة مرئية ./

ألفراوِلَةُ حُبَيْبَات لونٍ ليس أَحمرَ وليس غير أَحمر تحيل على فضيحة الشَبَه ./

ألتوتُ، سكّريّ اللون أو أسود، ذكرى قبلة أُولى ./

ألرمَّانُ اختباءُ الياقوت في التورية /

وكلما اقترب العائد من العودة صار هو إطارها الذي لا يمنع المشاعر من السيولة. بطولةٌ خجولةٌ تترجَّل عن صَهْوَةِ بلا فرس، وتدخل في استقبال العاديِّ للعاديِّ ... ستُقبِّل التراب وتعانق جذوع الشجر، وتقول كلاماً معصوماً من بلاغة المنتصر أو الأسير، بلاغة طوَّرها المنفى لتحسين شروط الإقامة على جسر، وللتبشير بحماية القلب الجماعي من التلف. وكلما اقترب العائد من أرض الأحلام الكبرى اغرورقت عيناه، وتلكأت خطاه لئلا يتعثر على طريق الرمل ... ونظر إلى الخلف مودِّعاً بطولةً أطاع طُقُوسَها بانضباط جنديّ ... بطولةً بعيدةً عما يجتاحه الآن من مشاعر تثيرها فيه، بلا ترتيب، قيلولةٌ مُشْتَهاةٌ تحت دالية عنب.

هل انتهت الرحلة أم بدأت؟ هل اقترب هو من المكان، أم افترق المكان عن صورته في المخيلة؟ العائد كبير السن هو المرشح للمقارنة وللحيرة في ترجيح الـمُتَخيَّل على الواقعي. أما المولود في المنفى على أوصاف نقيضه الحُسْنى، فقد تخذله جنَّةٌ صُنِعَتْ خصيصاً له، من مفردات تَشَرَّبها وصنع منها صوراً نمطيَّة، لتكون مُرْشدَهُ إلى الاختلاف. لقد ورث الذاكرة عن أهلٍ خافوا عليه من النسيان / رهان الآخرين.. وورث الذاكرة من إلحاح

الأناشيد على تمجيد الفولكلور والبندقية التي صارت هوية، منذ وُلد الوطن، بعيداً عن أرض الوطن.. ولد الوطن في المنفى. وُلد الفردوس من جحيم الغياب.

وأَنتَ، أنتَ لم تكن معهم. فيك من عمر المنفى ما فيك من عمرك في الوطن. لم تفهم لماذا بكيت في مسرح تونس، وبكى معك جمهور أُصيب بعدوى البكاء الغامض. فالدمع يُعدي كالتثاؤب. ألأنك لم تكن معهم، أم لأنك من صاغ إعلان الدولة المرجوَّة، وتعرف أن الدولة ما زالت نصاً أدبياً. وتشعر بأن الباب الذي يدلف منه العائدون لا يفضي إلى استقلال ودولة. صحيح أن الاحتلال قد خرج من غرفة النوم، لكنه يجلس في الصالون وفي سائر الغرف. يتحكَّم بحنفية الماء وزرّ الكهرباء وزرقة البحر. أليس هذا حسناً بعض الشيء؟ أليس هذا أَفضل من لا شيء؟ تصير إلى اثنين: واحد يقول نعم، وواحد يقول كلا! ولكن لِمَ كُلُّ هذا الصخب الاحتفالي الكاذب الذي يُخَدّر العالم بالصُور؟

تسمَّرت أمام التلفزيون، واتخذت هيئة المحايد في حضرة الحيرة التي أقامت حاجزاً بين العقلُ القلب. العقل يقول: إنها مسرحية فاشلة باطلة. والقلب يسأل: كيف أنجو من

سحر الإخراج؟ ألعشب أخضر، والمناخ ملائم للعيد، وسيِّد العالَم جذّاب. يقترب العدوّان اللدودان ويتصافحان: أَحدهما على مضض، والثاني بثقةٍ مَرِحَة. والجمهور المنتقى بعناية باذخة يصفِّق لانعطافة التاريخ في حديقة البيت الأبيض. لكن اللغة التي تسمعها تعيد قلبك إلى صوابه: لا، ليست هذه لغتي. فأين بلاغة الضحية التي تسترجع ذاكرة عذابها الطويل، أمام شقاء اللحظة التي ينظر فيها العدوّ في عين العدوّ ويشدُّ على يده بإلحاح؟ أين أصوات القتلى السابقين والجدد الذين يطالبون باعتذار لا من القاتل فحسب، بل من التاريخ؟ أَين حيرة المعنى في لقاء الضدّ بالضد؟ وأين الصرخة الملازمة لعملية جراحية يُبْتَرُ فيها الماضي عن الحاضر في مغامرة السير إلى غد ملتبس ... وأَين لغتي؟

أَلهذا كان ردك الشخصي هو الدفاع الشعري عن الحبكة والذاكرة؟ فكتبت أَصداء سيرة شخصية ـ جماعية، وتساءلت: لماذا تركت الحصان وحيداً؟. فماذا يستطيع الشاعر أن يفعل أمام جرّافة التاريخ غير أن يحرس شجر الطرقات القديمة ونبع الماء، المرئيَّ منه وغير المرئيّ؟ وأن يحمي اللغة من ركاكة التراجع عن خصوصيتها المجازية، ومن إفراغها من أصوات الضحايا المطالبين بحصتهم من

ذكرى الغد، على تلك الأرض التي يدور الصراع عليها إلى ما هو أَبعد من قوة السلاح: قوة الكلمات.

وانهالت عليك سهام الأسئلة المسمومة: ماذا ستكتب من دون منفى؟ وماذا ستكتب من دون احتلال؟ أَما المنفى فهو الوجود. وأما الاحتلال الموجود فهو ما يعيق فاعلية الخيال. سأكتب أفضل. لكن، لماذا لا يُوَجَّه مثلُ هذه الأسئلة إلى شعراء شعوب أخرى؟ أَلأن شرط الإبداع الفلسطيني هو العبودية، أم لأن الحرية لا تليق بإيقاعاتنا؟ وما معنى أن يكون الفلسطيني شاعراً، وما معنى أن يكون الشاعر فلسطينياً؟ الأول: أن يكون نتاجاً لتاريخ، موجوداً باللغة. والثاني: أن يكون ضحية لتاريخ، منتصراً باللغة. لكن الأول والثاني واحد لا ينقسم ولا يلتئم في آن واحد.

غزة وأريحا أولاً. وإذا كنتم أَولاداً طيّبين، فلن تكون غزة وأَريحا أخيراً... وأَخيراً سافرتَ إلى غزة. لم ترها من قبل. كتبتَ لها وعنها كما رَسَمَتْ هي صورتها: قلعة محاصرة بالبحر والنخيل والغزاة والجُمّيز. قلعة لا تسقط. غزة هي العزّةُ الـمُعتَزَّةُ باسمها الـمُسْتَفَزَّةُ، بلا انقطاع، من صمت العالم على حصارها الطويل. وعلى الطريق الطويل

من القاهرة، على رمال سيناء، لم تفلح في نقل أحاسيسك المتأرجحة إلى كلمات واضحة. كان الكلام عصيّاً على الوصول من القلب إلى اللسان، كحرف اللام الروسي الذي يصعد من البطن ويقف عند سقف الحلق.

سألت السائق: أين معين بسيسو، لماذا لم يأت معي؟ فذكّرك بأنه نام في حفرة رمل في ضاحية من ضواحي القاهرة. لم يجدوا له مكاناً في غزة. فَتَمْتَمْتَ: كُنا نبحث عن بيت، وصرنا نبحث عن قبر. آه، لو انتظر قليلاً... لو لم يسافر إلى لندن، لو لم يضع على باب غرفته في الفندق «الرجاء عدم الإزعاج» لكان مضيفي اليوم في غزة. غزة ملكيته الشخصية، ومملكته الشعرية الخاصة. كم ستبدو غزة ناقصة!

كان الغروب في العريش بطيئاً. أشعة الشمس تتمهَّل في احتضان سعف النخيل، وتتأمَّل لون النار الذي يترجَّل منها، على مَهْلٍ على مَهْل، ليُزيّنَ أمواجَ البحر المستسلمةَ إلى غزل أَبديّ، فَتُحَيّينا بنسائمِ صيفٍ رطبة، كمروحةٍ في يد ملاك متطوِّع. متى ندخل غزة؟ سألت صديقك المشغول بجمرة الأرجيلة، فقال: حين يحلُّ الليل. قلت: أريد أن أراها بكل الحواس، فابتسم: الوطن في الليل

أجمل. تمتَّع الآن بغروب الشمس في بحر العريش، فلن ترى البحر هناك كما تراه هنا... البحر هناك مُسْتَوْطَن. وكرَّر: الوطن في الليل أجمل، فتمهَّلْ تمهَّلْ! وضعت دفتر الملاحظات والتوقعات في حقيبة اليد وأغلقتها على عواطفك. بماذا تشعر؟ سألك ياسر. قلت: لقد استنزف الطريق الطويل مشاعري وتوقعاتي... لا أشعر الآن بشيء ولا أتوقَّع شيئاً. قال: هذا أفضل.

في الظلام دخلنا، أو تسلَّلنا إلى غزة. تركتُكَ تمشي أمامي، وحملتُ عنك خيالك. فلستَ بقادر على صيانته من الوقوع على صلابة الواقع. ورأيتُك تخفي وجهك عن إلحاح الكاميرات المنصوبة لالتقاط نشوة العائد، ولتصوير الكلمات المعدَّة لهجاء المنفى. قلت: أَتيتُ ولم أَصِلْ، وجئتُ ولم أَعُدْ. لم تكذب على أَحد ولا على نفسك، فالمناسبة ليست احتفالية. وغزة لم ترمِّم نفسها بعد. كان الدمار الذي تركه الاحتلال يتغلغل في أعماقك... وإذا لم تحلم بما هو أَبعد فسيهرب البحر من الصيَّادين في لغتك. في ذلك الليل المقطَّع بالحواجز والمستوطنات وأبراج المراقبة، يحتاج المرء إلى عِلْم جغرافيا جديد ليعرف الحدود الفاصلة بين الخطوة والخطوة التالية، وبين الممنوع

والمسموح، كصعوبة العثور على الغامض والواضح في اتفاقيات أوسلو.

عليك أن تنام في آخر الليل، مستعيناً بقرص مهدِّىء. وحين تصحو تحتاج إلى وقت ما لتقتنع بأنك في غزة التي سرعان ما نَعَتَّها بـ «مدينة البؤس والبأس». وفي الضحى الحار تذهب مع بعض الأصدقاء من العائدين لزيارة المخيمات. تمشون بصعوبة في الأزقة، وتخجل من الماء والنظافة. ولا تصدق، كما لم تصدِّق أبداً، أن أوعية البؤس هي الشرط الوحيد لتخليد أو تأكيد حق العودة. لكنك تتذكر ما ينبغي لك أن تنساه: ضمير العالم. وتشتم نظريات التقدم وقصدية التاريخ التي قد تعيد البشرية إلى الكهف. وتحرم نفسك، لتكون واقعياً، من مصل التفاؤل والحماسة، وتستعيض عنهُ بحبة دواء ضد ارتفاع ضغط الدم. وتقول: إذا فَكَّرْتُ بشيء آخر سأرمي بضميري إلى القطط.

تتساءل: أي داهية قانوني أو لغوي يستطيع صوغ معاهدة سلام وحسن جوار بين قصر وكوخ، بين حارس وأسير؟. وتسير في الأزقة خَجِلاً من كل شيء: من ثيابك المكوية، ومن جَماليات الشعر، ومن تجريدية الموسيقى، ومن جواز

سفر يتيح لك إمكانية السفر إلى العالم. يُصيبك وجع في الوعي. وتعود إلى غزة المتعالية على مخيماتها وعلى اللاجئين، المتوجِّسَة من العائدين، فلا تعرف في أية غزة أنت. وتقول:

أتيت ولكنني لم أَصِلْ.

وجئتُ، ولكنني لم أَعُدْ!

# XVII

على الطريق الساحليِّ، يتوثَّب قلبُكَ للقفز أمامك كَكَلْبِ صَيْد. لم تَنَمْ وإن كنتَ تحلم بالطيران كالحجل على ارتفاع منخفض. وتعلم أن لا قمة تبقى على حالها عاليةً عاليةً. فللوقت فِعْلُ النحت في الصخر، وقد تُغيِّر الأمكنةُ مواقعها إذا أُتيح للشغف أن يهبَّ على هواهُ، ويحوِّلك زَغَبةً كما أنت الآن على الطريق الساحلي الـمُصَوَّب كسهم إلى الشمال. الشمال، هل ما زال في مكانه المصنوع من جبل وبحر تَوْأَمَيْن؟

لم تنم جيداً منذ وصلت إلى رام الله من عمان قبل يومين، حيث وقفتَ على جسر اللنبي كأسيرٍ محترمٍ بين

جنود ينظرون إليك بفضول ثقيل، وينتظرون أوامر أخرى من أجهزة أَمْنٍ أخرى للتأكُّد من أنك أنتَ أنتَ، لا آخر يتقمَّصُكَ وينتحل اسمك ليجرِّب هذا الذلّ، ليكتب شعراً عن مراوغة الظل.

لم يكونوا مخطئين تماماً، فعلى هذا الجسر لا يكون المرء مَنْ كانه منذ قليل: متلهفاً إلى موعده مع أرض الحكايات الكبرى والصغرى، مُلْتَفّاً على ذاته كَمَلْفُوفَةٍ أو بَصَلَةٍ لم تُقَشَّر. هناك يُقَشِّرهُ الجنديُّ أو الجندية بلا كياسة. فلهما عليه حقُّ الأمر والنهي: اخلَعْ حذاءك. انزعْ ساعتك. فُكَّ حزامك. وانزعْ نظّارتك، وادخلْ في الجهاز. يرنُّ الجهاز وتعيد الكرّة ويرنُّ الجهاز. فتخضع للتفتيش اليدويّ ويعثرون على مصدر الرنين: إنه قلم الحبر الفاخر. يُفَكِّكُونه ولا يجدون فيه غير الحبر الأسود: في المرة القادمة أخرجْ قلم الحبر من جيبك. فتقول: في المرة القادمة لن أحمل قلماً من هذا النوع.

هناك، على الجسر الذي لا نهر تحته منذ تعرَّضتْ مصادرُ مياهه للنهب، يتقشَّفُ الحلم، وتشحُب صورةُ البلاد، ولا تكون أنتَ أنتَ. تقترب من أريحا، أريحا الواقعية لا الأسطورية. أشجار النخيل على الجانبين، وتبحث عيناك

عن «وردة أريحا» الشهيرة فلا تجدها، ولا تجد آثار الأسطورة التي صارت مملَّة من فرط ما سُرِدَتْ وشكّك بها المؤرخون. بيد أن أريحا هنا في أريحا. تصعد إلى جبل التجربة، إلى دير صغير منحوت في الصخور. هنا، جاء الشيطان إلى المسيح، الذي صام أربعين يوماً وأربعين ليلة حتى جاع.

«ثم مضى به إبليس إلى جبلٍ عالٍ جداً وعرض عليه جميع ممالك الدنيا ومجدها، وقال له: أُعطيك هذا كُلَّه إن ارتميت ساجداً لي. فقال له يسوع: إليكَ عنِّي يا شيطان، فإنه مكتوب: للّه ربك تسجدُ وإيَّاه وحده تعبُدُ. فتركه إبليس، وإذا بعض الملائكة قد دنوا منه وأَخذوا يقربون له الطعام».

تجلس في مقهى قريب، ولا تستطيع احتساء فنجان القهوة الذي ينافسك عليه الذباب. ذباب بلا نهاية. ذبابٌ سَفِيهٌ. وتستعير سؤالاً قديماً: لماذا خلق الله الذباب؟

حفنةٌ من أرضٍ عشوائية التكوين خلَّفتها هَزَّةٌ هي غضبة إله. تلال رملية نبتت كالفطر على عجل وفوضى. يخيَّل لك أن الأبدية قامت بزيارة خاطفة لِتَفَقُّدِ آثار الخوف على الراهن المحدِّق إلى هاوية فرّت منها مدرّجات لولبية. هل

وصلت الحياة إلى هنا هاربة من البحر الميت؟ ها هي تُطِلُّ بتويجاتها الصغيرة من الصخور الرمادية والسوداء، شقائق نعمان طالعةً من وحشة المكان... قليلٌ من رذاذ وضوء يكفي لتتغلّب الحياة على العدم. وقليلٌ من الأمل والزمن يكفي لتعبر شِعاب الأسطورة سالماً من مصائر أسلافك. فاقْتَبِسْ من شقائق النعمان جمال الدلالة وقل: لا شأن لي ــ وإن حاصرني الموت ــ بالعدم ./

وإن سألوكَ عن قوة الشعر قل: ليس العشبُ هَشّاً كما نرى. ولا ينكسر منذ أَخفى ظلَّه المتواضع في سرّ الأرض. وفي العشب على الصخر إعجاز الكلام النازل من غيب، بلا ضجيج وأجراس. العشبُ نبوءةٌ عفويةٌ لا نبيَّ لها إلّا لونها المضاد لليباب. ألعشب نجاة المسافر من بشاعة المنظر ومن جيش يطوِّق الطريق إلى الـمُمْكن. والعشبُ شِعْرُ البديهة السلس، الممتنع السهل والسهل الممتنع. ودُنُوُّ اللغة من المعنى واقترانُ المعنى بضيافة الأمل.

وإن سألوك: هل تغرف من بحرٍ أم تنحت في صخر؟ قل: لا يقطع في الصخر سوى إزميل الماء. وإذا سألوك عن المنازلة بين الشعر والموت، فانظر إلى العشب وقل ما لا يجانب الحقيقة: لا شعر يهزم الموت في ساعة اللقاء، لكنه

يرجئه، يرجئه إلى وقت ضروريّ لاختبار جدوى الغناء في حفلة طويلة إلى أن تكتمل الأغنية، ويقع المغنّي في قبضة قنّاصه الواقف خلف الباب، وقد لا ينتبه أحدٌ إلى موت المغني، ما دامت الأغنية قد صارت جماعية، يغنّيها الساهرون. في هذا الإرجاء، يُخَيَّل للمغنين الجدد أن الموت نام، فيَصحون في غَفْلَةٍ عنه على شقائق النعمان المرحبة بهم، كمطالعِ قصائدَ كنعانيةٍ، لم يكمل كتابتَها رعاةُ الغزلان المشغولون بمطاردة الذئاب وبنات آوى.

وعلى الطريق الساحليّ الراكض نحو الشمال، تُفْرِغُ قلبَكَ من حمولته الزائدة، ليمتلىء بمواهب المكان من شجر ورائحة وعندلة وتواشيح وتباريح. ولا يبقى في ذهنك من أوصاف الجنة غيرُ التفاتتِكَ الأخيرةِ، على الدرج الحجريّ إلى نافذةٍ نصفِ مفتوحة كنت ترى منها البحر والغروب وتغرب في العزلة: أنا والشمس صديقان حميمان / ومحرومانِ في الليل من المشي على الشارع / قد يعجبني المعنى / ولا يعجبني / لكنني أدمنت إيقاع الأغاني./

يَهُبُّ عليك هواء الحنين من ناحية البرتقال، على يمينك، ومن اليود البحريِّ على يسارك. ومن الشمال يهدِّدك الاقتراب من محتويات القلب بضبابٍ يُصَعِّبُ على

الذاكرة انتقاءَ الشخصيّ من العام. تخاف على الحاضر من سطوة الماضي، وتخاف على الماضي من عَبَثيَّة الحاضر، فلا تعرف أين تقف من هذا المفترق. هل أنتَ ما كنتَ أم أنتَ ما تكون الآن؟ وتخاف نسيان الغد في حمأة السؤال: في أيِّ زمن أنا؟

يَصُدُّكَ عما أنتَ فيه التباسٌ بين فضول السائح وشجن الزائر وفرح العائد. إن ثلاثة عقود من غياب الذات عن مكانها تجعل المكان ذاتاً يتيمة، وتجعل الذات قطعةً من أرضٍ مُتَنَقِّلَة ... قد توسِّع النشيد، ولكنها تثقب قلب المنشد فتزداد أَخطاؤه. ومن أخطائه أن يودِّع ما يرى، ولا يرى إلّا جمال السراب الواعد بالأمل. فماذا تفعل حين تصل إلى الكرمل غير أن تسأل: لماذا نزلتَ عن الكرمل؟ وفي نفسك الأمّارة بالحيرة جواب مبهم: لكي أتعلَّم المشي على طرق لا أعرفها.

وعلى الطريق الساحليِّ الساحر ظلالٌ من ماضيك، وجمالٌ متسامحٌ يغفر للغائب ما ارتكب من أخطاء، كَلَوْحَةٍ لا تبالي بمن غاب عنها وحضر. الصباحُ نظيفٌ ربيعيّ مشمشيٌّ مشمسٌ سَلِسُ التدفُّق. وفي قلبك استقبالٌ لغزو المشهد المتدرج بين اللازورد والأخضر عبر زجاج

السيارة المسرعة إلى الموعد المنقلب إلى ضدِّه. يا له من موعدٍ لا يَتَّسعُ إلّا لمقعد واحد: لك، أو لإميل حبيبي الذي استعجلك ليصفِّي حسابه معك، ومع حياة لا تشبه الحياة إلّا في نجاتها من شرَك الأساطير المنصوبة بإحكام الصيَّاد الماهر، فقاومه بالضحك وبالسخرية من دهاء الصيّاد ومن مكر القطاة معاً. نحت تعبير «المتشائل» ليعثر على حريّته الملتبسة بين المنزلتين. لا هُوَ هُوَ ولا هُوَ آخرُهُ. فيه منهما حالة لا يشرحها إلّا الضحك. لكنه يدافع عن حيرته وشكِّه بيقينٍ لا ينسجم مع الشك. بين نصِّه الأدبي وضجيجه الإعلامي والسياسي تناقضٌ لا يُعَالَجُ إلّا بانحياز القارىء إلى صدق الأدب، وأولوية المتن على الهامش. قال ساخراً من نفسه: كانت لي دجاجةٌ تبيض ذهباً، فالتهمتُ الدجاجة. ومن فرط إدراكه قُوَّةَ السخرية كانت تجرحه حين يكون هو هدفها. فالساخر لا يحتمل ارتدادها إليه. وكان يغمز من قناتك ــ كما يقولون ــ كلما اختلفت معه وعنه. لكن، وهو يعدّ جنازته، ويشرف على أرشيف حصته من الخلود، أَلَحَّ عليك، كما لو كان يكتب وصية، بأن تلتقيا في حوارٍ سينمائيّ حيث كنت تسكن في شارع عباس.

حين قلت له: كيف أَصل من رام الله، يا أبا سلام، إلى

حيفا، وَدُونَها كل هذه الدولة المدججة بالممنوعات، قال: سأبذل كل جهدي للحصول على تصريح يسمح لك بزيارة الجليل يومين. لكن لا تتأخَّرْ، فإن الموت لم يترك لي من الوقت إلّا القليل القليل. في المساء بشَّروك بأن في وسعك السفر إلى حيفا صباح الغد. وفي الليل رأيتَ دِيكَيْنْ يتبارزان أمام الكاميرا، ورأيتَ ريشاً يتطاير في الهواء. وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل أيقظوك ليخبروك أن إميل حبيبي لم يتمكن من الانتظار. لقد فارق الحياة. وعليك السفر إلى الناصرة لتشارك في الجنازة والتأبين. لقد أوصى إميل حبيبي بأن يُكْتَبَ على شاهدة قبره «باقٍ في حيفا».

وعلى الطريق الساحليِّ تساءلت: وماذا لو بقيتُ في حيفا؟ ماذا لو بقيت في أَيِّ مكان؟ ماذا لو كنت؟ ماذا لو لم أكن. تتحاشى الوصول إلى الخلاصة: باطل الأباطيل، والكل باطل. فجأة يسقط مطر خفيف يبلِّل روحك، ويبلِّل الفراشات. رذاذ وضوء. وفراشات ترفرف على ارتفاع منخفض على الطريق الساحليّ. الفراشاتُ خواطرُ مبعثرة، ومشاعرُ طائرة في الهواء ...

# XVIII

يتصاعد الخيالُ مرئيّاً كالسحاب على تلال تحمل القرى على خواصرها مُتَشبِّثةً ببداية التكوين. وأَنتَ تعرف من التفاصيل ما يملأ كتاباً مفتوحاً على قراءة ناقصة لا تهدِّد القارىء ولا الكاتب بفصل النهاية. للجليل قصائدُ يكتُبها هَذَيانُ الصوفيّ، وموتى يتدربون على العودة إلى طفولة أنقذتها الفراشات من غزو النسيان. القرى المدفونة تحت الآرض ترسل ذكرياتها إلى القرى الناجية، التي يحجُّ أهلُها في الربيع إلى أَعشاب تنبت من ماضيهم: هنا وُلِدْنا، على حافة هذه البئر كما تولد الخبّيزة والهندباء والفيجن. وهنا وُلِدْتَ كما يُولَدُ الخيال تدريجياً من كل شيء، فكيف تعيد الخيال معافىً وتطير على حصان؟

لا أَثر «لِلبرْوَة»، على يمين الشارع القادم من الناصرة، غير صورتها في خيالك المطعون بقرون الثيران التي تمضغ وتجترُّ علف ذكرياتك. قلتَ: أَمرُّ بها عند الغروب لأدَّخر لخيالي غموضاً يُعينُ الغريبَ فيك على ابتكار الصور من ثنايا الحجر. وقلتَ: أَمرُّ بها في الغروب لئلا يراني أحدٌ غيري أبحث عنها في ما انقطع مني، فأُعلي للعبث مدائحَ ضروريّةً لردّ الخيال إلى طيشٍ جميل يرتِّقُ ثوب المكان. وقلتَ: أَمرّ بها في الغروب ليتّفق الشكل مع المعنى على إيوائي، وأُناجيها

هذا أَنا، هذا هُوَ

هذا هو الولد الشقيُّ ابنُ الشقيِّ / ابنُ الشقيَّة، وابنُ مائِكِ وابن نارِكِ / جئتُ منك وجئتُ من عَدَمٍ ومن إحدى قصائدك القديمة جئتُ، جئتُ من الخيال / لكي أُعيد لَكِ الخيال وأَحْفُرَ اسمَك / في الصخور كسائر الشعراء، في هذا اليباب / سَأَلْتُ بَغْلاً عن أَبيه، فقال لي:

خالي حصانٌ، ثم غاب /

سألتُ بنتاً عن أَبيها، فاستحتْ مني / وقالت: رُبَّما هو أَنتَ وٱرتَدَتِ الضباب /

سألتُ قُبَّرةً تناجي أُمَّها عن أُمِّها فَدَنَتْ، وقالت: ربما هِيَ أنتَ فاحملني / ونامت في يديَّ /

سألتُ نفسي: مَنْ أنا؟

ردّ الصدى الليليُّ حولي: مَنْ أنا؟

هذا أَنا. هذا هُو

هذا خيالي كُلُّه /

ومضيتَ إلى بيت أُمِّك المحاذي لأرض الخيال الأولى. لم تتعرف على معالم الطريق، فقد اكتظَّ المكان بالبيوت المتلاصقة العشوائية وبأولاد تكاثروا وتصايحوا: هذا عمي. هذا خالي. لم تنتبه إلّا الآن إلى أنك عمٌّ وخالٌ، كما لم تعلم إلّا الآن أن أمك تغني. تطلق الزغاريد والأناشيد التي تخاطبك باسمك الكامل، وترى إليك فارساً عائداً من رحلة الأسطورة. ترجوها أن تكفَّ عن اختراع المجد على وتيرة الحرمان والبُعْد. فما أنت إلّا ابنها وما هي إلّا أُمّك. تَضُمُّها وتضمُّك على مرأى من كاميرات الهواة الـمُصَوَّبة إلى قلبين.

تقول لك: أكان على صاحبك أن يموت لكي نراك؟ ألا

طريق إلى عرسنا هذا غير جنازة صاحبك؟ تسألها لتبعد المفارقة الجارحة، لماذا كانت تضربك وأَنت صغير، فيحمرّ وجهها وتقول: كان الشقاء هو السبب. أُمُّكَ هي أمك ببياضها وشعرها الطويل ولسانها الذي يجرح المبرد. موسوعة التفاصيل، وراوية المقارنات الطويلة بين الماضي والحاضر. كل ما كان أفضل مما هو الآن، فمياه الآبار أفضل من ماء الحنفية. وقناديل الكاز أفضل من مصابيح الكهرباء، والزمن البعيد هو الفردوس المفقود. طَعَنَتْها النكبةُ في القلب وحَمَّلتها تبعات الزلزال، فقاوَمتِ البؤسَ بالكبرياء وبطاقةٍ روحية أَمدَّت جسمها بقُوَّة فرس. لا تتعب، أو لا تأذن للتعب بأن ينطق بالشكوى، بل بهجاء الزمن الذي نقل أسرتها من مزارعين إلى لاجئين. وبالسخرية اللاذعة طوَّعت الشقاء على الامتناع عن الإهانة. كما دَرَّبَتْكَ على تقديس الكرامة، والاعتماد على النفس في اللعب وفي الدرس وفي كيّ ثيابك.

أمك هي أمك وأنت ابنها حين تكونان معاً. أمَّا في حضرة الآخرين فإنها تلعب دور الشاهد. تصون مسافةً تُبْقيكَ ضيفاً خاصاً على أمومتها، وشخصاً عاماً لا تدافع عن حقِّها في امتلاكه. كأنها تهجس وتهمس لنفسها: أنا وَلَدْتُهُ في البداية. لكن هو من واصل الولادة. وهي هي،

المعتمدة على شيخوختها في كل شيء. لا تأذن لأحد من أبنائها وبناتها وحفيداتها وأحفادها بأن يفرح بمساعدتها. تصحو عند الفجر... تصلّي، تُعدُّ قهوتها، تغسل بيتها. تسقي ورودها في الباحة الصغيرة، تُنَظِّفُ الهواء من الغبار، وتمسح الغبار عن مكتبتك القديمة، ثم تغسل ثيابها وتطهو طعامها، وتنتظر ضيوفها. وإذا شَكَتْ، فإنها تشكو من قلة المستمعين إلى حكاياتها. أَلَحّوا عليها لاقتناء جهاز تلفزيون يُسَلِّيها، فَأَبَتْ لأنها لا تحتمل ثرثرة المذيعات والمذيعين، ولا ترضى بأن تكون مستمعة، تريد أن تكون هي المذيعة.

في صباح اليوم التالي، تشرب معها قهوتها ذائعةَ الصيت، بعدما انتشرت رائحتُها في الأغنية التي كتبتها قبل أكثر من ثلاثة عقود في سجنك الثاني. تسألها: هل تعجبك الأغنية؟ فتبتسم بحياء وتكتفي بالقول: الله يرضى عليك. وتذكِّرُكَ بأن عليك أن تذهب الآن، قبل أن يأتي الضيوف، لزيارة قبر أبيك. تنظر إلى صورته المعلّقة أمامك على الجدار. تخفي حسرتك وأَسَاكَ على أيّوب الصبر الذي نقلته النكبة من اليسر إلى العسر، وقضى العمر يبحث لك ولأخوتك عن خبز وكتاب في الصراع المضني مع الصخر. لم يُطِل التحديق، كأبيه، إلى ماضيه السعيد

المحدِّق إليه من كروم الزيتون وحقول الحنطة كيلا يلتقي المغلوب بالمنهوب. وَحَمَلَ عبء الحاضر، كما هو، كملِكٍ مخلوع لا يقوى على النظر إلى عرشه، ليأخذك إلى الغد: الغد أمامك يا ابني، فلا تنظر إلى الوراء كثيراً إلّا عندما يشتدُّ عودُكَ وقصيدُكَ. وعندما اشتدَّ عودك صار يبدو لك أنك أبو أبيك، ويبدو لك أن للشعر قدرة على إجراء تعديل ما في المصائر، فَرُحْتَ تبني بيوتاً خيالية من حطامك ومن أسماء النبات والجماد، ليقف المكان مكانه وتعود الحياة إلى ما يشبه الحياة!

وأَبوك هو أبوك. كلما جلست إليه تَكَلَّمتما على عجل، فهو لا يكشف عن جرحه أمام ابنه. وأنتَ لا تعرف كيف تخفي عنه قسوة الشفقة عليه، فورثتَ عنه الجرح. وفي صيف بعيد، على سطح بيت طينيّ بعيد، تحشرج صوت أبيك وهو يقول لكم: لم أَعد قادراً على تعليمكم، أنتم الثلاثة معاً. لقد تعبت. على واحدٍ منكم أن يتطوع بترك المدرسة ليعينني، لم يعد ظهري قادراً على حمل الصخرة وحدي. فتباريتم في الشهامة. كل واحد قال: أنا. فسالت دمعةُ أَبيك على مرأى منكم، وبكيتم معه وعليه. وفجأة قال: لا. لا أَحد. دخل القمر في المحاق

تلك الليلة، واحتضن كل واحد منكم حلمه الصغير بتؤدة ونام.

على قبر أبيك، النائم في حضن أَبيه، قرأت الفاتحة. وقلت: جاء الآن دوري. مات أبوك بضربة شمس أثناء تأديته فريضة الحج. وأَنت تهيىء الآن نفسك للموت بعد الحج إلى قبر أبيك. لا بضربة شمس تموت، فالفصل ربيع، بل بضربة قمر!

يقع الخيال من أعلى، يتدحرج كحبّة كستناء على الشارع المفضي إلى عكا، ويختفي في زحام السيارات. الخيال انبثاق الصورة عمودياً من لحظة حبلى بمعلوم يسيّره اللاوعي إلى مجهول. الخيال قرينُ الكائن السريُّ ومُعينُهُ على تصحيح أَخطاء طباعية في كتاب الكون. هو عين البصيرة التي ترى ولا تُرى، فإذا رأيناه خارج أفعاله علمنا أنه مريض. وإذا مرض الخيال مات الشعر. أَلهذا أَنتَ خائف من عكا التي نَعتَّها بأنها «أَقدم المدن الجميلة / أَجمل المدن القديمة؟». عكا مغامرة ضياعك الأولى، وبحرك الأول. هي هي، لكن الخيال يتساقط عن جدرانها كما يتساقط الكلس. وأَنت تمشي خالياً من عمل الخيال في دهاليزها المعتمة، كما تمشي على نفسك: أمام البحر

هنا باب يفضي إلى سجنك الأول. وعلى هذا الكورنيش تأملت غروب الشمس، وأكواز الذرة الصفراء في أيدي فتيات يتهادين ويروين حكايات صغيرة، تمنَّيتَ لو اندسستَ فيها وكانت لك حكاية بينهن، أو لو كنت أنت الحكاية!

وفي حيفا، تحاشيت اختبار الخيال في الغرفة التي درَّبك فيها الخيال على طريقة الخروج من ذاتك، واكتفيت بإلقاء نظرة الطائر على ريشة علقت بشجرة النارنج.

سقط الخيال عن الشجرة! فهل لك أن ترفعه قليلاً ... قليلاً إلى أعلى!

وقلت: «لو لم تكن الأرض كروية لواصلت السير»!

# XIX

مُسَجًّى أَمامي بلا ضجيج، هادئاً هادئاً، ولا رأي لك في ما حولك. فوقنا سماء محايدة. وحولنا جهات تعرَّف بأنواع أشجارها:

الشرق نخلةٌ عاقر،

الغرب أَكاليبتوس لطرد البعوض،

الشمال صفصافة في ملتقى زمنين،

والجنوب زيتونة...

وأنا أتلو على مسامع المكان اللاهي عنك وعني مقاطع

من خطبتك عليك، خطبتك التي شئت أن تكون طويلة الظلال، لا لشيء... بل لأن الفراغ المحيط بنا قد يحتاج إلى ما يُسلِّيه. ولا أَحد معنا، لا أَحد يهدِّدنا بالمقاطعة من فرط الضجر، لا أَحد ينبهني إلى أَن الرثاء مديح تأخر عن موعده حياةً كاملة.

وأَنت مُسَجّى أمامي كفكرة تمتحن صبر صاحبها على احتمالها، وكقصيدة تصغي إلى شاعرها وتختبر سلامة البصر والبصيرة، فتقول: صدقت أو كذبت عليَّ!

قلت لي: أوصيك بك، فقد خانني الكثيرون ممن أَحببت .. «خانوني كالغدير». وحسدوني على جرحي البليغ، لأنه عثر على ما يشبه الوصف البليغ لسطوة الغياب الحاضر في كلامي. لذلك أَعفيتُهُم من حرَج النفاق، فلن تبلغ القلوب الحناجر إن كانت ثقيلة، وأَعفيتهم من دموع تذرفها رائحة الفلفل.

وقلت لي: لا حاجة بي إلى الاعتراف، فلا سرّ لي. وفضيحتي هي اللاسرّ، منذ سبق قلبي لساني. أحبُّ الشيء وأَنقلب عليه لئلا يستعبدني. ولا أكره إلّا الكراهية لأنها سُمّ في الطاقة المنذورة لحبّ أشياء بسيطة. لذا

أَشفقت على الكارهين من إدمان السير على ظل ظنّوه خطاهم، وسجنوا حياتهم في ابتكار وحيد: أَخطائي!

وقُلْتَ لي: لم أختلف مع امرأة إلَّا على تعريف الحبّ. وقُلْتَ لي: ما يُعَرَّف يُعْرَف، وما يُعْرَفُ يُمْتَلَك، وما يُمْتَلَك يُنْتَهَك ويُسْتَهْلَك ويَهْلَك.

وقلت لي: ليس الحبُّ سعادة ولا شقاء، بل هو عثورُ الحواس على اختلاف الشَبَه وائتلافه في رغبةٍ تتجدَّد. ولو عرفنا من يُحبُّنا أكثر من معرفتنا مَنْ نحبّ... لَظلّ الحب ملتبساً كما هو دائماً، وظلّت السعادة لعبة نرد، ولكان على المتكلم أن يستعير عاطفة الغائب... لو عرفنا من يحبّنا قبل أن نعرف من نحبّ!

وقلت لي: إذا متّ قبلك، فادرأ عني الكلماتِ الـمُعَلَّبَةَ التي انقضت مدة صلاحيتها منذ وقف خطيب على منبر، واذرأ الأرض التي أنام قربها لعلَّ عشبة تدلُّك على أن الموت فلاحة من نوع آخر.

فماذا أقول لك، يا صاحبي، في حضرة هذا الغياب الناصع، وقد أَمليتَ عليَّ خطبة وداعٍ متقطّعة الزمن،

خاليةً من الشجن، محكمة الفوضى، ولا دمعة فيها خوفاً على الكلام من البلل،

أجل ... أجل، لا وصيّة لك إلّا النهي عن الإفراط في التأويل. أعداؤك كثر، مرئيون وسرّيون. وقلت لي: لا تخش إلّا الذين لا يعرفون الملل. أما الأحبّة، فهم هناك منهمكون في التقاط ما تقدِّمه الحياة من هبات صغيرة وتبرعات... كتحية من زهرة عشوائية الضحك، وانتباه فتاة إلى كرز ينمو، رويداً رويداً، في أحد أقاليم الجسد، سعداء لأن أحداً من أبنائهم لم يمت اليوم، ولأن زلزالاً لم يضرب خيامهم المنصوبة على سفح هاوية. ويضجرون من الأمل كما يضجر المرء من عشاء متكرر، لكنهم يعودون إلى العشاء، وإلى الأمل.

فاحذر ــ قلت لي ــ مَنْ لا يعرفون الملل ويفرطون في التأويل. ففي وسعهم أن يُشَرِّحوا الوردة بحثاً عن التفسُّخ في مصدر الرائحة، وأن يَشْرَحُوا للعاشق أن القبلة هي تبادل أوبئة. وفي وسعهم أن يحاكموك على استعارة شعرية وعلى حرية خيال، لأن الجمال يُهينهم، ولأنَّ الشعر الوطني الصحيح هو القبيح، ولأن غيابك هذا قد يحرمهم من أسباب الحياة!

وقلت لي: أعدائي كثر، فلا تحبّني كي لا يزدادوا!

ما عليك، ما عليك. هنا، حيث لا أعرف قبرك من مسقط رأسي، لا يحاكم أَحد أحداً، ولا يقودنا هودج الكلمات إلى واقع أو خيال. هنا نصفِّي الحساب مع القلب، ونقول للفكر: ابتعد، فقد كانت للموتى حياة ما قبل هذا الموت. حياة أَقلُّ من حياة، وأكثر من زيارة عابرة. هنا ينظر القلب إلى أعلى، فيتجلَّى ندم تخلَّف عن موعده، ندم على ما لم نفعل: لماذا لم نأخذ الحياة على محمل الجد؟ لماذا أَسرعنا إلى هذا الحد، ما دامت النهاية هي الواضحة والبداية هي الغامضة.

وقلتَ لي: لم يعطنا صخب البحث عن الحياة، في الحياة، فرصة الامتثال الكامل لهدي السليقة، وقلنا: إن الشعر هو الشاعر. وكان علينا أَن نصدِّق الشعر ونكذِّب الشاعر. فهل لي أَن أقرأك من جديد لأدرك كيف تسوس المهارةُ ريح العبارة، لتجعل من كل شجرة أنثى، ومن كل أنثى شجرة، فنكذب على الأنثى وعلى الشجرة معاً؟ أبغير هذا يصدق الشعر؟

وقلتَ لي: إن تطابق الصورة مع الواقع خبر يدفع الخيال

إلى الحياد. فلتكذب صورة الشيء على الشيء لنرى ما بعد الشيء، لنرى في ضوء الرؤيا ما يجنّبنا العدم.

فبأيِّ قلبٍ من قلوبي الكثيرة أناديك: انتظرني مهما تأخرتُ. أما عِشْتَ بدلاً مني، كما مات أحد الموتى بدلاً مني دون أن أَقول له: شكراً! فما أنا إلّا هو دون أن أراه، أنا المدين لمصادفة باذخة العبث، في شارع لو أسرعتُ قليلاً أو أبطأتُ قليلاً لمتُّ نيابة عن سواي، وعاش حياتي نيابة عني؟ فما هو إلّا أنا دون أن يراني... هو المدين لمصادفة باذخة العبث. كم قلنا إن علينا أن نكمل حياة الآخرين فينا، لا كما نريدها نحن فحسب، بل كما أرادها أصحابها الذين نعيش بدلاً منهم.

وقلتَ لي: كُنِّي، ولا تَخُنّي إلّا بقدر ما يقصيك الإيقاع عني، وتُرْجعك قافيةٌ ضروريّة التكرار إليّ.

وقلتَ لي: لا تفكِّر بالخلود، فما هو إلّا أحد الآثار السلبية أو الإيجابية لحادثة الوجود، وخوف الروح، لحظة انعتاقها من جسد عرفته وأَلفته على سكنى لا عهد لها بها، أو عودتها إلى من استعرتُ منه الحياة حين مات نيابةً عني.

وأَنت مُسَجّى أمامي، لا أعرف من هو الميت فيك ومن

هو الحيّ، إلّا بقدر ما تملي عليَّ من خطبة أَرَدْتَها طويلةً لتدريب الروح على اختبار حريتها أو عبوديتها في ما يتاح لها من كائنات ومن كلمات. فإن كُنْتَ أنت القائلَ ما أقول لك الآن في صمتك هذا، فلن يكون الموت أكثر من وسيلة لاهتداء الروح إلى ما أُعدّ لها من سفر. وإن كنتُ أنا القائل ما أقول لك الآن، على هذا الحجر، فإني ذريعة الموت القصوى لتعريف الحياة بضدها الغامض، ضدها العاجز عن تعريفها بضدِّها في مكان، في لا مكان آخر، أَطلق الخائفون من العدم عليه لقب الخلود.

فنم هادئاً هادئاً إذا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً /

ونَمْ هادئاً في كلامِكَ

واْحلم بأنك تحلُمُ،

نَمْ هادئاً ما استطعتَ

سأطرد عنك البعوضَ

ودمعَ التماسيح

والأصدقاءِ الذين أحبّوا جروحك

وانصرفوا عنك حين جعلتَ

صليبك طاولةً للكتابة
نَمْ هادئاً قرب نفسك
نَـمْ هادئاً،
سوف أحرُسُ حُلْمَكَ،
وحدي ووحدك في هذه الساعةِ
الأرضُ عاليةٌ
كالخواطر عاليةٌ
والسماء مجازيّة كالقصيدةِ
زرقاءُ، خضراءُ، بيضاءُ،
بيضاءُ، بيضاءُ، بيضاءُ

## XX

سَطْراً سَطْراً، أُنثرك أمامي بكفاءةٍ لم أُوتَها إلَّا في المطالع. وأُطيل خطبتي كشاعرٍ يحتفظ بالمقطع الأخير، ليطيل التأمُّل في ما مضى من هواياته /

هواياته هي عدُّ الدرجات التي يراها أَمامه، والمشيُ على شارع جانبيّ وجمعُ الأصدافُ ... ومؤانسةُ الكسل /

أَلكَسَلُ اجتهادٌ ومهارة. إفراغُ القلب مما يزيد عن حاجته إلى الخفقان، وتمييزٌ بين الوقت والزمن. فمن يملك وقتاً أكثر يتحرر من خشية الزمن /

أَلزمنُ نهرٌ سَلِسٌ لمن لا ينتبه إليه، وحشيٌّ شَرِسٌ لمن يحدِّق إليه، فتخطفه الهاوية /

ألهاويةُ هي إغواء الأعماق وجاذبية المجهول، إذ تصبح السماء حفرة واسعة كثيفة الغيوم /

ألغيومُ تُغَطِّيك، يا صاحبي، بقطنها وتغطِّيني... في هذا المكان الهارب من صفاته إلى ما تُسْبِلُ عليه الغيومُ من خفَّة الشكل ومادَّةِ المعنى /

ألمعنى أَيضاً يلوِّح، من بعيد، بيد سماويّةٍ مبتورةِ الأصابع، من شدة الحراثة في أَرض غير ذات زرع، ولا سعادة /

أَلسعادة مادَّةٌ روحيَّةٌ يختلف على تعريفها مَنْ يتفقون على أن الحظَّ موهبةٌ، والموهبةَ حظٌّ، ويختلف على مديحها مَنْ يملكونها ويدخرونها في صندوق مقفل. وما هي إلّا رشوة من المستحيل /

أَلمستحيل هو الـمُمْكن الطَموحُ، يخرج إلى الشارع شاهراً مقصّاً لتقليم الأغصان اليابسة والأفكار، وتعليم الحالم إدارة النهار على وتيرة ما يرى /

يرى أن رفرفة أجنحة الفراشة، في مروحة اللون، هي أفضل علاج للأَلم /

ألألم، إذ لا تفكر فيه، لا تحسُّ به. كأنه يُبَجِّل هدوءك هذا أمام عَدَمٍ لا يبدي رأياً فيك ولا تبدي رأياً فيه. لا يَرَى ولا يُرَى. هو اللاشيءُ وقد اكتمل /

واكتمل القَمَرُ على خلوتنا في هذا الفراغ. واكتملت ذاكرتي /

ذاكرتي رُمَّانة. هل أَفرطها عليك حبّةً حبّةً، وأَنثرها عليك لؤلؤاً أحمر يليق بوداع لا يطلب مني شيئاً غير النسيان /

أَلنسيانُ تدريبُ الخيال على احترام الواقع بتعالي اللغة، واحتفاظُ الأمل العصاميِّ بصورةٍ ناقصةٍ عن الغد /

ألغدُ، وهو هنا أمامنا الآن يا صاحبي، عارٍ من الزمن، مرميٌّ على حفرة، في انتظار ورقة توت ميتافيزيقية تُغَطِّي سَوْءَة العابر /

ألعابر من ليل الضوء إلى ضوء الليل /

أللَيلُ يهبط علينا. وعلينا أن نأبه بشواغل الذين تركونا

وذهبوا إلى ليلهم الخاصّ، ينسون أو يتذكرون مقطعاً من خطبة الوداع /

ألوداعُ هو الصمت الفاصل بين الصوت والصدى. أمّا الصوت فقد انكسر. وأَما الصدى فقد حَفَظَتْهُ وديانٌ وكهوفٌ مُرْهَفَةُ السَمْع كآذان كونيّة، وضخّمته صدىً للصدى /

ألصدى وصيّة الزائر للعابر، وقيافة الطائر للطائر، وإلحاح النهاية على إطالة الحكاية... الصدى هو نقش الاسم في الهواء /

أَلهواء باردٌ، يا صاحبي، بارد ومُنْعش. ولم يبق أحد سواي يُسلِّيك ويلهيك عما أَنت فيه على مِتْرَيْ هذا العدم. ألَعَدَمُ متران محاطان بنبات يستعد لاستنشاق الأوكسجين. أَلعَدَمُ مُحَاصرٌ بهواء بارد ومنعش. سأبذر بُذُورَ بنفسجٍ على هذين المترين، وأسكب الماء لينهض العدم مهرولاً ويمضي بعيداً /

بعيداً، لا شأن لأحلامنا بما نفعل. الريحُ تحمل الليل وتمضي، ولا هدف /

أَلهدفُ يختلف من درب إلى درب. لكن الدروب كثيرةٌ ووعرة، والمؤونة من العمر قليلة /

وقليلةٌ هي الأغاني /

الأغاني، حسبنا منها استراق السمع إلى اعتذار الموت من بعض الموتى، واختلاس النظر إلى بحبوحة النثر /

ألنثر جارُ الشعر ونُزْهَةُ الشاعر /

ألشاعرُ هو الحائر بين النثر والشعر /

والشعرُ إخفاء الزوال عن الزائل، وجملةٌ اعتراضية بين الفعل والفاعل والمفعول به، كأنْ تقول: تَرَكَتِ المرأةُ، وهي تخفي دموعها، صاحبها. ففي الجملة الاعتراضية بين «تركت» و«صاحبها» وقت يكفي كي يذوب ملح الغضب، وتتلألأ النجوم /

ألنجومُ تُطِلُّ، يا صاحبي، علينا كَلَمعانِ أزرارٍ ذهبيَّة على معطف الأبدية. تُطِلُّ علينا من موت بعيد لم يصل إلينا بعد. وأنا أَتلو عليك خطبتي تندسّ نجمةٌ في كلامي وتضيء عتمتي: لعلّ الموت مجازٌ يذكّرنا بسرٍّ في الحياة لم ننتبه إليه، فما هو؟ /

ما هو؟ لو عرفناه لتغيّرتْ مشاريعُنا، فما لا نعرف موجود، وما نعرف محدود يتغيَّر. وعلى قبرك هذا ينبت عشب أقوى منك ومني، فلا أعرف هل أَحزن أم لا أحزن لأن الحياة أرملةٌ راقصةٌ لا تكترث إلّا بما ينقصها /

ينقُصُها مديحُ الموتى وعتابُهم في آن واحد: لو قُلتِ لنا مَن أنتِ، وأن هنالك موتاً أَقسى منك، لأَحْبَبْنَاكِ وقدّسناك، وخفَّفنا من أَمتعة الرحلة /

ألرحلة غاية /

والغاية إغواء المجهول /

والمجهول بعيد عنا وقريب منا... يستدرجنا إلى الامتلاء بجهل لا حدَّ له، فنجتهد لإتقانِ جهلٍ آخر. لكننا قنعنا بالبحث عن معلوم يرشدنا إلى حياةٍ ما في الحياة، فصار المعلوم عصيّاً /

وعصيّاً كان كل شيء. في ظلّك حشد ظلال، فلا تدري من يمشي فيك. وفيك تقاطع طرق ملأى بخطى غزاة هبطوا عليك كمظليّين مُدَرَّبين على استخدام محاريثك. وفي اسمك أخطاء سبَّبها حريق هائل في الخارطة. وعلى

بيتك تُبْنَى آثارٌ رومانية. أما أنت، فلا صورة لك إلّا الشبح /

شَبَحٌ يمرِّن الحارس على السهر. شايٌ وبندقية. فإذا غلب النعاسُ الساهر برد الشايُ، ووقعت من يده البندقية، وتسلَّل الهنديُّ الأَحمر إلى الحكاية /

ألحكايةُ هي أنك هندي أحمر /

أَحْمَرُ الريش، لا أحمر الدم، وأنك كابوسُ الساهر /

ألساهر على كَشِّ الغياب، وعلى تدليك عضلات الأبد /

الأَبد ملكية الحارس. عقار واستثمار. وإذا لزم الأمر فهو جنديّ منضبط في حرب لا هدنة فيها. ولا يلوح بعدها سلام /

سلام عليك يوم وُلدت، ويوم تبعث حياً في أوراق الشجرة /

الشجرةُ لفظةُ شُكْرٍ خضراءُ ترفعها الأرض كنجوى إلى جارتها السماء /

والسماءُ تكافئها بقطرات مطر /

مطر عليك وعليّ. مطر خفيف ينعشنا في أول هذا الليل. أُحصيه قطرة قطرة كما أُحصي دقات القلب الظامىء إلى بلل، فأطيل وقوفي وأطيل خطبتي، لعلَّك تنهض وتعود معي إلى أيّ أيْن، أو أمضي معك إلى لا أَين، كما لو نُودِيَ بي أنِ انتظرِ الوحي /

أَلوحيُ برهان القلب على ما لا يعرف، على ما هو أَعلى /

أَعلى وأَبعد. وأرى طائراً يحملني ويحملك، ونحن جناحاه، إلى ما وراء الرؤيا، في رحلة لا نهاية لها ولا بداية، لا قصد ولا غاية. لا أحدِّثك ولا تحدِّثني. ولا نسمع إلّا موسيقى الصمت /

ألصمت اطمئنانُ الصاحب للصاحب. وثِقَةُ الخيال بنفسه بين مَطَرٍ وقَوْسِ قُزَح /

قَوْسُ قُزَح هو تحرُّش الوحي بالشاعر، بلا استئذان ... وافتتان الشاعر بنثر القرآن /

فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان /

وغائبان أنا وأنت، وحاضران أنا وأَنت،

وغائبان /

فبأيِّ آلاء ربكما تُكَذِّبان.

# أَثَرُ الفراشة

[يوميات]

# المحتويات

البنتُ / الصرخة ٥٤١
ذباب أَخضر ٥٤٣
كقصيدةٍ نثريّة ٥٤٥
ليتني حجر ٥٤٧
أَبعد من التماهي ٥٤٩
العدوّ ٥٥١
نيرون ٥٥٣
الغابة ٥٥٥
حَمَام ٥٥٧
البيتُ قتيلاً ٥٥٩
مَكْرُ المجاز ٥٦٢
ألبعوضة ٥٦٣

نسر على ارتفاع منخفض ٥٦٥
واجب شخصي ٥٦٧
عَدُوّ مشترك ٥٦٩
بقيَّةُ حياة ٥٧١
لون أصفر ٥٧٤
ليت الفتى شجرة ٥٧٦
وصلنا متأخرين ٥٧٨
غريبان ٥٨٠
ماذا ... لماذا كُلُّ هذا؟ ٥٨٢
موهبة الأَمل ٥٨٤
ما أنا إلّا هو ٥٨٦
لم أحلم ٥٨٨
جار الصغيرات الجميلات ٥٩٠
كم البعيد بعيد ٥٩٢
يرى نفسه غائباً ٥٩٤
قال: أَنا خائف ٥٩٦
هدير الصمت ٥٩٨
شخص يطارد نفسه ٦٠٠
حنين إلى نسيان ٦٠٢
نهر يموت من العطش ٦٠٥
الجدار ٦٠٧
شريعة الخوف ٦٠٩

على قلبي مشيت ٦١١
روتين ٦١٣
بندقيَّة وكفن ٦١٥
إن أَردنا ٦١٧
وَقْتٌ مغشوش ٦١٩
إتقان ٦٢١
واحد، اثنان، ثلاثة ٦٢٣
صناديق فارغة ٦٢٥
عن اللا شيء ٦٢٧
خيالي ... كلب صيد وفيّ ٦٢٩
لو كنتُ غيري ٦٣١
اغتيال ٦٣٣
حفيف ٦٣٥
إستعارة ٦٣٧
في صحبة الأشياء ٦٣٩
شال حرير ٦٤١
ما يشبه الخسارة ٦٤٣
أَرضٌ فضيحة ٦٤٥
صيف وشتاء ٦٤٧
غيمة مُلَوَّنة ٦٤٩
ربيع سريع ٦٥١
أَلحياة ... حتى آخر قطرة ٦٥٣

| | |
|---|---|
| أَثر الفراشة | ٦٥٥ |
| لم أكن معي | ٦٥٧ |
| وجوه الحقيقة | ٦٥٩ |
| كما لو كان نائماً | ٦٦١ |
| موسيقى مرئيّة | ٦٦٣ |
| الطريق إلى «أين» | ٦٦٥ |
| فكاهة الخلود | ٦٦٧ |
| اللامبالي | ٦٦٩ |
| اللوحة والإطار | ٦٧١ |
| ثلج | ٦٧٣ |
| عَدْوَى | ٦٧٥ |
| حوض خزامى | ٦٧٧ |
| أَكثر وأَقلّ | ٦٧٩ |
| أَغبطُ كُلَّ ما حولكِ | ٦٨١ |
| قِلّي كوكباً | ٦٨٣ |
| مواعيد سريّة | ٦٨٥ |
| قالت له | ٦٨٧ |
| عَطْس | ٦٨٩ |
| مديحُ النبيذ | ٦٩١ |
| على أَعالي السرو | ٦٩٣ |
| وجهة نظر | ٦٩٥ |
| رصاصة الرحمة | ٦٩٦ |

حياء ٦٩٧
الكمال كفاءة النقصان ٦٩٨
صبَّار ٧٠١
في الساحة الخالية ٧٠٣
إِجازة قصيرة ٧٠٥
الشهرة ٧٠٧
لو كنتُ صيّاداً ٧٠٩
كابوس ٧١١
ليل العراق طويل ٧١٣
في قرطبة ٧١٦
في مدريد ٧١٩
عالٍ هو الجبل ٧٢٢
لا أَنتبه ٧٢٤
تلك الكلمة ٧٢٥
صدى ٧٢٧
شجرة الزيتون الثانية ٧٢٩
صفصافة ٧٣١
حق العودة إلى الجنة ٧٣٣
لولا الخطيئة ٧٣٤
خريف إيطالي ٧٣٥
مسافران إلى نهر ٧٣٨
قاتل وبريء ٧٤٠

كأنها أُغنية ٧٤٢
شاعري / آخَري ٧٤٣
سماء صافية وحديقة خضراء ٧٤٤
كلمة واحدة ٧٤٦
بيت القصيد ٧٤٨
هجاء ٧٥١
في الخطابة والخطيب ٧٥٢
مناصفة ٧٥٥
أَظن ٧٥٧
السطر الثاني ٧٥٨
أَعلى وأَبعد ٧٦٠
الكناري ٧٦٢
في مركب على النيل ٧٦٤
إدمانُ الوحيد ٧٦٦
في الرباط ٧٦٩
وصف ٧٧٢
في سكوغوس ٧٧٤
جهة المنفيّ ٧٧٧
بوليڤار سان ـ جيرمان ٧٧٩
يكون الأَمر مختلفاً ٧٨٢
حياة مبتدئة ٧٨٤
يد التمثال ٧٨٦

في بيروت ٧٨٧
عودة حزيران ٧٨٩
ليتنا نُحسَد ٧٩١
أنت، منذ الآن، غيرك ٧٩٣
أَنت، منذ الآن، أَنت ٨٠٠

[صفحات مختارة من يوميات،
كُتبت بين صيف ٢٠٠٦ وصيف ٢٠٠٧]

## البنتُ / الصرخة

على شاطىء البحر بنتٌ. وللبنت أَهلٌ
وللأهل بيتٌ. وللبيت نافذتان وبابْ...
وفي البحر بارِجَةٌ تتسَلَّى
بصَيْدِ المُشَاة على شاطىء البحر:
أَربعةٌ، خَمْسَةٌ، سَبْعَةٌ
يسقطون على الرمل، والبنتُ تنجو قليلاً
لأنَّ يداً من ضبابْ
يداً ما إلٰهيَّةً أَسْعَفَتْها، فنادتْ: أَبي
يا أَبي! قُمْ لنرجع، فالبحر ليس لأمثالنا!
لم يُجِبْها أبوها المُسَجَّى على ظلِّهِ

في مهبِّ الغيابْ

دَمٌ في النخيل، دَمٌ في السحابْ

يطير بها الصوتُ أَعلى وأَبعدَ مِنْ
شاطىء البحر. تصرخ في ليل برّية،
لا صدى للصدى.
فتصير هي الصرخةَ الأبديَّةَ في خَبَرٍ
عاجلٍ، لم يعد خبراً عاجلاً
عندما
عادت الطائرات لتقصف بيتاً بنافذتين وبابْ!

# ذباب أخضر

أَلمشهد هُوَ هُوَ. صيفٌ وعَرَقٌ، وخيال يعجز عن رؤية ما وراء الأفق. واليوم أفضلُ من الغد. لكنَّ القتلى هم الذين يتجدّدون. يُولَدُون كُلَّ يوم. وحين يحاولون النوم يأخذهم القتلُ من نعاسهم إلى نومٍ بلا أحلام. لا قيمة للعدد. ولا أَحد يطلب عوناً من أحد. أصوات تبحث عن كلمات في البرية، فيعود الصدى واضحاً جارحاً: لا أَحد. لكن ثَمَّةَ من يقول: «من حق القاتل أن يدافع عن غريزة

القتل». أمَّا القتلى فيقولون متأخرين: «من حق الضحية أن تدافع عن حَقِّها في الصراخ». يعلو الأذان صاعداً من وقت الصلاة إلى جنازات متشابهة: توابيتُ مرفوعةٌ على عجل، تدفن على عجل... إذ لا وقت لإكمال الطقوس، فإنَّ قتلى آخرين قادمون، مسرعين، من غاراتٍ أخرى. قادمون فُرَادى أو جماعات... أو عائلةً واحدةً لا تترك وراءها أيتاماً وثكالى. السماء رماديَّةٌ رصاصية، والبحر رماديٌّ أزرق. أَمَّا لون الدم فقد حَجَبَتْهُ عن الكاميرا أَسرابٌ من ذباب أَخضر!

## كقصيدةٍ نثريّة

صيفٌ خريفيٌّ على التلال كقصيدةٍ نثرية. النسيم إيقاعٌ خفيف أحسُّ به ولا أَسمعه في تواضُع الشجيرات. والعشب المائل إلى الأصفرار صُوَرٌ تتقشَّفُ، وتُغري البلاغة بالتشَبُّه بأَفعالها الماكرة. لا احتفاء على هذه الشِعاب إلَّا بالمُتاح من نشاط الدُوريّ، نشاطٍ يراوح بين معنىً وعَبَث. والطبيعة جسدٌ يتخفَّف من البهرجة والزينة، ريثما ينضج التين والعنب والرُمَّان ونسيانُ شهواتٍ يوقظها المطر. «لولا حاجتي الغامضة إلى الشعر لَمَا كنت في حاجة

إلى شيء» - يقول الشاعر الذي خَفَّتْ حماسته فقلَّت أخطاؤه. ويمشي لأن الأطباء نصحوه بالمشي بلا هدف، لتمرين القلب على لامبالاةٍ ما ضروريةٍ للعافية. وإذا هجس، فليس بأكثر من خاطرة مجانيّة. الصيف لا يصلح للإنشاد إلّا في ما ندر. الصيف قصيدةٌ نثريَّةٌ لا تكترث بالنسور المحلِّقة في الأعالي.

# ليتني حجر

لا أَحنُّ إلى أيِّ شيءٍ
فلا أَمسِ يمضي، ولا الغَدُ يأتي
ولا حاضري يتقدَّمُ أَو يتراجَعُ
لا شيء يحدث لي!
ليتني حَجَرٌ ــ قُلْتُ ــ يا ليتني
حَجَرٌ ما ليصقُلَني الماءُ
أَخضرٌ، أَصفَرٌ ... أُوضَعُ في حُجْرَةٍ
مثلَ مَنْحُوتةٍ، أَو تمارينَ في النحت...
أو مادَّةً لانبثاق الضروريِّ
من عبث اللاضروريّ ...

يا ليتني حجرٌ
كي أَحنَّ إلى أيِّ شيء!

# أبعد من التماهي

أَجلسُ أمام التلفزيون، إذ ليس في وسعي أن أفعل شيئاً آخر. هناك، أمام التلفزيون، أَعثُرُ على عواطفي، وأَرى ما يحدث بي ولي. ألدخان يتصاعد مني. وأَمدُّ يدي المقطوعةَ لأمسك بأعضائي المبعثرة من جسومٍ عديدة، فلا أَجدها ولا أهرب منها من فرط جاذبيّة الألم. أَنا المحاصَرُ من البرِّ والجوِّ والبحر واللغة. أقلعتْ آخرُ طائرةٍ من مطار بيروت ووضعتني أمام التلفزيون، لأشاهد بقيَّة موتي مع ملايين المشاهدين، لا شيء يثبت أني

موجود حين أفكِّر مع ديكارت، بل حين ينهض مني القربان، الآن، في لبنان. أَدخُلُ في التلفزيون، أنا والوحش. أَعلم أنَّ الوحش أقوى مني في صراع الطائرة مع الطائر. ولكني أَدمنت، ربما أكثر مما ينبغي، بُطُولَةَ المجاز: التهمني الوحشُ ولم يهضمني. وخرجتُ سالماً أكثر من مرة. كانت روحي التي طارت شَعَاعاً مني ومن بطن الوحش تسكن جسداً آخر أَخفَّ وأَقوى، لكني لا أعرف أين أنا الآن: أمام التلفزيون، أم في التلفزيون. أما القلب فإني أراه يتدحرج، ككوز صنوبر، من جبل لبناني إلى رَفَح!

## العدوّ

كنتُ هناك قبل شهر. كنتُ هناك قبل سنة. وكنت هناك دائماً كأني لم أَكن إلَّا هناك. وفي عام ٨٢ من القرن الماضي حدث لنا شيء مما يحدث لنا الآن. حُوصرنا وقُتِلْنا وقاومنا ما يُعْرَضُ علينا من جهنم. القتلى / الشهداء لا يتشابهون. لكلٍّ واحد منهم قوامٌ خاصْ، وملامح خاصة، وعينان واسمٌ وعمر مختلف. لكن القتلة هم الذين يتشابهون. فَهُم واحدٌ مُوزَّعٌ على أَجهزة معدنية. يضغط على أزرار إلكترونية. يقتل ويختفي. يرانا ولا

نراه، لا لأنه شبح، بل لأنه قناع فولاذيّ لفكرة ... لا ملامح له ولا عينان ولا عمر ولا اسم. هو ... هو الذي اختار أن يكون له اسم وحيد: العَدُوّ!

# نيرون

ماذا يدور في بال نيرون، وهو يتفرّج على حريق لبنان؟ عيناه زائغتان من النشوة، ويمشي كالراقص في حفلة عُرْسٍ: هذا الجنون، جنوني، سيِّدُ الحكمة. فلتُشْعلوا النار في كل شيء خارج طاعتي. وعلى الأطفال أَن يتأدَّبوا ويتهذّبوا ويكُفُّوا عن الصراخ بحضرة أنغامي!

وماذا يدور في بال نيرون، وهو يتفرَّج على حريق العراق؟ يُسْعِدُهُ أن يُوقِظَ في تاريخ الغابات ذاكرة تحفظ اسمه عَدُوّاً لحمورابي

وجلجامش وأَبي نواس: شريعتي هي أُمُّ الشرائع. وعشبة الخلود تنبت في مزرعتي. والشعر؟.. ما معنى هذه الكلمة؟

وماذا يدور في بال نيرون، وهو يتفرَّج على حريق فلسطين؟ يُبهجة أن يدرج اسمه في قائمة الأنبياء نبيّاً لم يؤمن به أَحد من قبل ... نبيّاً للقتل كلَّفه الله بتصحيح الأخطاء التي لا حصر لها في الكتب السماوية: أنا أَيضاً كليمُ الله!

وماذا يدور في بال نيرون وهو يتفرَّج على حريق العالم؟ «أنا صاحب القيامة». ثم يطلب من الكاميرا وقف التصوير، لأنه لا يريد لأَحد أن يرى النار المشتعلة في أَصابعه، عند نهاية هذا الفيلم الأميركي الطويل!

## الغابة

لا أسمعُ صوتي في الغابة، حتى لو
خَلَتِ الغابةُ من جوع الوحشِ ...
وعاد الجيشُ المهزومُ أو الظافرُ، لا فرق،
على أشلاء الموتى المجهولين إلى الثكَنات
أو العرشِ |
ولا أسمع صوتي في الغابة، حتى لو
حملته الريحُ إليّ، وقال لي:
«هذا صوتُكَ» ... لا أَسمعُهُ

لا أسمع صوتي في الغابة، حتى لو

وقف الذئب على قدمين وصفَّق لي:
«إني أسمع صوتك، فلتأْمُرْني!»
فأقول: الغابةُ ليست في الغابة
يا أَبتي الذئبَ ويا ابني!

لا أَسمع صوتي إلّا إنْ
خَلَتِ الغابةُ مني
وخلوتُ أنا من صمت الغابة!

# حَمام

رفٌّ من الحمام ينقشع فجأة من خلل الدخان. يلمع كبارقة سِلْمٍ سماوية. يحلِّق بين الرماديّ وفُتات الأزرق على مدينة من ركام. ويذكِّرنا بأن الجمال ما زال موجوداً، وبأن اللا موجود لا يعبث بنا تماماً إذ يَعِدُنا، أو نظنُّ أنه يعدنا بتجلِّي اختلافه عن العدم. في الحرب لا يشعر أَحد منا بأنه مات إذا أَحسَّ بالألم. الموت يسبق الألم. والألم هو النعمة الوحيدة في الحرب. ينتقل من حيّ إلى حيّ مع وقف التنفيذ. وإذا حالف الحظّ أحداً

نسيَ مشاريعه البعيدة، وانتظر اللا موجود وقد وُجِدَ مُحَلِّقاً في رفٍّ حمام. أرى في سماء لبنان كثيراً من الحمام العابث بدخان يتصاعد من جهة العدم!

## البيتُ قتيلاً

بدقيقة واحدة، تنتهي حياةُ بيتٍ كاملة. البيتُ قتيلاً هو أيضاً قَتْلٌ جماعيّ حتى لو خلا من سُكَّانه. مقبرة جماعية للموادّ الأولية المُعَدَّةِ لبناء مبنى للمعنى، أو قصيدةٍ غير ذات شأن في زمن الحرب. البيت قتيلاً هو بَتْرُ الأشياء عن علاقاتها وعن أسماء المشاعر. وحاجةُ التراجيديا إلى تصويب البلاغة نحو التَّبَصُّر في حياة الشيء. في كل شيء كائنٌ يتوجَّع... ذكرى أَصابع وذكرى رائحة وذكرى صورة. والبيوت تُقْتَلُ

كما يُقْتَلُ سكانها. وتُقْتَلُ ذاكرةُ الأشياء:
الحجر والخشب والزجاج والحديد والإسمنتُ
تتناثر أشلاء كالكائنات. والقطن والحرير
والكتّان والدفاتر والكتب تتمزّق كالكلمات التي
لم يتسَنَّ لأصحابها أن يقولوها. وتتكسَّر
الصحون والملاعق والألعاب والأسطوانات والحنفيّات
والأنابيب ومقابض الأبواب والثلاّجة والغسّالة
والمزهريات ومرطبانات الزيتون والمخللات والمعلبات
كما انكسر أصحابها. ويُسحق الأبْيَضان الملح
والسُّكَّر، والبهارات وعلب الكبريت وأقراص الدواء
وحبوب منع الحمل والعقاقير المُنَشطة وجدائل
الثوم والبصل والبندورة والبامية المُجَفَّفة والأرُزّ
والعدس، كما يحدث لأصحابها. وتتمزَّق عقود
الإيجار ووثيقة الزواج وشهادة الميلاد وفاتورة
الماء والكهرباء وبطاقات الهوية وجوازات السفر
والرسائل الغرامية، كما تتمزّق قلوب أَصحابها.
وتتطاير الصُّوَر وفُرَشُ الأسنان وأمشاط
الشَّعْر وأدوات الزينة والأحذية والثياب
الداخلية والشراشف والمناشف كأسرار عائلية

تُنْشَرُ على الملأ والخراب. كل هذه الأشياء ذاكرةُ الناس التي أُفْرِغَتْ من الأشياء، وذاكرة الأشياء التي أُفْرِغَتْ من الناس... تنتهي بدقيقة واحدة. أشياؤنا تموت مثلنا. لكنها لا تُدْفَنْ معنا!

# مَكْرُ المجاز

مجازاً أقول: انتصرتُ
مجازاً أقول: خسرتُ ...
ويمتدُّ وادٍ سحيقٌ أمامي
وأَمتدُّ في ما تبقَّى من السنديانْ ...
وثَمَّة زيتونتان
تَلُمَّانني من جهاتٍ ثلاثٍ
ويحملني طائرانْ
إلى الجهة الخاليةْ
من الأَوْج والهاويةْ
لئلاَّ أقول: انتصرتُ
لئلاَّ أقول: خسرتُ الرهانْ!

# ألبعوضة

أَلبعوضةُ، ولا أَعرف اسم مُذَكَّرها، أشَدُّ فَتْكاً من النميمة. لا تكتفي بمصّ الدم، بل تزجّ بك في معركة عَبَثيّة. ولا تزور إلّا في الظلام كَحُمَّى المتنبي. تَطِنُّ وَتَزُنُّ كطائرةٍ حربية لا تسمعها إلّا بعد إصابة الهدف. دَمُكَ هو الهدف. تُشْعل الضوء لتراها فتختفي في رُكْنٍ ما من الغرفة والوساوس، ثم تقف على الحائط ... آمنةً مسالمةً كالمستسلمة. تحاول أن تقتلها بفردة حذائك، فتراوغك وتفلت وتعاود الظهور الشامت. تشتمها

بصوت عال فلا تكترث. تفاوضها على هدنة بصوت وُدِّي: نامي لأنام! تظنُّ أَنك أَقْنَعْتَها فتطفىء النور وتنام. لكنها وقد امتصت المزيد من دمك تعاود الطنين إنذاراً بغارة جديدة. وتدفعك إلى معركة جانبيّة مع الأَرَق. تشعل الضوء ثانية وتقاومهما، هي والأرق، بالقراءة. لكن البعوضة تحطُّ على الصفحة التي تقرؤها، فتفرح قائلاً في سرّك: لقد وَقَعَتْ في الفخّ. وتطوي الكتاب عليها بقُوَّة: قَتَلْتُها... قتلتُها! وحين تفتح الكتاب لتزهو بانتصارك، لا تجد البعوضة ولا الكلمات. كتابك أَبيض!. البعوضة، ولا أعرف اسم مُذَكَّرها، ليست استعارة ولا كنايةً ولا تورية. إنها حشرة تحبُّ دمك وتَشُمُّه عن بُعْد عشرين ميلاً. ولا سبيل لك لمساومتها على هدنة غير وسيلة واحدة: أن تغيِّر فصيلةَ دمك!

# نسر على ارتفاع منخفض

قال المسافرُ في القصيدة
للمسافر في القصيدة:
كم تبقّى من طريقكَ؟
ــ كُلُّهُ
ــ فاذهبْ إذاً، واذهبْ
كأنَّكَ قد وصلتَ ... ولم تصلْ
ــ لولا الجهات، لكان قلبي هُدْهُداً
ــ لو كان قلبُكَ هدهداً لتبعتهُ
ــ مَنْ أَنتَ؟ ما اسمُكَ؟
ــ لا اسمَ لي في رحلتي

ـ أأراك ثانيةً؟

ـ نعم. في قِمَّتَيْ جَبَـلَيْن بينهما
صدىً عالٍ وهاويةٌ ... أراكَ

ـ وكيف نقفز فوق هاويةٍ
ولسنا طائِرَيْنِ؟

ـ إذنْ، نغنِّي:
مَنْ يرانا لا نراهُ
ومَنْ نراهُ لا يرانا

ـ ثم ماذا؟

ـ لا نغنِّي

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم تسألني وأسألُ:
كم تبقَّى من طريقكَ؟

ـ كُلُّهُ

ـ هل كُلُّهُ يكفي لكي يَصِلَ المُسَافِرُ؟

ـ لا. ولكني أرى نسراً خرافياً
يحلِّقُ فوقنا... وعلى ارتفاعٍ منخفضْ!

# واجب شخصي

هتفوا له: يا بطل! واستعرضوهُ في الساحات. نَطَّتْ عليه قلوب الفتيات الواقفات على الشرفات، ورششنه بالأَرُزِّ والزنبق. وخاطبه الشعراء المتمردون على القافية بقافية ضروريّة لتهييج اللغة: «يا بَطَلْ! أنتَ الأَمَلْ». وهو، هو المرفوع على الأكتاف رايةً منتصرة، كاد أن يفقد اسمه في سيل الأوصاف. خجول كعروس في حفلة زفافها. «لم أفعل شيئاً. قمت بواجبي الشخصي». في صباح

اليوم التالي، وجد نفسه وحيداً يستذكر ماضياً بعيداً يلوِّح له بيد مبتورة الأصابع «يا بطل! أنت الأمل». يتطلع حوله فلا يرى أحداً من المحتفلين به البارحة. يجلس في جُحرْ العزلة. ينقِّبُ في جسده عن آثار البطولة. ينتزع الشظايا ويجمعها في صحنِ تَنَك، ولا يتألم... «ليس الوجع هنا. الوجع في موضع آخر. لكن من يستمع الآن إلى استغاثة القلب»؟ أحسَّ بالجوع. تفقَّد معلبات السردين والفول فوجدها منتهية الصلاحية. ابتسم وغمغم: «للبطولة أيضاً تاريخ انتهاء صلاحية». وأدرك أنه قام بواجبه الوطنيّ!

## عَدُوّ مشترك

تمضي الحرب إلى جهة القيلولة. ويمضي المحاربون إلى صديقاتهم متعبين وخائفين على كلامهم من سوء التفسير: انتصرنا لأننا لم نمت. وانتصر الأعداء لأنهم لم يموتوا. أمَّا الهزيمة فإنها لفظة يتيمة. لكنَّ المحارب الفرد ليس جندياً بحضرة من يُحبُّ: لولا عيناك المُصَوَّبتان إلى قلبي لاخترقتْ رصاصةٌ قلبي! أو: لولا حرصي على ألَّا أُقْتَلَ لما قتلتُ أحداً! أو: خفت عليك من موتي، فنجوت لأطمئنك عليَّ. أو: البطولة

كلمة لا نستخدمها إلّا على المقابر. أو: في المعركة لم أفكِّر بالنصر، بل فكرت بالسلامة وبالنمش على ظهرك. أو: ما أَضيق الفرق بين السلامة والسلام وغرفة نومك. أو: حين عطشتُ طلبتُ الماء من عدوي ولم يسمعني، فنطقت باسمك وارتويت... المحاربون من الجانبين يقولون كلاماً متشابهاً بحضرة من يُحِبُّون. أمَّا القتلى من الجانبين، فلا يدركون إلّا متأخرين، أن لهم عدواً مشتركاً هو: الموت. فما معنى ذلك، ما معنى ذلك؟

## بقيَّةُ حياة

إذا قِيل لي: ستموتُ هنا في المساء
فماذا ستفعل في ما تبقَّى من الوقتِ؟
ــ أَنظُرُ في ساعة اليدِ
أَشربُ كأس عصيرٍ
وأَقْضُمُ تُفَّاحَةً
وأُطيلُ التأمُّلَ في نَمْلَةٍ وَجَدَتْ رِزْقها...
ثُمَّ أَنظر في ساعة اليدِ:
ما زال ثَمَّةَ وقتٌ لأَحلق ذقني
وأَغطسَ في الماء | أَهجسُ:
«لا بُدَّ من زينةٍ للكتابةِ

فليكُنِ الثوبُ أزرقَ»....
أَجلسُ حتى الظهيرة، حيّاً، إلى مكتبي
لا أرى أَثَرَ اللون في الكلمات
بياضٌ، بياضٌ، بياضٌ ...

أُعِدُّ غدائي الأخير
أَصبُّ النبيذ بكأسين: لي
ولـمَنْ سوف يأتي بلا موعدٍ.
ثُمَّ آخُذُ قَيْلُولةً بين حُلْمينِ
لكنَّ صوتَ شخيري سيُوقظُني ...
ثُمَّ أنظرُ في ساعة اليدِ:
ما زال ثَمَّةَ وقتٌ لأَقْرأَ
أَقرأُ فصلاً لدانتي ونصْفَ مُعَلَّقَةٍ
وأرى كيف تذهب مني حياتي
إلى الآخرين، ولا أَتساءل عَمَّنْ
سيملأُ نُقْصَانَها
ــ هكذا؟
ــ هكذا،

ثُمَّ ماذا؟
ــ أُمَشِّطُ شَعْري
وأَرمي القصيدةَ: هذي القصيدةَ
في سلَّة المهملات
وأَلبسُ أحدث قُمْصانِ إيطاليا
وأُشيِّعُ نفسي بحاشِيَةٍ من كَمَنْجات إِسبانيا
ثُمَّ
أمشي
إلى المقبرةْ!

## لون أصفر

أزهارٌ صفراء توسِّع ضوء الغرفة. تنظر إليَّ أكثر مما أنظر إليها. هي أولى رسائل الربيع. أَهْدَتْنِيها سيِّدةٌ لا تشغلها الحرب عن قراءة ما تبقَّى لنا من طبيعة متقشفة. أَغبطها على التركيز الذي يحملها إلى ما هو أبعد من حياتنا المهلهلة ... أَغبطها على تطريز الوقت بإبرة وخيط أَصفر مقطوع من الشمس غير المحتلة. أُحدِّق إلى الأزهار الصفراء، وأُحسّ بأنها تضيئني وتذيب عتمتي، فأخفّ

وأشفّ وأجاريها في تبادل الشفافية.
ويُغويني مجاز التأويل: الأصفر هو
لونُ الصوت المبحوح الذي تسمعه الحاسة
السادسة. صوت مُحَايِدُ النَّبْرِ، صوت
عباد الشمس الذي لا يغيِّرُ دِينَه.
وإذا كان للغيرة ـ لونِهِ من فائدة،
فهي أن ننظر إلى ما حولنا بفروسية
الخاسر، وأن نتعلم التركيز على تصحيح
أخطائنا في مسابقاتٍ شريفة!

# ليت الفتى شجرة

ألشجرة أخت الشجرة، أو جارتها الطيّبة. الكبيرة تحنو على الصغيرة، وتُمدُّها بما ينقصها من ظلّ. والطويلة تحنو على القصيرة، وترسل إليها طائراً يؤنسها في الليل. لا شجرة تسطو على ثمرة شجرة أخرى، وإن كانت عاقراً لا تسخر منها. ولم تقتل شجرةٌ شجرةً ولم تقلِّد حَطّاباً. حين صارت زورقاً تعلَّمت السباحة. وحين صارت باباً واصلت المحافظة على الأسرار. وحين صارت مقعداً لم تنسَ سماءها السابقة.

وحين صارت طاولة عَلَّمت الشاعر أن لا يكون حطاباً. الشجرة مَغْفَرةٌ وسَهَرٌ. لا تنام ولا تحلم. لكنها تُؤْتَمَنُ على أسرار الحالمين، تقف على ساقها في الليل والنهار. تقف احتراماً للعابرين وللسماء. الشجرة صلاة واقفة. تبتهل إلى فوق. وحين تنحني قليلاً للعاصفة، تنحني بجلال راهبة وتتطلع إلى فوق ... إلى فوق. وقديماً قال الشاعر: «ليت الفتى حجر». وليته قال: ليت الفتى شجرة!

# وصلنا متأخرين

في مرحلة ما من هشاشةٍ نُسَمِّيها نضجاً، لا نكون متفائلين ولا متشائمين. أَقلعنا عن الشغف والحنين وعن تسمية الأشياء بأضدادها، من فرط ما التبس علينا الأمر بين الشكل والجوهر، ودرَّبنا الشعورَ على التفكير الهادىء قبل البوح. للحكمة أسلوبُ الطبيب في النظر إلى الجرح. وإذ ننظر إلى الوراء لنعرف أَين نحن منَّا ومن الحقيقة، نسأل: كم ارتكبنا من الأخطاء؟ وهل وصلنا إلى الحكمة

متأخرين. لسنا متأكدين من صواب الريح، فماذا ينفعنا أن نصل إلى أيّ شيء متآخرين، حتى لو كان هنالك من ينتظرنا على سفح الجبل، ويدعونا إلى صلاة الشكر لأننا وصلنا سالمين ... لا متفائلين ولا متشائمين، لكن متأخرين!

# غريبان

يرنو إلى أَعلى
فيبصر نجمةً
ترنو إليهْ!

يرنو إلى الوادي
فيبصر قبرَهُ
يرنو إليهْ

يرنو إلى امرأةٍ،
تعذِّبُهُ وتعجبُهُ

ولا ترنو إليه

يرنو إلى مرآتِهِ
فيرى غريباً مثله
يرنو إليهْ!

## ماذا ... لماذا كُلُّ هذا؟

يُسَلِّي نفسه، وهو يمشي وحيداً، بحديث قصير مع نفسه. كلمات لا تعني شيئاً، ولا تريد أن تعني شيئاً: «ماذا؟ لماذا كل هذا؟» لم يقصد أن يتذمر أو يسأل، أو يحكَّ اللفظة باللفظة لتقدح إيقاعا يساعده على المشي بخفَّةِ شاب. لكن ذلك ما حدث. كلما كرَّر: ماذا ... لماذا كل هذا؟ أحسَّ بأنه في صحبة صديق يعاونه على حمل الطريق. نظر إليه المارة بلا مبَالاة. لم يظن أَحد أنه

مجنون. ظنوه شاعراً حالماً هائماً يتلقّى وحياً مفاجئاً من شيطان. أما هو، فلم يَتَّهم نفسه بما يسيء إليها. ولا يدري لماذا فكَّر بجنكيزخان. ربما لأنه رأى حصاناً بلا سرج يسبح في الهواء، فوق بناية مُهَدَّمة في بطن الوادي. واصل المشي على إيقاع واحد: «ماذا ... لماذا كل هذا؟» وقبل أن يصل إلى نهاية الطريق الذي يسير عليه كل مساء، رأى عجوزاً ينتحي شجرة أكاليپتوس، يسند على جذعها عصاه، يفك أزرار سرواله بيد مرتجفة، ويبول وهو يقول: ماذا ... لماذا كل هذا؟. لم تكتف الفتيات الطالعات من الوادي بالضحك على العجوز، بل رمينه بحبَّات فستق أَخضر!

# موهبة الأمل

كلما فكَّر بالأمل أنهكه التعب والملل، واخترع سراباً، وقال: بأيّ ميزانٍ أَزِنُ سرابي؟ بحث في أدراجه عمَّن كانه قبل هذا السؤال، فلم يعثر على مُسَوَّداتٍ كان فيها القلبُ سريعَ العطب والطيش. ولم يعثر على وثيقة تثبت أنه وقف تحت المطر بلا سبب. وكلما فكَّر بالأمل اتسعت المسافة بين جسد لم يعد خفيفاً وقلبٍ أصيب بالحكمة. ولم يكرِّر السؤال: مَنْ أنا؟ من فرط ما هو

مُجَافٍ لرائحة الزنبق وموسيقى الجيران العالية. فتح النافذة على ما تبقَّى من أفق، فرأى قطّتين تمازحان جَرْواً على الشارع الضيِّق، وحمامةً تبني عشاً في مدخنة. وقال: ليس الأمل نقيض اليأس، ربما هو الإيمان الناجم عن لا مبالاة آلهةٍ بنا ... تركتنا نعتمد على مواهبنا الخاصة في تفسير الضباب. وقال: ليس الأمل مادَّةً ولا فكرة. إنه موهبة. تناول قرصاً مضاداً لارتفاع ضغط الدم. ونسي سؤال الأمل ... وأَحسَّ بفرح ما ... غامض المصدر!

## ما أنا إلّا هو

بعيداً، وراء خطاه
ذئابٌ تَعَضُّ شعاع القمرْ

بعيداً، أمام خطاه
نجوم تضيء أَعالي الشجرْ

وفي القرب منه
دمٌ نازفٌ من عروق الحجرْ

لذلك، يمشي ويمشي ويمشي

إلى أن يذوب تماماً
ويشربه الظلّ عند نهاية هذا السفرْ

وما أنا إلّا هُوَ
وما هو إلّا أنا
في اختلاف الصُّوَرْ!

## لم أحلم

متنبّهاً إلى ما يتساقط من أَحلامي، أَمنع عطشي من الإسراف في طلب الماء من السراب. أَعترفُ بأني تعبت من طول الحلم الذي يعيدني إلى أَوَّله وإلى آخري، دون أن نلتقي في أيِّ صباح. «سأصنع أحلامي من كفاف يومي لأتجنَّب الخيبة». فليس الحالم أن ترى ما لا يُرى، على وتيرة المُشْتَهى، بل هو أن لا تعلم أنك تحلم. لكن، عليك أن تعرف كيف تصحو. فاليقظة هي نهوض الواقعي من الخياليّ مُنَقَّحاً،

وعودةُ الشِعْر سالماً من سماءٍ لُغَةٍ متعالية
إلى أرض لا تشبه صورتها. هل في
وسعي أن أختار أحلامي، لئلا أحلم
بما لا يتحقّق، كأن أكون شخصاً آخر ...
يحلم بأنه يرى الفرق بين حيّ يرى
نفسه ميتاً، وبين ميت يرى نفسه حيّاً؟
ها أَنذا حيّ، وحين لا أحلم أَقول:
«لم أحلم، فلم أَخسر شيئاً»!

# جار الصغيرات الجميلات

يمشي على الشارع ذاته، في الموعد ذاته، مكتفياً بما يمنحه المساء من تذوّق متمهّل لطعم الهواء. يأسف كلما لاحظ النقصان المتزايد في أشجار الزيتون، حيث تزداد البنايات ارتفاعاً كآلامنا وتُقَلِّص كمية الفضاء. لكن الفتيات الصغيرات يكثرن ويكبرن وينضجن دون أن يخشين الزمن المتربِّص بهن عند نهاية الشارع النازل إلى الوادي، ينظر إليهن بلا اشتهاء. وينظرن إليه بفضول، ويقلن له: مساء الخير يا عم!. يُحِبُّهنَّ

بلا غصَّةٍ سفرجليَّة، ويحتفي بجمال نضارتهنَّ وبنضارة آمالهنّ، كما يحتفي بموسيقى، وبلوحة مائية، وبطائر أزرق الذيل. هُنَّ يستعجلن الزمن ليصبغن أظافرهن بالأحمر المتحرّش بثيران خفيّة، ولينتعلن الكعب العالي لكسر ثمار الجوز وإيقاظ النائم. وهو يستمهل الزمن ليطيل متعة المرور بينهن جاراً لجمال مستقلّ. ولا بأس في أن يتذكر أنه عندما كان أَصغر كان يغبط نفسه كلما مشى برفقة مُهْرَةٍ على طرق أخرى: «هل كُلُّ هذا الكليّ لي؟» ثم يواصل المشي على الشارع وحيداً. يَعُدُّ على أصابع يديه ما تبقَّى من أشجار الزيتون، ويفرح بغزلان تتقافز حوله بحياد متبادل. لا يغبط نفسه على شيء!.. ولا يحسد غيره!

# كم البعيد بعيد

«كم البعيدُ بعيدٌ»؟
كم هي السُبُـلُ؟
نمشي
ونمشي إلى المعنى
ولا نَصِلُ ...

هُوَ السرابُ
دليلُ الحائرين
إلى الماء البعيد
هو البُـطْلاَن ... والبَـطَلُ

نمشي، وتنضج في الصحراءِ
حكمتُنا
ولا نقول: لأنّ التِيهَ يَكْتملُ

لكن حكمتنا تحتاجُ أُغنيةً
خفيفةَ الوزن،
كي لا يتعب الأَمَلُ

«كم البعيد بعيدٌ»؟
كم هِيَ السُبُلُ؟

# يرى نفسه غائباً

أنا هنا منذ عشر سنوات. وفي هذا المساء، أجلس في الحديقة الصغيرة على كرسيّ من البلاستيك، وأنظر إلى المكان منتشياً بالحجر الأحمر. أَعُدُّ الدرجات المؤدية إلى غرفتي على الطابق الثاني. إحدى عشرة درجة. إلى اليمين شجرةُ تين كبيرة تُظَلِّل شجيرات خوخ. وإلى اليسار كنيسةٌ لوثريَّة. وعلى جانب الدرج الحجري بئر مهجورة ودلو صدىء وأزهار غير مرويَّة تمتصّ حبيبات من حليب أوَّل الليل. أنا هنا، مع أربعين شخصاً، لمشاهدة مسرحية قليلة

الكلام عن منع التجوُّل، ينتشر أبطالها المنسيّون في الحديقة وعلى الدرج والشرفة الواسعة. مسرحية مرتجلة، أو قيد التأليف، كحياتنا. أسترق النظر إلى نافذة غرفتي المفتوحة وأتساءل: هل أنا هناك؟ ويعجبني أن أدحرج السؤال على الدرج، وأدرجه في سليقة المسرحية: في الفصل الأخير، سيبقى كل شيء على حاله ... شجرةُ التين في الحديقة. الكنيسةُ اللوثرية في الجهة المقابلة. يوم الأحد في مكانه من الرُزنامة. والبئر المهجورة والدلو الصدىء. أما أنا، فلن أكون في غرفتي ولا في الحديقة. هكذا يقتضي النص: لا بد من غائب للتخفيف من حمولة المكان!

## قال: أنا خائف

خافَ. وقال بصوت عال: أنا خائف. كانت النوافذ مُحْكَمَةَ الإغلاق، فارتفع الصدى واتّسع: أنا خائف. صَمَتَ، لكن الجدارن ردَّدتْ: أنا خائف. الباب والمقاعد والمناضد والستائر والبُسُط والكتب والشموع والأقلام واللوحات قالت كُلُّها: أنا خائف. خاف صوت الخوف فصرخ: كفى! لكن الصدى لم يردِّد: كفى! خاف المكوث في البيت فخرج إلى الشارع. رأى شجرة حَوْرٍ،

مكسورة فخاف النظر إليها لسبب لا يعرفه. مرت سيارة عسكرية مسرعة، فخاف المشي على الشارع. وخاف العودة إلى البيت لكنه عاد مضطراً. خاف أن يكون قد نسي المفتاح في الداخل، وحين وجده في جيبه أطمأنّ. خاف أن يكون تيار الكهرباء قد انقطع. ضغط على زر الكهرباء في ممر الدرج، فأضاء، فاطمأن. خاف أن يتزحلق على الدرج فينكسر حوضه، ولم يحدث ذلك فاطمأنّ. وضع المفتاح في قفل الباب وخاف ألا ينفتح، لكنه انفتح فاطمأنّ. دخل إلى البيت، وخاف أن يكون قد نسي نفسه على المقعد خائفاً. وحين تأكد أنه هو من دخل لا سواه، وقف أمام المرآة، وحين تعرَّف إلى وجهه في المرآة اطمأنّ. أَصغى إلى الصمت، فلم يسمع شيئاً يقول: أنا خائف، فاطمأنّ. ولسببٍ ما غامض ... لم يعد خائفاً!

# هدير الصمت

أُصغي إلى الصمت. هل ثمة صمت؟ لو نسينا اسمه، وأَرهفنا السمع إلى ما فيه، لسمعنا أَصوات الأرواح الهائمة في الفضاء، والصرخات التي اهتدت إلى الكهوف الأولى. الصمت صوت تبخّر واختبأ في الريح، وتكسّر أَصداء محفوظةً في جِرارٍ كونيّة. لو أرهفنا السمع لسمعنا صوتَ ارتطام التفاحة بحجر في بستان الله، وصرخةَ هابيل الخائفةَ من دمه الأول، وأَنينَ الشهوة الأصلي بين ذكر وأُنثى

لا يعرفان ما يفعلان، ولسمعنا تأملاتِ يونس في بطن الحوت، والمفاوضاتِ السرية بين الآلهة القدامى. ولو أرهفنا السمع إلى ما وراء حجاب الصمت، لاستمعنا إلى أحاديث الليل بين الأنبياء وزوجاتهم، وإلى إيقاعات الشعر الأولى، وإلى شكوى الأباطرة من الضجر، وإلى حوافر خيل في حرب مجهولة الزمان والمكان، وإلى الموسيقى المصاحبة لطقس الدعارة المقدس، وإلى بكاء جلجامش على صاحبه أَنكيدو، وإلى حيرة القرد حين قفز من الشجرة إلى عرش القبيلة، وإلى الشتائم المتبادلة بين سارة وهاجر. لو أَرهفنا السمع إلى صوت الصمت ... لصار كلامنا أَقل!

# شخص يطارد نفسه

كما لو كنتَ غيرك سادراً،
لم تنتظر أَحداً
مشيتَ على الرصيف
مشيتُ خلفك حائراً
لو كنتَ أنتَ أنا لقلتُ لَكَ:
انتظرني عند قارعة الغروب
ولم تقل: لو كنتَ أنتَ أنا
لما احتاج الغريب إلى الغريب.
ألشمس تضحك للتلال. ونحن نضحك
للنساء العابرات. ولم تقل إحدى النساء:

هناك شخص ما يُكَلِّم نفسه ...
لم تنتظر أحداً
مشيتَ على رصيفك سادراً
ومشيتُ خلفك حائراً.
والشمسُ غابت خلفنا ...
ودَنَوْتَ مني خطوةً أو خطوتين
فلم تجدني واقفاً أو ماشياً
ودَنَوْتُ منك فلم أجدك ...
أكنتُ وحدي دون أن أدري
بأني كنت وحدي؟ لم تقل
إحدى النساء: هناك شخصٌ ما
يطارد نَفْسَهُ!

# حنين إلى نسيان

ظلام. وقعتُ عن السرير ممسوساً بسؤال: أَين أنا؟ بحثت عن جسدي فأحسستُ به يبحث عني. وبحثت عن مفتاح النور لأرى ما يحدث لي، فلم أَجده. تعثَّرتُ بكرسيّ فأسقطتُهُ وأسقطني على ما لا أَعرف. وكأعمى يرى بأصابعه الأشياء فَتَّشت عن جدار أَستند إليه، فارتطمتُ بخزانة. فتحتُها ... فلامستْ يدي ثياباً شَمَمْتُها فعثرتُ على رائحتي. أدركت أني في حيِّز من العالم يخصني، وانفصل عني أو انفصلت عنه. تابعتُ البحث عن

مفتاح النور لأرى إن كان ذلك صحيحاً، فوجدته. تعرفت إلى أشيائي: هذا سريري، وهذا كتابي، وهذه حقيبتي، وهذا الذي في البيجامة هو أَنا تقريباً. فتحت النافذة، وسمعت نباح كلاب في الوادي. ولكن، لم أتذكر متى عدت، ولا أتذكر أني وقفتُ على الجسر. ظننتُ أني أحلم بأني هنا ولستُ هنا. غسلت وجهي بماء بارد، وتأكدت من يقظتي. سرت إلى المطبخ فرأيت فواكه طازجة، وصحوناً غير مغسولة تدلُّ على أنني تناولت العشاء هنا. لكن، متى حدث ذلك؟ تصفحت جواز السفر فأدركت أني وصلت اليوم، دون أن أتذكر أني سافرت. هل حصل فصامٌ ما في ذاكرتي؟ هل انفصل وجودي النفسي عن وجودي الفيزيائي. خفتُ .. واتصلتُ بصديق في ساعة متأخرة من الليل: أُعاني من وعكة في الذاكرة ... أين أنا؟ قال: أنت في رام الله. سألته: متى أتيت؟ قال: اليوم، وكنا معاً بعد الظهر في حديقة ڤاتشي. سألته: لماذا لا أتذكر،

هل تظن أني مريض؟ قال: يحدث ذلك مع مرضى من نوع آخر: مرضى الحنين إلى النسيان!

# نهر يموت من العطش

كان نهرٌ هنا،
وله ضفّتان
وأُمٌّ سماويّةٌ أرضَعَتْهُ السحابَ المُقَطَّرَ،
نهرٌ صغيرٌ يسير على مهله
نازلاً من أعالي الجبال
يزور القرى والخيام كضيف لطيف خفيف
ويحمل للغَوْر أشجارَ دفلى ونخل
ويضحك للساهرين على ضفتيه:
«اشربوا لَبَنَ الغيمِ
واسقوا الخيول

وطيروا إلى القدس والشام»
كان يغني فروسيةً مرةً
وهوى مَرةً ...
كان نهراً له ضفتان
وأُمٌّ سماويةٌ أرضعته السحاب المُقَطَّر
لكنهم خطفوا أُمَّه،
فأصيب بسكتة ماء
ومات، على مهله، عطشاً!

# الجدار

أَفعى معدنية ضخمة تلتفُّ حولنا. تبتلع جدراننا الصغيرة الفاصلة بين غرفة النوم والحمام والمطبخ وغرفة الاستقبال. أَفعى لا تسعى بخط مستقيم لئلَّا تَتَشَبَّه بنظراتنا إلى أمام. تتلوَّى وترفع كابوسها المصنوع من فقرات إسمنت مُقَوَّى بحديد مرن ... يُسَهِّلُ عليها الحركة إلى ما تبقَّى لنا من فُتات جهاتٍ وأحواضِ نعناع. أَفعى تسعى لوضع بيضها بين زفيرنا والشهيق: لنقول مرة واحدة: نحن،

من فرط ما نختنق، نحن الغرباء. ننظر في مرايانا فلا نرى غير اقتراب الأفعى من أعناقنا. لكننا، وبقليل من جهد الرؤيا، نرى ما فوقها: نرى سماء تتثاءب ضجراً من مهندسين يسقفونها بالبنادق والبيارق. ونراها في الليل تتلألأ بكواكب تحدِّق إلينا بحنان. ونرى أَيضاً ما خلف جدار الأفعى: نرى حُرَّاس الجيتو خائفين مما نفعل خلف ما تبقى لنا من جدران صغيرة... نراهم يُزَيِّتون أَسلحتهم لقتل العنقاء التي ظنوها تختبىء عندنا، في قنّ دجاج. فلا نملك إلّا أَن نضحك!

# شريعة الخوف

ينظر القاتل إلى شَبَح القتيل، لا إلى عينيه، بلا ندم. يقول لمن حوله: لا تلوموني، فأنا خائف. قتلتُ لأني خائف، وسأقتل لأني خائف. بعض المشاهدين المدربين على تفضيل التحليل النفساني على فقه العدل، يقول: إنه يدافع عن نفسه. والبعض الآخر من المعجبين بتفوُّق التطور على الأخلاق، يقول: العدل هو ما يفيض من كرم القوة. وكان على القتيل أن يعتذر عما سبَّب للقاتل من صدمة!

والبعض الآخر، من فقهاء التمييز بين الواقع والحياة، يقول: لو وقفتْ هذه الحادثة العادية في بلاد أخرى غير هذه البلاد المقدسة، أكان للقتيل اسم وشهرة؟ فلنذهبنَّ، إذن، إلى مواساة الخائف. وحين مشوا في مسيرة التعاطف مع القاتل الخائف، سألهم بعض المارة من السُيَّاح الأجانب: وما هو ذنب الطفل؟ فأجابوا: سيكبر ويسبِّب خوفاً لابن الخائف. وما هو ذنب المرأة؟ قالوا: ستلد ذاكرة. وما هو ذنب الشجرة؟ قالوا: سيطلع منها طائر أَخضر. وهتفوا: الخوف، لا العدل، هو أساس الملك. أما شبح القتيل، فقد أطلَّ عليهم من سماء صافية. وحين أطلقوا عليه النار لم يروا قطرة دم واحدة!.. وصاروا خائفين!

# على قلبي مشيت

على قلبي مشيتُ، كأنَّ قلبي
طريقٌ، أو رصيفٌ، أو هواءُ
فقال القلبُ: أَتْعَبَتْنِي التماهي
مع الأشياء، وانكسر الفضاءُ
وأَتعبني سؤالُكَ: أَين نمضي
ولا أرضٌ هناك ... ولا سماءُ
وأَنتَ تطيعني ... مُرني بشيء
وصوِّبْني لأفعل ما تشاءُ
فقلتُ له: نسيتُكَ مذ مشينا
وأَنتْ تَعِلَّتي، وأنا النداءُ

تمرَّدْ ما استطعت عليَّ، وٱركُضْ
فليس وراءنا إلّا الوراءُ!

# روتين

مُنْخَفَضٌ جويّ. الرياح شمالية غربية، زخّات من مطر. البحر مجعَّد رمادي. أشجار السرو عالية. وغيوم الخريف تسقط اليوم ثلاثين شهيداً شمالي غزة، بينهم امرأتان اشتركتا في مظاهرة تطالب بحصة النساء من الأمل. السماء عالية. البحر هادىء أزرق. الرياح شمالية. الرؤية صافية. لكن غيوم الخريف ــ الاسم الرمزي للقتل ــ تقضي على أسرة كاملة مكونة من سبع عشرة حياة ... تبحث الأخبار عن أسمائهم تحت الأنقاض. ما عدا ذلك،

تبدو الحياة غير العادية عاديَّةَ الوتيرة. ما زال الشيطان يتباهى بخلافه الطويل مع الله. وما زال الأفراد إذا صحوا أحياء قادرين على القول: صباح الخير. ثم يذهبون إلى أشغالهم الروتينية: تشييع الشهداء. ولا يعرفون إن كانوا سيعودون سالمين إلى ما تبقى من بيوت تحاصرها جرافات ودبابات وأشجار سرو مكسورة. والحياة، من فرط لامبالاتها، لا تُرَى إلّا تخطيطاً أولياً لأمنيّة عصيّة على التدوين: المساواة مع بنات آوى في الاستمتاع بكهف آمن. لكننا مطالبون بمهمة صعبة: الوساطة بين الله والشيطان للتوصل إلى هدنة قصيرة ندفن خلالها شهداءنا!

# بندقيَّة وكفن

«لن يهزمني أَحد. ولن أَنتصر على أَحد» ـ قال رَجُلُ الأمن المُقَنَّعُ المُكَلَّفُ مهمَّة غامضة. أطلق النار على الهواء، وقال: على الرصاصة وحدها أن تعرف مَنْ هو عدوِّي. ردَّ عليه الهواء برصاصة مماثلة. لم يكترث المارة العاطلون من العمل بما يدور في بال رجل الأمن المقنع العاطل مثلهم من العمل، لكنه يبحث عن حربه الخاصة منذ لم يجد سلاماً يدافع عنه. نظر إلى السماء فرآها عالية صافية. وبما أنه لا يحبُّ الشعر فلم ير فيها مرآة للبحر. كان

جائعاً، وازداد جوعاً حين شمَّ رائحة الفلافل، فأحسَّ بأن بندقيته تُهينُهُ. أطلق رصاصة على السماء لعلَّ عنقوداً من عنب الجنّة يسَّاقط عليه. ردّت عليه رصاصة مماثلة، فأجَّجت حماسته المكبوتة إلى القتال. فاندفع إلى حرب متخيَّلة، وقال: عثرت أخيراً على عمل. إنها الحرب. وأَطلق النار على رجل أَمن مُقَنَّع آخر، فأصاب عدوَّه المُتَخَيَّل، وأُصيب بجرح طفيف في ساقه. وحين عاد إلى بيته في المخيّم متكئاً على بندقيته، وجد البيت مزدحماً بالمعزّين، فابتسم لأنه ظنَّ أنهم ظنوا أنه شهيد، وقال: لم أَمت!. وعندما أخبروه أنه هو قاتل أخيه، نظر إلى بندقيته باحتقار، وقال: سأَبيعها لأشتري بثمنها كفناً يليق بأخي!

# إن أردنا

سنصيرُ شعباً، إن أَردنا، حين نعلم أَننا لسنا ملائكةً، وأَنَّ
الشرَّ ليس من اختصاص الآخرينْ

سنصير شعباً حين لا نتلو صلاة الشكر للوطن المقدَّس،
كلما وجد الفقيرُ عشاءَهُ ...

سنصير شعباً حين نشتم حاجبَ السلطان والسلطان،
دون محاكمةْ

سنصير شعباً حين يكتب شاعرٌ وصفاً إباحياً لبطن
الراقصةْ

سنصير شعباً حين ننسى ما تقولُ لنا القبيلة...، حين يُعْلي الفرد من شأن التفاصيل الصغيرةْ

سنصير شعباً حين ينظر كاتبٌ نحو النجوم، ولا يقول: بلادنا أَعلى... وأجملْ!

سنصير شعباً حين تحمي شرطةُ الآداب غانيةً وزانيةً من الضرب المبرِّح في الشوارعْ!

سنصير شعباً حين لا يتذكَّرُ الفردُ الفلسطينيُّ رايته سوى في ملعب الكرة الفسيح، وفي مسابقة الجمال، ويوم نكبته فقطْ

سنصير شعباً، إن أَردنا، حين يؤذن للمغنِّي أَن يرتِّل آية من «سورة الرحمن» في حفل الزواج المُخْتَلَطْ

سنصير شعباً حين نحترم الصواب، وحين نحترم الغَلَطْ!

# وَقْتٌ مغشوش

لأنَّ أَحداً لا يأتي في موعده. ولأنَّ الانتظار يشبه الجلوس على صفيح ساخن... أَعاد عقارب ساعته اليدوية عشرين دقيقة إلى الوراء. هكذا خفَّف عن نفسه عذاب الانتظار، ونسي الأَمر. لكنه، ومنذ غشَّ الوقت، لم يصل إلى أيّ موعد. يجلس على حقيبته في المحطة منتظراً قطاراً لا يصل أبداً، دون أن ينتبه إلى أن القطار مَرَّ في موعده الدقيق، وإلى أنه هو الذي تأخر. يعود إلى بيته خائباً. يفتح حقيبة السفر

ويعيد محتوياتها إلى الأدراج ككُل عائدٍ من سفر. ثم يتساءل غاضباً: لماذا لا يحترمون الوقت؟ وحين دقَّ الموتُ على بابه مستأذناً بالدخول، وبَّخه قائلاً: لماذا وصلت قبل الموعد بعشرين دقيقة؟. اختبأ في الحمام. ولم يفتح له الباب، كأنه مات في الحمَّام!

# إتقان

فضاء لازورديّ، عالٍ وعريض ومغسول بماء الضوء. وإنْ ظَهَرَتْ غيمةٌ خفيفة كفقاعة صابون، فلا تلبث أن تذوب في قصيدة منسية. فضاء دائري محمول على أشجار الغابة الباسقة وعلى أَجنحة النوارس، محمول على هودج في ذاكرة الحجاج إلى الأرض المقدسة. فضاء شاسع واسع مُتْقَنُ التكوين والتلوين. من فرط الإتقان ... أَخشى من حريق في الغابة، ومن غارة على النوارس، ومن سطو على

زوجة نبي. أَخشى من خلل طارىء في
نظام الأشياء ... وأخشى من كتابة قصيدة
موزونة ... على سطح هذه الشفافية!

## واحد، اثنان، ثلاثة

صعد الممثِّل إلى خشبة المسرح مع مهندس الصوت: واحد، اثنان، ثلاثة. توقَّفْ! سنجرِّبُ الصوت مرة ثانية: واحد، اثنان، ثلاثة، توقَّفْ! هل تفضّل قليلاً من الصدى؟ قال: لا أَعرف ... افعل ما تشاء!. كانت القاعة خالية تماماً. مئات المقاعد الخشبية تحملق فيه بصمتِ مقبرةٍ جماعيّة، وتدعوه إلى المغادرة أو إلى الانضمام إليها. آثر الخيار الثاني، واختار مقعداً في الوسط ... ونام. أَيقظه المخرجُ ليجري البروفة الأخيرة. صعد

إلى الخشبة، وارتجل فصلاً طويلاً إذ أعجبته فكرة أن يخاطب المقاعد الفارغة، وأن لا يصفق له أَحد ما عدا المخرج. ثم ارتجل فصلاً آخر بلا أَخطاء. وفي المساء، حين امتلأت القاعة بالمشاهدين، ورُفِعَت الستارة، وقف واثقاً من سلامة الصمت ... نظر إلى الصّفّ الأمامي، وتذكر نفسه جالساً هناك، فارتبك. نسي النصَّ المكتوب وتبخَّر النصُّ المرتجل ... ونسي المشاهدين، واكتفي بتجريب الصوت: واحد، اثنان، ثلاثة. ثم كَرَّر: واحد، اثنان، ثلاثة ... حتى أُغمي عليه وضجَّت القاعة بالتصفيق!

# صناديق فارغة

إذا كان السلامُ هدنةً بين حربين، فإنَّ للموتى حقَّ الإدلاء بأصواتهم: سنختار الجنرال. وإذا كانت الحرب حادثةَ سيرٍ وقعت على الأوتوستراد السريع، فإنَّ على الأحياء واجب الإدلاء بأصواتهم: سنختار الحمار. لكن الأحياء لم يذهبوا إلى صناديق الاقتراع، لا لأن الثلج كان يندف، بل لأن شللاً مفاجئاً أصاب سكان المدينة، وحين فتحوا النوافذ رأوا عناكب تبني بيوتها في الثلج، فأصيبوا بالعمى. وحين

أرهفوا السمع إلى ما يحدث، هبَّت عواصف لا عهد لهم بأصواتها الوحشية، فأصيبوا بالصمم. وقال المنجمون: هي فوضى الكون على باب القيامة. ومن حُسْن حظنا أو من سوئه، أن المؤرخين الأجانب الخبراء في مصائرنا وتاريخنا الشفهي لم يكونوا هنا، فلم نعرف ما حلَّ بنا!

# عن اللا شيء

هو اللا شيء يأخذنا إلى لا شيء،
حدَّقنا إلى اللاشيء بحثاً عن معانيه ...
فجرّدنا من اللاشيء شيءٌ يشبه اللاشيءَ
فاشتقنا إلى عبثية اللاشيء
فهو أخفّ من شيء يُشَيِّئنا ...
يحبُّ العبدُ طاغيةً
لأن مَهابة اللاشيء في صنم تُؤَلِّهُهُ
ويكرهُهُ
إذا سقطت مهابته على شيء
يراهُ العبد مرئيّاً وعاديّاً

فَيَـهْوَى العبدُ طاغيةً سواهُ
يطلُّ من لا شيءَ آخرَ ...
هكذا يتناسل اللاشيء من لا شيء آخرَ ...
ما هو اللاشيء هذا، السيِّـدُ المتجدِّدُ،
المتعدِّدُ، المتجبرٌ، المتكبرٌ، اللزجُ
المُهَرِّجُ... ما هو اللاشيء هذا

رُبَّما هو وعكةٌ رُوحيَّـةٌ
أو طاقةٌ مكبوتةٌ
أو، ربما هو ساخرٌ متمرِّسٌ
في وصف حالتنا!

## خيالي ... كلب صيد وفيّ

على الطريق إلى لا هدف، يُبَلِّلني رذاذ ناعم، سقطتْ عليَّ من الغيم تُفَّاحةٌ لا تشبه تفاحة نيوتن. مددتُ يدي لألتقطها فلم تجدها يدي ولم تَرَها عيناي. حدَّقتُ إلى الغيوم، فرأيتُ نُتَفاً من القطن تسوقها الريح شمالاً، بعيداً عن خزانات الماء الرابضة على سطوح البنايات. وتدفَّق الضوءُ الصافي على إسفلت يَتَّسع ويضحك من قلَّة المشاة والسيارات ... وربما من خطواتي الزائغة. تساءلتُ: أَين التفاحة التي

سقطت عليَّ؟ لعلَّ خيالي الذي استقلَّ عني هو الذي اختطفها وهرب. قلت: أَتبعه إلى البيت الذي نسكنه معاً في غرفتين متجاورتين. هناك، وجدت على الطاولة ورقة كُتِبَ عليها، بحبر أَخضر، سطر واحد: «تفاحة سقطت عليَّ من الغيوم»، فعلمت أَن خيالي كلب صيد وفيّ!

# لو كنتُ غيري

في العزلة كفاءةُ المُؤْتَمَن على نفسه ــ يكتب العبارة، وينظر إلى السقف. ثم يضيف: أن تكون وحيداً ... أن تكون قادراً على أن تكون وحيداً هو تربية ذاتيَّة. ألعزلة هي انتقاء نوع الأَلم، والتدرّب على تصريف أفعال القلب بحريّة العصاميّ ... أَو ما يشبه خلوَّك من خارجك وهبوطك الاضطراري في نفسك بلا مظلَّة نجاة. تجلس، وحدك، كفكرة خالية من حجة البرهان، دون أن تحدس بما يدور من حوار بين

الظاهر والباطن. العزلة مصفاة لا مرآة. ترمي ما في يدك اليسرى إلى يدك اليمنى، ولا يتغيَّر شيء في حركة الانتقال من اللافكرة إلى اللامعنى. لكن هذا العَبَثَ البريء لا يؤذي ولا يجدي: وماذا لو كنتُ وحدي؟ العزلة هي اختيار المُتْرَف بالممكنات ... هي اختيار الحرّ. فحين تجفّ، وتضيق بك نفسُك، تقول: لو كنتُ غيري لانصرفتُ عن هذه الورقة البيضاء إلى محاكاة رواية يابانية، يصعد كاتبها إلى قمة الجبل ليرى ما فعلت الكواسر والجوارح بأجداده الموتى. لعلَّه ما زال يكتب، وما زال موتاه يموتون. لكن تنقصني الخبرة. والقسوة الميتافيزيقية تنقصني. وتقول: لو كنتُ غيري، كما أنا الآن، لنزلتُ إلى بطن الوادي، حيث تؤجّج فتاة مكبوتة شهوتها بورقة تين خشنة وتَعَضُّ سروالها، لكن، تنقصني مهارة الوصف. والجرأة الإباحية تنقصني!

## اغتيال

يغتالني النقَّادُ أَحياناً:
يريدون القصيدةَ ذاتَها
والاستعارة ذاتها ...
فإذا مَشَيْتُ على طريقٍ جانبيّ شارداً
قالوا: لقد خان الطريقَ
وإنْ عثرتُ على بلاغة عُشْبَـةٍ
قالوا: تخلَّى عن عناد السنديان
وإن رأيتُ الورد أَصفرَ في الربيع
تساءلوا: أَين الدمُ الوطنيُّ في أوراقِهِ؟
وإذا كتبتُ: هي الفراشةُ أُختيَ الصغرى

على باب الحديقةِ
حرّكوا المعنى بملعقة الحساء
وإن هَمَسْتُ: الأمُّ أمٌّ، حين تثكل طفلها
تذوي وتيبس كالعصا
قالوا: تزغرد في جنازته وترقُصُ
فالجنازةُ عُرْسُهُ ...

وإذا نظرتُ إلى السماء لكي أَرى
ما لا يُرَى
قالوا: تَعَالى الشعرُ عن أَغراضه...

يغتالني النُقَّادُ أَحياناً
وأَنجو من قراءتهم،
وأشكرهم على سوء التفاهم
ثم أَبحثُ عن قصيدتيَ الجديدةْ!

# حفيف

كَمُصْغٍ إلى وَحْيٍ خفيّ، أُرهف السمع إلى صوت أوراق الشجر الصيفيّ ... صوتٍ خَفِرٍ مُخَدَّر مُتَحدِّرٍ من أَقاصي النوم ... صوتٍ شاحب ذي رائحة حنطية قادم من عزلة ريفيّة ... صوتٍ متقطعٍ مُوَزَّع بتقاسيمَ مرتجلةٍ على أوتار نسيم مُتَمَهِّل. لا يسترسل ولا يطيل الفواصل. لصوت أوراق الشجر في الصيف تَقَشُّف الهمس وتعفُّف النداء. كأنَّ الصوت هذا لي وحدي، يخطفني من ثقل المادة إلى خفّة

الإشراق: هناك، وراء التلال، وما بعد الخيال، حيث يتساوى الظاهر والباطن، أَسبح خارج ذاتي في ضوء بلا شمس. بعد غفوة تشبه الصحوة، أو بعد صحوة تشبه الغفوة، يعيدني حفيف الشجر إلى ذاتي معافىً مُصَفّىً من الوساوس والهواجس. لا أَسأل عن معنى هذا الصوت: هل هو نجوى ورقة إلى أختها في هذا الخلاء، أم هو حنين الهواء إلى قيلولة؟ صوت بلا كلام يهدهدني ويمسّدني ويحولني وعاء ينضح بما ليس منه... ولا فيه. كأنه عاطفة تبحث عن عاطفيّ ... شبيه!

# إستعارة

في هذا النهار الأزرق، تُطيل الوقوفَ
على جبل مرتفع، وتطيل النظر إلى
غيومٍ تَحْتَكَ، تغطِّي البحر والسهل. فتظنُّ
أنك أعلى من نفسك ... شِبْهُ طائرٍ
لم يوجد إلَّا في استعارة. وتُغْريك
الاستعارةُ بأن تنفصل عنها وتنظر إلى
سماء مهجورة، كصحراء زرقاء، خلوٍ من
سراب. ثم تناديك الاستعارة للرجوع
إلى مصدرها، فلا تجد طريقاً في الغيوم.

وفي هذا الليل الأزرق، ترى الجبال

تنظر إلى النجوم، وترى النجوم تنظر إلى الجبال. وتظن أنها تراك، فتشكرها على لطف المسامرة. ولا تريد الخروج من الاستعارة لئلّا تسقط في بئر الوحدة!

# في صحبة الأشياء

كنا ضيوفاً على الأشياء، أكثرُها
أقلُّ منَّا حنيناً حين نهجُرُها

النهر يضحك، إذ تبكي مسافرةٌ:
مُرِّي، فأُولى صفات النهر آخِرُها

لا شيء ينتظرُ. الأشياءُ غافلةٌ
عنا، ونحن نُحَيِّيها ونشكرها

لكننا إذ نُسَمِّيها عواطِفَنا

نصدِّقُ الاسم. هل في الاسم جوهرُها؟

نحن الضيوف على الأشياء، أكثرنا
ينسى عواطِفَهُ الأولى ... ويُنْكِرُها!

# شال حرير

شال على غصن شجرة. مرَّتْ فتاةٌ من هنا، أو مرت ريح بدلاً منها، وعلَّقت شالها على الشجرة. ليس هذا خبراً. بل هو مطلع قصيدة لشاعر متمهِّل أَعفاه الحُبُّ من الأَلم، فصار ينظر إليه ــ عن بعد ــ كمشهد طبيعةٍ جميل. وضع نفسه في المشهد: الصفصافة عالية، والشال من حرير. وهذا يعني أن الفتاة كانت تلتقي فتاها في الصيف، ويجلسان على عشب ناشف. وهذا يعني أيضاً أنهما كانا يستدرجان العصافير

إلى عرس سري، فالأفق الواسع أَمامهما، على هذه التلة، يغري بالطيران، ربما قال لها: أَحنُّ إليكِ، وأَنتِ معي، كما لو كنتِ بعيدة. وربما قالت له: أَحضنكَ، وأَنت بعيد، كما لو كنتَ نهديَّ. وربما قال لها: نظرتك إليَّ تذوِّبني، فأصير موسيقى. وربما قالت له: ويدك على ركبتي تجعل الوقت يَعْرَق، فافْرُكْني لأذوب ...

واسترسل الشاعر في تفسير شال الحرير، دون أن ينتبه إلى أن الشال كان غيمة تعبر، مصادفة، بين أغصان الشجرة عند الغروب.

## ما يشبه الخسارة

أَصعدُ من هذا الوادي، على درجات نفسي تقريباً. أَصعد إلى ربوة عالية لأرى البحر. لا أُغنية تحملني ولا سوء تفاهم مع الكينونة. أَتسلَّى بمراوغة ظلِّي، وبالتفكير المريح في مآل قوس قزح الذي يلهيني، فجأة، عن ظلِّي المشتبك بعوسجة جرحته ولم ينزف. أَنحني عليه لأسعفه من وخزات الشوك، فتنغرز شوكةٌ في يدي وتسيل قطرةُ دمٍ حمراءُ خِلْتُها، في البداية، انعكاساً لأحد ألوان قوس قزح.

لكن أَلماً خفيفاً في يدي نَبَّهني إلى أَن ما تفعله الشمسُ بكثافة الماء الطائرِ هو شيء آخر. ضمَّدتُ جرحي التافه بمنديل ورقيّ، وواصلتُ الصعود إلى الربوة العالية لأرى البحر. لكن الغيوم تكاثفت وغطَّت السهلَ والجهاتِ والبحرَ الذي وقع أَسيراً في إحدى الحروب. هبط الليل على كل شيء، وظهرتْ أضواء المستعمرات من كل ناحية. وحين نزلتُ على درجات نفسي تقريباً، من الربوة العالية إلى الوادي، تذكَّرتُ أني نسيتُ ظلِّي عالقاً بعوسجة. لا أعرف إن كنت حزنت أَم لا، فإنَّ خسارةً أدبيَّةً مثلَ هذه لا تصلح للتدوين. وقلت: غداً أصعد إلى ربوة أعلى لأرى البحر خلف المستعمرات. لكني سأربط ظلي برَسَنٍ لئلّا أُضيّعه مرة ثانية!

# أَرضٌ فضيحة

أَرضٌ ضيِّقةٌ هي تلك الأرض التي نسكنها وتسكننا. أَرض ضيِّقة لا تَتّسع لاجتماع قصير بين نبيّ وجنرال. وإذا تعارك ديكان على دجاجة وعلى خُيَلاء، تطاير ريشهما عن الأسوار. أرضٌ ضيِّقة لا حميميةَ فيها لنكاح بين ذكر الحمام وأُنثى الحمام. أَرضٌ فضيحةٌ. أَرضٌ صفراءُ الصيف ينقر الشوك فيها وجه الصخر لتزجية الوقت، حتى لو قالت قصائدنا عكس ذلك، وأَمدَّتها بمختارات من أوصاف

الفردوس لإشباع جوع الهوية إلى جماليات. ونحن، رواةَ ما تحتاج إليه البداهةُ من وثائق رسمية وشعرية، نعلم أن السماء لن تتخلَّى عن أشغالها الكثيرة لتدلي بشهادتها. أَرض ضيّقة ... ونحبّها. ونظن أَنها تحبّنا أَحياء وموتى. نحبها، ونعلم أنها لا تتسع لضحكة الفاجر، ولا لصلاة الراهبة، ولا لنشر الغسيل بعيداً عن فضول الجيران، ولا تَتّسع للسطر الرابع عشر من سوناتة مترجمة. أرضٌ ضيِّقة لا ساحة فيها تكفي لمعركة حقيقيّة مع عَدُوّ خارجيّ، ولا قاعة تسع المجتمعين لصوغ ديباجة عريضة عن سلامٍ كَذِب. ومع ذلك، أو لذلك... يقولون إن أَحد الآلهة الضجرين اختارها كهفاً للخلوة، والاختفاء عن المتطفلين الذين سرعان ما سرقوا قرون أكباشنا، واستخدموها سلاحاً لإبعادنا عن باب الكهف المُقَدَّس!

# صيف وشتاء

لا جديد. الفصولُ هنا اثنانِ:
صَيْفٌ طويل كمئذنة في أقاصي المدى.
وشتاءٌ كراهبةٍ في صلاة خشوعْ.
وأَمَّا الربيعْ
فلا يستطيع الوقوف على قدميه
سوى للتحية: أَهلاً بكم
في صعود يسوعْ.
وأَمَّا الخريف،
فليس سوى خُلْوةٍ
للتأمُّل في ما تساقط من عمرنا

في طريق الرجوعْ.
فأين نسينا الحياةَ؟ سألت الفراشةَ
وهي تُحوِّم في الضوء
فاحترقتْ بالدموع!

# غيمة مُلوَّنة

وأَنا أَغسل الصحون، أمتلىء بفراغ منعش وأَملأ الوقت بفقاعات الصابون. لماء الحنفيَّة إيقاعٌ يفتقر إلى آلة موسيقية. أُصاحبه بصفير متقطّع، وبمقطع من أُغنية شائعة لا شخصية لها. أَلهو بالرغوة الشبيهة بغيمة تلمع فيها أَلوانٌ موسميَّةٌ وتنطفيء. أُمْسِكُ الغيمةَ بيديّ وأوزِّعها على الصحون والكؤوس والفناجين والملاعق والسكاكين. تَنْتَفِخُ الغيمة كُلَّما سالت عليها قطراتُ الماء. أحفِنها وأُطيِّرها

في الهواء فتضحك لي، وأزداد امتلاء بفراغي. لا أفكِّر بشيء كأني ظهيرة لا مبالية. لكن صُوَر ذكريات محايدة تهبط من مكان بعيد إلى حوض الماء، ذكريات لا تجرح ولا تفرح، كنزهة في حرش صنوبر، أو كانتظار حافلة تحت المطر، فأغسلها بحرصِ مَنْ يحمل إناء من بلّور أدبي. وحين أتأكد من أنها لم تنكسر تعود سالمةً إلى مصادرها الأولى في حرش صنوبر، وأَبقى هنا. أَلهو برغوة الصابون، وأسهو عمَّا ليس موجوداً. أنظر برضا إلى ذهني الصافي كزجاج المطبخ، وإلى خُلُوٍّ قلبي من الشوائب كصحن مغسول بعناية. وحين أحسّ بأني امتلأت تماماً بالفراغ المنعش، أملأ الفراغ بكلمات لا تخصّ أحداً سواي: بهذه الكلمات!

## ربيع سريع

مَرَّ الربيعُ سريعاً
مثل خاطرةٍ
طارت من البالِ ــ
قال الشاعر القَلِقُ

في البدء، أَعجبه إيقاعُهُ
فمشى سطراً فسطراً
لعلَّ الشكل ينبثقُ

وقال: قافيةٌ أخرى

تساعدني على الغناء
فيصفو القلبُ والأُفُقُ

مَرَّ الربيع بنا
لم ينتظر أَحداً
لم تنتظرنا «عصا الراعي»
ولا الحَبَقَ

غنّى، ولم يجد المعنى
وأَطربَهُ
إيقاعُ أُغنية ضاقت بها الطُرُقُ

وقال: قد يُولَدُ المعنى
مصادفةً
وقد يكون ربيعي ... ذلك القَلَقُ!

# ألحياة ... حتى آخر قطرة

وإن قيل لي ثانيةً: ستموت اليوم، فماذا تفعل؟ لن أَحتاج إلى مهلة للرد: إذا غالبني الوَسَنُ نمتُ. وإذا كنتُ ظمآنَ شربتُ. وإذا كنتُ أكتب، فقد يعجبني ما أكتب وأتجاهل السؤال. وإذا كنت أتناول طعام الغداء، أضفتُ إلى شريحة اللحم المشويّة قليلاً من الخردل والفلفل. وإذا كنتُ أُحلق، فقد أجرح شحمة أذني. وإذا كنتُ أقبِّل صديقتي، التهمتُ شفتيها كحبة تين. وإذا كنت

أقرأ قفزت عن بعض الصفحات. وإذا كنتُ أقشِّر البصل ذرفتُ بعض الدموع. وإذا كنتُ أمشي واصلتُ المشي بإيقاع أبطأ. وإذا كنتُ موجوداً، كما أنا الآن، فلن أفكِّر بالعدم. وإذا لم أكن موجوداً، فلن يعنيني الأمر. وإذا كنتُ أستمع إلى موسيقى موزارت، اقتربتُ من حيِّز الملائكة. وإذا كنتُ نائماً بقيتُ نائماً وحالماً وهائماً بالغاردينيا. وإذا كنتُ أضحك اختصرتُ ضحكتي إلى النصف احتراماً للخبر. فماذا بوسعي أن أفعل؟ ماذا بوسعي أن أفعل غير ذلك، حتى لو كنتُ أشجع من أحمق، وأَقوى من هرقل؟

# أثر الفراشة

أَثَرُ الفراشة لا يُرَى
أَثَرُ الفراشة لا يزولُ

هو جاذبيّةُ غامضٍ
يستدرج المعنى، ويرحلُ
حين يتَّضحُ السبيلُ

هو خفَّةُ الأبديِّ في اليوميّ
أشواقٌ إلى أَعلى
وإشراقٌ جميلُ

هو شامَةٌ في الضوء تومىء
حين يرشدنا إلى الكلماتِ
باطننا الدليلُ

هو مثل أُغنية تحاولُ
أن تقول، وتكتفي
بالاقتباس من الظلالِ
ولا تقولُ ...

أَثَرُ الفراشة لا يُرَى
أَثَرُ الفراشة لا يزولُ!

# لم أكن معي

محدِّقاً إلى السقف، واضعاً يدي على خدِّي، كمن يتلصَّص على فكرة بيضاء، أو يتربَّص بإشراقة وحي. أَنْتَبِهُ بعد ساعات إلى أَنني لم أكن هناك في السَقف ولا هنا على المقعد، ولم أُفكر بشيء. كنت مستغرقاً في اللا شيء... في الفراغ الكلي الكامل، منفصلاً عن وجودي، جاراً لعَدَمٍ غيرِ متطفِّل، وخالياً من الألم. لم أحزن ولم أفرح، فلا شأن للّاشيء بالعاطفة، ولا شأن له بالزمن. لم توقظني يَدُ ذكرى واحدة من غيبوبة الحواس. ولم توقظني خشيةُ

الأقدار من نسيان الغد. إذ كنت، لسبب ما، متأكداً من أَنني سأحيا إلى الغد. لم أسمع صوت المطر يكسِّر رائحةَ الهواء في الخارج، ولا النايـاتِ تحمل الداخل وترحل. كنت لا شيء في حضرة اللا شيء. وكنت هادئاً، آمناً، مطمئناً. فما أجمل أن يكون المرء لا شيء، مرة واحدة، مرة واحدة فقط ... لا أكثر!

## وجوه الحقيقة

ألحقيقةُ أُنثى مجازيّةٌ
حين يختلط الماءُ والنارُ
في شكلها

والحقيقةُ نسبيّةٌ
حين يختلط الدمُ بالدمِ
في ليلها

والحقيقةُ بيضاءُ ناصعةٌ
حين تمشي الضحيّةُ

مبتورةَ القَدَمَيْنِ
على مهلها

و«الحقيقةُ شخصيّةٌ»
في القصيدةِ
لا هِيَ ما هِيَ
أو عكسها
إنها ما تقطِّر من ظلِّها!

# كما لو كان نائماً

صحا من النوم دفعةً واحدة. فتح النافذة على ضوء فاتر وسماء صافية وهواء معافى. تحسَّس جسده، عضواً عضواً، فوجده سليماً. نظر إلى الوسادة ولم يرَ شعراً تساقط في الليل. نظر إلى الملاءة ولم يرَ دماً. فتح جهاز الترانزستور ولم يسمع خبراً عن قتلى جدد في العراق وغزة وأفغانستان. ظنَّ أنه نائم. فَرَكَ جفنيه أمام المرآة وتعرَّف إلى وجهه بسهولة. هتف: أنا حيّ. مشى إلى

المطبخ لإعداد القهوة. وضع ملعقةً من العسل في كأس الحليب الخالي من الدَّسَم. رأى على الشرفة كناريّاً زائراً يقف على حوض زهور نسي أن يسقيها. قال للكناريّ: صباح الخير، ونثر حوله فتات خبز. طار الكناريّ وحطَّ على فَنَنِ شجيرة وغنّى. مرة أخرى، ظن أنه نائم. نظر إلى المرآة ثانية وقال: أنا هو. استمع إلى نشرة أخبار جديدة. لا قتلى جداً في أي مكان. فرح بهذا الصباح الشاذ. قاده الفرحُ إلى طاولة الكتابة وفي باله سطر واحد: «أنا حيّ على الرغم من أنني لا أشعر بالألم». كان ممتلئاً بشغف الإنشاد لصفاءٍ بِلَّوْريّ هبط عليه من مكان بعيد: من مكانه هذا! وحين جلس إلى طاولة الكتابة وجد السطر مكتوباً على ورقة بيضاء: «أنا حيٌّ على الرغم من أنني لا أشعر بالألم». لم يظن هذه المرة أنه نائم. كان متأكداً من ذلك!

# موسيقى مرئيّة

وأنَا أستمع إلى الموسيقى، تنفتح حولي حدائق، فتصير النغمةُ زهرةً أسمعها بعينيّ. للصوت صورة، وللصورة صوت متدرِّج متموِّج ... أَبعد من مجاز أَدبي. يَخْرُجُ القرنفلُ من أحواضه، وينتشر على طاولات المطاعم الراقية لتعويض الغريب عن خسارة منسية، أو للإمعان في تدريب المُنْتَظِرِ على مفاجآت القادم. وليس على النرجس من حَرَجٍ إن أطال الاستماع إلى أُغنية الفرح في الماء، وظنَّها أُغنيةَ مديحه. أَمَّا

الزنبق الأبيض، إذا اتسع الصالون لرائحته الشاسعة اللاذعة، فإن خواطره تُضَلِّلني، على عكس البنفسج الذي يوقفني على تقاطع صوتين يتداخلان ويذوبان في تشابه الدموع بين عرس وجنازة ... وعلى عكس شقائق النعمان المكتفية بغناء الهامش الفسيح على سفوح الرَعَويَّات. كل هذا لأقول: إن الوردة الحمراء موسيقى مرئية. وإن الياسمين رسالة حنين من لا أَحد إلى لا أحد!

# الطريق إلى «أين»

[إلى سركون بولص]

أَلطريقُ طويلٌ إلى أَين؟ مرتفعاتٌ
ومنخفضاتٌ. نهارٌ وليلٌ على الجانبين.
شتاء قصير وصيف طويل. نخيلٌ
وسروٌ، وعبّاد شمسٍ على الجانبين.
مَحَطّاتُ كازٍ، مقاهٍ، ومستوصفاتٌ،
وشرطةُ سير على الجانبين. وسجنٌ
صغير، ودكّانُ تبغ وشاي، ومدرسةٌ
للبنين، وأقبيةٌ للبنات، وأَجهزةٌ
لقياس المُناخ، ولافتةٌ للأجانب: أهلاً

بكم في الطريق إلى أين؟ مرتفعات
ومنخفضات. وآثار مَوْتى رأوا موتهم
واقفاً في الطريق، فألقوا عليه التحيَّة.
قال: إلى أين؟ قالوا: إلى «أَين»!
نمشي كأنَّا سوانا. كأنَّ هناك | هنا
بين بين. كأن الطريق هو الهدف
اللانهائيُّ، لكنْ إلى أين نمضي، ومن
أين نحن إذن؟ نحن سُكَّان هذا
الطريق الطويل إلى هدف يحمل اسماً
وحيداً: إلى «أين»؟

## فكاهة الخلود

للمقابر هَيْبَةُ الهواء وسَطْوَةُ الهباء. تُشَيِّع صديقك ممدوح، وتنتظر دورك ... تنقلك روائحُ الزهور الذابلة وحفيف الأشجار إلى البعيد ... إلى ما وراء الشيء ... إلى عنوانك الأخير في ناحية من نواحي العدم. لكنك تفكِّر في ما هو أَبسط: أَلقبورُ مراتب. فمنها ما يبدو لك أنه راحة النائم. ومنها ما يحرم النائم من التطلُّع إلى سمائه المدفونة. ومنها، كالمحاذية لساحة التروكاديرو في باريس، ما يجعل النائم جزءاً من وتيرة

الحياة. فهو قريب من المقاهي والمتاحف ومواعيد الأحياء. الحياةُ في متناول قبره الرخامي. وحوله مِنْ تَنَوُّع الزهر والشجر والطير والبشر ما يُغْنيه عن الخروج إلى نزهة، بعدما أنفق مُدَّخَراته لامتلاك خُصُوصيّةِ هذا العنوان الدائم. ومن القبور ما يجعل العدم مادة مرئية، كتلك القبور المرمية في الصحراء بعيداً عن الشجر والماء. لا أَنيس للنائم الذي يحترق في حرّ الصيف ويتجمد من البرد في الشتاء. كأنه يواصل الموت بلا نهاية، حيث يخلو الموت من استعارة النوم. لكن الذين يشرفون على تشييد قبورهم، وتأثيثها بصُوَرهم، لا يُفَكِّرون براحة النوم قريباً من صداقة الأحياء، إنما يفكرون بتدريب التاريخ على القراءة. ويفكرون بما هو أَصعب: برشوة الخلود. دون أن يعلموا أن الخلود لا يزور القبور. وأَنه يحبُّ الفكاهة!

# اللامبالي

لا يُبالي بشيء. إذا قطعوا الماءَ
عن بيته قال: لا بأس! إن الشتاء
قريبٌ. وإن أَوقفوا ساعةَ الكهرباء
تثاءَبَ: لا بأس، فالشمسُ تكفي.
وإن هدَّدوهُ بتخفيض راتبه قال: لا
بأس! سوف أَصوم عن الخمر
والتبغ شهراً. وإن أَخذوهُ إلى السجن
قال: ولا بأس، أَخلو قليلاً إلى النفس
في صحبة الذكريات
وإن أرجعوهُ إلى بيته قال:

لا بأس! فالبيتُ بيتي.

وقلت له، مرة، غاضباً: كيف تحيا غداً؟
قال: لا شأن لي بغدي. إنه فكرةٌ
لا تراودني. وأنا هكذا هكذا: لن
يغيِّرني أيُّ شيء، كما لم أُغيِّر أنا
أيَّ شيء ... فلا تحجب الشمس عني!
فقلتُ له: لستُ اسكندر المتعالي
ولست ديوجين
فقال: ولكنَّ في اللامبالاة فلسفةً،
إنها صِفَةٌ من صفات الأَملْ!

# اللوحة والإطار

إذا انكسر إطارُ اللوحة، بسبب هزة أرضيّة خفيفة، تحملُ اللوحةَ إلى صانع أُطُرٍ ماهر، فيضع لها إطاراً رُبَّما أَجمل. أما إذا تشوّهت اللوحة، بسبب خلل فنيّ أصليّ، وبقي إطارها سليماً، فلن تحتاج إليه إلّا إذا نقص الحطب في المدفأة. كذلك هي الفكرة: إذا انكسر إطارها وجدتَ لها إطاراً أقوى وأصلب. أمَّا إذا انكسرت الفكرة، فلن يكون إطارها السليم غيرَ ذكرى حزينة، تحتفظ بها كما

يحتفظ راع خائب بجَرَس كبش من قطيعه،
افترسته الذئاب!

## ثلج

تكثَّفَ الهواءُ الأبيض، وتباطأ وانتشر كالقطن المنفوش في الفضاء. وحين لامس جَسَدَ الليل أضاءه من كل ناحية. ثلج. انقطع التيار الكهربائي، فاعتمدت على ضوء الثلج لأهتدي إلى الممر، الفاصل الموسيقي، بين جدارين، فإلى الغرفة المجاورة لشجرات النخيل الست الواقفات كراهبات على كتف الوادي. فَرَحٌ شِبْهُ ميتافيزيقي يأتيني من كُلِّ ما هو خارجي، وأَشكر الريح التي جاءت بالثلج من أقاليم لا تصل إليها

إلّا الروح. لو كنتُ غيري لاجتهدت في وصف الثلج. لكنني إذ أنخطفُ في هذا العشب الكونيّ الأبيضِ، أتخفف من نفسي فلا أكون أنا، ولا أكون غيري، فكلانا ضيفان على جوهر أبيض، مرئيّ وواسع التأويل. وحين عاد التيار الكهربائي، أطفأت الضوء وبقيت واقفاً أمام النافذة لأرى كم أنا هناك... طيفاً في ما وراء الثلج!

# عَدْوَى

قال لي، بعدما كسر الكأسَ:
لا تَصِفِ الشعرَ، يا صاحبي، بالجميل
ولا بالقويّ،
فليس هنالك شعر قويّ وشعر جميل
هنالك شعر يُصِيبُكَ، سرّاً
بعَدْوى الكتابة والانفصام، فتهذي
وتخرجُ ذاتُكَ منك إلى غيرها ... وتقول:
أنا هُوَ هذا وهذا، ولستُ أنا. وتطيل
التأمُّل في الكلمات. وحين تجس لها
نبضها، تشرئبُّ وتهمس في أُذنيك:

اقترب وابتعد، واغترب واتّحد. ويسيل
حليب من الليل. تشعر أنك طفلٌ
سيُولَدُ عما قليل!

# حوض خزامى

محتشمةً متكتّمةً، على طِيبك، كحوض خُزَامى، تجلسين قبالة مطالعي. وأَصابعي تحكُّ أصابعي، فيسقط فنجان قهوتي ــ ذريعتي وخديعتي، لتقرِّبي طِيبَكِ مني، وأَلُمَّهُ مع شظايا الهال ... فلا يصل. لأن رائحة الخزامى لا تنتقل من خِدْرها الحذر إلى المُنْتَظِر سخاءَ المخفيّ. أكثرُ من حاسة فاقدةِ الصبر تشرئبُّ إلى ما سيهبُّ من جهتك المتقشّفة المنصرفة إلى صون بكارة الرائحة الملتفّة بأوراق الكثافة. أَدنو

منك كمُقْبِل على مغامرة، كمدبر عن خوفه. أمدّ يديَّ إلى حوض الخزامى. أفركها وأَحضنها وأَشمّها وأَضمّها، ولا تقولين شيئاً. كأنك حقاً خزامى... تؤخذ رائحتها باليدين!

# أَكثر وأَقلّ

حتى لو لم تكوني ما أَنتِ عليه من حضور باهر، سأكون أنا ما أنا عليه من غياب فيك ... باطنٍ وظاهر. شفّافٌ حضورك بلّوري أرى ما وراءه من حدائق، فأنخطف إلى متاهات عليا لا يبلغها خيال تبهجه سعة المجاز ويُخرِجُهُ فقرُ الكلام المتداول. أَقول ما أقول لك بلغة تفتقر إلى كثافة العسل وخفَّة الفراشة... في حضرة هذا الممكن المتمكن من رفع المصادفة إلى مرتبة الإعجاز. فإلى أين يأخذنا صمتك المضفي على الكلام الغامض

إغواءَ التورية؟ كأني لم أكتب من قبل، ولم أحفظ ما كتبتُ لكِ في سرِّي. وشفَّافٌ حضورك، فلا أدري إن كانت روحك تسكن جسدك، أم أن جسدك يلبس روحك ويشعّ لؤلؤة في عتمتي. يختلط عليَّ الشكل والجوهر، فأرى الشكل جوهراً، والجوهر شكل الكمال. وأباريك في الصمت لئلا تزلَّ بي كلمة فأسقط على ما كنتهُ قبلك من ارتجالٍ مُتَعَثِّر. لا، لستُ شاعراً ينتظر قصيدته في ما تنثرين من إيماءات، أنت وأنا ـ إن كان لنا أَن نجتمع في عبارة واحدة كما نحن هنا في غرفة واحدة ـ ضيفان خفيفان على ما يسبق المعنى من غيوم، ممتلئان بحنين الطير إلى شجر الليل، بلا فكرة عن غد لا يعدنا بغير الأمل. فأحضر وتغيبين. وأنظر إلى غيابك يُهيل عليَّ سماء ما. حتى لو لم تكوني ما أنت عليه من غياب. سأكون أنا ما أنا عليه من حضور. كأنك معي. كأني في حاجة أكثر إلى ما هو أقلّ!

# أَغبطُ كُلَّ ما حولكِ

أغبطُ حواسي. للهواء لون الغاردينيا ... ولرائحتك على كتفيّ أقواسُ نَصْرٍ وَضَحِك. أَغبط الخناجرَ المسالمةَ النائمةَ في أَغمادها أمامك على المنضدة، في انتظار إشارة منكِ لقتلي. أَغبط المزهرية، تستغني عن وردها الأصفر بما تغدقين عليها من قرمز الشفتين الجائعتين إلى جُوعي. وأَغبط اللوحة المحدقة إليك بضراعة: انظري إليَّ أَطول لأكمل ما ينقصني من بحيرات وبساتين كرز. وأُغبط أعشاب السجّادة تشرئبُّ إلى حجلة

تهبط إليها من عل، وإلى حجلة تستريح على الركبة، فيسخن رخام الغرفة وخيالي. وأُغبط المكتبة المضطربة المكتئبة لخلوّها من كتاب شهواني في مديح ربوتين عاجيتين صغيرتين مكشوفتين أمامها على هياج الجيتارات، ومغلقتين بموجة حرير يتنهد، وأُغبط أصابعي تلتقط ما يفيض عن حاجة يديك إلى حوار الضوء والظل وحركة الملعقة في فنجان الشاي، وتحريك الملح في جسد يحنّ إلى عاصفة لتأجيج نار النشيد: يا هذه الأشياء لُمّيني وضُمّيني لأغبط ذكرياتي عنك في ما بعد. وأَغبط لساني الذي يناديك باسمك بحرص مَنْ يحمل أربع كؤوس كريستال بيدٍ واحدة. أتذوّق حروف اسمك، حرفاً حرفاً، كفواكه موسيقية. ولا أشرب الماء معها لأحافظ على مذاق الدُّراق وعلى عطش حواسي ... وأغبط خيالي يحتضنك ويسكنك ويقبّلك ويدلِّلُك ويطويك ويرخيك ويدنيك ويُقْصيك ويرفعك وينزلك، ويخضعك ويخضع لك، ويفعل ما لا أَفعل!

# قِلّي كوكباً

هل كُلُّ هذا أَنتِ؟
غامضةً وواضحةً
وحاضرةً وغائبةً معاً...
عيناكِ ليلٌ حالكٌ ... ويُضيئني
ويداك باردتان ترتجفان
لكنْ، تُوقدان الجمرَ في جسدي
وصوتك نغمةٌ مائيّةٌ ... وتُذيبني في الكأس
أنتِ كثيفةٌ وشفيفةٌ، وعصيّةٌ وأَليفةٌ
عذراءُ، أُمٌّ لابنتين:
قصيدتي

وقصيدةٍ أودى بصاحبها خيالٌ قاصرٌ!
هل كل هذا أنت؟
صيفٌ في الشتاء، وفي الخريف ربيعُ نفسكِ
تكبرين وتصغرين على وتيرة نايك السحريِّ
يخضرُّ الهواءُ على مهبِّك
يضحكُ الماءُ البعيدُ إذا نظرتِ إلى السحاب
ويفرحُ الحَجَرُ الحزينُ إذا مررتِ بكعبك العالي ...
أَهذا ... كُلُّ هذا أنت؟
قِلِّي كوكباً أو كوكبين لكي أصدِّقَ
أنك امرأة تُجَسُّ،
ولستِ موسيقى تكسِّرني كحبة بندقٍ
قلِّي قليلاً، واستقلِّي عن مجازك
كي أضمَّكِ من جهاتك
ما عدا الجهة التي أشرعتها للريح ...

## مواعيد سريّة

أوصدتُ الباب ووضعتُ المفتاح في جيبي. أغلقتُ النوافذ وأسدلت الستائر. مسحتُ الغبار عن المرآة والمنضدة ونظارتي، وشَذّبت زهور المزهرية، واخترتُ ليليات شوپان، ونزعت سلك الهاتف لئلّا تحرجني صديقتي بسؤال عما أفعل الليلة. فكيف أقول لها إني على موعد سري مع نفسي؟ هجستُ بأن الليل، كالعالم، لم يعد مكاناً آمناً ... وانتظرتُ بلا قلق موعدي. صببتُ نبيذاً أحمر في كأسين. وفكّرتُ بلا تركيز في ما

سأقول لزائرتي ـ نفسي. وَحَدَسْتُ بطريقتها الخاصة في تعريتي ونزع أَقنعتي، وبسؤالها الساخر: منذ متى لم نلتق؟ سأقول لها: منذ امتلأتِ بي وامتلأتُ بك، ولجأتِ إلى صورتي عنك، ولجأتُ إلى صورتك عني. ستسألني: لماذا إذن لم تنسَ أن تنساني؟ سأقول لها: لئلا تسرقني المصادفات من الممكنات في طريقي إلى مجهولك. ستقول لي: لا أفهمك. سأقول: ولا أنا. لم يعد العالم مكاناً آمناً، أحتاج إليك خلاصاً ... لماذا تأخَّرْتِ عن الموعد؟ ستسألني: أي موعد؟ سأقول لها: هذا الموعد ـ هل نسيتِ؟ لكنني لا أسمع جواباً، وأَتطلع إلى كأسها فلا أجدها. شربت كأسي وثملت وقلت: أَنا وحدي في ثيابي. أَعدت تشغيل الهاتف، واتصلت بصديقتي متوسلاً: تعالي إليَّ. فقالت: لا أستطيع الخروج من البيت، لأنني على موعد سِرِّيّ مع ... نفسي!

## قالت له

«الليل تاريخُ الحنين، وأَنتِ لَيْلي» ـــ
قلتَ لي، وتَرَكْتَني
وتركتَ لي لَيْلي ولَيْلَكَ باردين ...
وسوف يوجعني الشتاءُ وذكرياتُكَ
سوف يوجعك الهواءُ معطراً بزنابقي
لا بأس!
سوف أُحبُّ أوَّل عابرٍ
يبكي على امرأةٍ رَمَتْهُ إلى الهباء كما فعلتَ
سنعتني [أنا والغريبُ] بلَيْلنا ونضيئه.
سنؤثِّث الأَبد الصغير... سننتقي

[أنا والغريبُ] سريرنا وشعورنا بعنايةٍ.
ولربما نتلو معاً [أنا والغريب]
قصيدة الحب التي أَهْدَيْتَني:
«الليلُ تاريخُ الحنين
وأَنتِ ليلي»!

# عَطْس

الإحباط هو ما يلي الإحساس الزائف بالسعادة التي تشبه العطس بسبب رائحة البنزين. أَسعدني أني عطست، لكن ذلك لا يصلح لاختراع ذكرى أستعيدها. وحين أسأل: ما هي السعادة؟ أتفلسف بلا فلسفة. ولا أُحاول أَن أَتصوّف بحثاً عنها في الماوراء. قد أجدها مصادفة، وقد لا أجدها. لكني لا أبحث عنها بقدر ما أبحث عن جواب يُعزِّيني ويُسَلِّيني. وكلما تساءلت: هل

أنا الليلةَ سعيد؟ خجلت من سذاجتي، وفتحت النافذة لأرى أحوال السماء، لأن البرد أيضاً يجعلني أَعطس، ولأن النجوم كلمات في طريقها إليَّ، هكذا تأتي هنيهة السعادة من خارجي. فالفرح ليس أكثر من ورقة يانصيب رابحة لا تلزمنا بغير تقديم الشكر للمصادفة. هل حياتي هي تغاضي العدم عني الآن؟ حين كتبت هذا السؤال، انقطع التيار الكهربائي، وشعرت بالبرد دون أن أعطس!

# مديح النبيذ

أتأمَّل النبيذ في الكأس قبل أَن أذوقه / أتْركُهُ يتنفَّس الهواء الذي حُرم منه سنين. إخْتَنَقَ ليحمي الخصائص. وتخمَّر في سُبَاته، وٱدَّخَر الصيفَ لي وذاكرةَ العنب /. أتركُهُ ينتقي لونه المُسَمَّى، خطأً، أحمر. فهو مزيج من قُرْمُزيّ تشرَّب غيمة خفيفة السواد. لون لا لون له إلّا اسمه: نبيذيّ، لنرتاح من مراوغة الوصف ./ وأترُكُهُ يحترم رائحته، الرائحةَ المتكبرة المتعالية كالمُحْصَنَات من النساء. إن شئتَ

أن تَشُمَّها فلا تأتي هي إليك. عليك أنت أن تتأكَّد من طهارة يدك وخلوِّها من العطر، ثم تمدَّها بلينٍ عاطفيّ إلى الكأس كأنها تقترب من نَهْد. تقرِّبُ الكأس من أَنفك بأناة نحلة، فتبعثرك رائحةٌ عميقة سريّة: رائحةُ اللون التي تُدْخِلُكَ إلى أَدْيِرَةٍ قديمة ./ وأَتركه يستجمع خواطر مذاقه إلى أن نكون، أنا وهو، جاهِزَيْن عطشاً لاستقبالِ وَحْيٍ بالفم. لا أَتعجَّل ولا أَتمهل، فكلاهما كسر في إيقاع المتعة. أُقرِّبُ الكأس من شفتيّ بخفر المتسوِّل قبلةً أولى من امرأةٍ غامضة العواطف. أرتشف جرعة خفيفة. وأَنظر إلى أَعلى بعينين نصف مغمضتين إلى أن يسري سُلافُ نشوةٍ في شراييني. وتنفتح شهيَّتي على ما يليق بالنبيذ من حاشِيةٍ ملكية. هو النبيذ يرفعني إلى مرتبة أعلى، لا هي سماوية، ولا هي أرضية. ويقنعني بأنَّ في وسعي أن أكون شاعراً، ولو لمرة واحدة!

## على أَعالي السرو

قالت له: هل أنتَ مَنْ كَتَبَ القصيدةَ؟
قال: لا أدري. حلمتُ بأَنني حيٌّ
فقالت: ثم ماذا؟
قال: صدّقتُ المنام، وَطِرْتُ من فَرَحي
إليكِ إليكِ
قالت: ثم ماذا؟
قال: حين نطقت باسمك ردَّد الوادي
الصدى، واغرورقتْ عيناي بالرؤيا
فقالت: ثم ماذا؟
قال: لم أحلم بما هو أكثرُ

المرآةُ صافية أمامي. أنت أنت
كما رأيتك حالماً. وأنا أنا
قالت: وماذا بعد؟
قال لها: الحياة قصيرةٌ وجميلةٌ ...
هل أنتِ مَنْ كَتَبَتْ قصيدتيَ الأخيرةَ لي؟
فقالت: لا. أَنا شَبَحٌ
فقال: أنا كذلك، ربما تتسامَرُ الأشباحُ
كالأرواح
قالت: أَين نحن الآن؟
قال: على أعالي السَرْو...!

# وجهة نظر

ألفارق بين النرجس وعبّاد الشمس هو الفرق بين وجهتي نظر: الأول ينظر إلى صورته في الماء، ويقول: لا أَنا إلَّا أنا. والثاني ينظر إلى الشمس ويقول: ما أنا إلَّا ما أَعبد.

وفي الليل، يضيق الفارق، ويتسع التأويل!

## رصاصة الرحمة

أَغار من الحصان: فإذا انكسرتْ ساقه وأحسّ بإهانة العجز عن الكر والفر في الريح ... عالجوه برصاصة الرحمة. وأَنا، إذا انكسر شيء فيّ، جسديٌّ أو معنوي، أُوصي بالبحث عن قاتل ماهر، حتى لو كان من أَعدائي. سأدفع له أَجرَهُ وثمنَ الرصاصة. سأُقبِّلُ يده والمسدَّس. وإذا كنتُ قادراً على الكتابة، مَدَحْتُهُ بقصيدة عصماء، يختار هو وزنها والقافية!

## حياء

بحياء، أَنظر إلى طاسة الشحّاذ.
بحياء، أستمع إلى أغنية قديمة من أسطوانة مشروخة.
بحياء، أشمُّ عطر وردة ليست لي.
بحياء، أتذوَّق طعم التوت البريّ.
بحياء، أحكُّ أَحد أعضائي.
بحياء، أستعمل حواسي الخمس.
بحياء، أُطيع حاستي السادسة.
بحياء، أَحيا، كما لو كنتُ ضيفاً على غجريّ يتأهَّبُ للرحيل.

# الكمال كفاءة النقصان

أَلوقتُ طار، ولم أَطِرْ مَعَهُ ...
توقَّفْ ــ قلتُ ــ لم أكمل عشائي بعد،
لم أشرب دوائي كُلَّهُ،
لم أكتب السطر الأخير من الوصيّةِ،
لم أُسدِّد أيَّ دَيْن للحياة...
وقد رأَتْني جائعاً قرب السياج
فأَطْعَمَتْني حَبَّةً من تينها ...
ولقد رأتني عارياً تحت السماء
فألبستني غيمةً من قطنها ...
ولقد رأتني نائماً فوق الرصيف

فأَسكنتني نجمةً في صدرها ...
قالت: تَعَلَّمْني تَجِدْني في انتظارِكَ!
قلت: شكراً للحياة، فإنها هِبَـةٌ وموهبةٌ ...
تَعَلَّمتُ الحياة بما استطعت من الشقاء
وعلَّمتني كيف أَنساها لأَحياها ...

وقال الموت لي مُتَطفِّلاً:
لا تَنْسَني فأنا أخوها،
قلت: أُمُّكُما سؤالٌ غامض لا شأن لي فيه ...
وطار الموتُ من لُغتي إلى أَشغالِهِ.

تحيا الحياةُ ــ هَتَفْتُ حين وجدتُها عفويّـةً
فطريَّةً، تلهو وتضحك للهواء. تُحبُّنا ونحبّها ...
وتكون قاسيةً وناعمةً، وسيِّدةً وجاريةً ..
ولا تبكي على أَحد. فلا وقتٌ لديها.
تدفن الموتى على عجل، وترقص مثل غانيةٍ
وتنقص ثم تكتمل. الكمالُ كفاءةُ النقصانِ
والذكرى هي النسيانُ مرئيّاً ...

ولكني لعبتُ مع الحياة كأنها كُرَةٌ ولُعْبَـة يانصيبٍ...
لم أفكِّر مرَّةً باللغز: ما هي؟
كيف أملأها وتملأني ـــ سألْتُ وقد
رأيتُ الموت يتركني على مهلي ... لأسأل
وانتظرت الوقت. قلت: غداً سأمعن في السؤال
عن الحياة. ولم أَجد وقتاً
لأن الوقت راوغني وغافلني ... وطار!

# صبَّار

أَلصَّبَّارُ الذي يسيِّج مداخل القرى كان حارساً مخلصاً للعلامات. حين كنا أولاداً، قبل دقائق، أرشَدَنَا الصبَّارُ إلى المسالك. لذلك أطلنا السهر خارج البيوت، برفقة بنات آوى والنجوم. كذلك خبَّأنا مسروقاتنا الصغيرة من بلح وتين مجفّف ودفاتر في مخدعه الشائك. وحين كبرنا دون أَن ندري كيف ومتى حدث ذلك، أَغوتنا أزهارُهُ الصفراءُ بملاحقة البنات على طريق النبع الضاحك، وتباهينا بما على أيدينا من شوك.

ولما انطفأت الزهرة ونتأت الثمرة، كان الصَّبَّار عاجزاً عن صد سلاح الجيش الفاتك. لكنه ظلّ حارساً مخلصاً للعلامات: هنالك، خلف الصبار منازل موءودة وممالك، ممالك من ذكرى، وحياة تنتظر شاعراً لا يحبُّ الوقوف على الأطلال، إلَّا إذا اقتضت القصيدة ذلك!

## في الساحة الخالية

ساحةٌ خالية. ذباب وظهيرة وشجرة تينٍ لا تؤنس أَحداً. ينبح كلب من بعيد، وأنا أَقترب من الساحة الخالية. أفكِّر في ما وراءها، وفي ما وراء قصيدة يكتبها شاعر محبط عن رهبة الساحة الخالية: «أنا والكلام الذي قُلْتُهُ، والكلام الذي لم أَقله، وصلنا إلى ساحة خالية». هناك يرنُّ الجفافُ كقطعةٍ معدنية. وتُحْدِثُ خطاك صوتاً مشابهاً «كأنك غيرك» ... يتبعه صدى هواء ناشف «كأني

هو». وحين تكون الساحةُ خاليةً تمتدُّ الخواطرُ إلى ما قبل: إلى حياةٍ كانت هنا. جاءت من أزقَّةٍ ضيّقة، لتتشمَّس أو تتنفَّس أو لتعرض براهينها على الممكنات. لم أسأل: من أَين جئتُ؟ بل سألتُ: لماذا وصلتُ إلى الساحة الخالية؟. خفت. وحاولت الرجوع إلى أيِّ زقاق ضيِّق، فتحوَّلَت الأزقةُ كُلُّها أَفاعي. أَغمضتُ عينيّ وَفَرَكْتُهُما وفتحتهما لأرى كابوسي أمامي. لم يكن كابوساً. كان واقعاً كابوسياً. لكن الساحة الخالية اتسعت، وشجرة التين ارتفعت، والظهيرة سطعت، وتكاثر الذباب. أما نباح الكلاب فقد آنسني من بعيد، ثمَّةَ حياة هناك. ولسبب ما، غامض، تذكرت الكلام الذي لم أَقله ... تذكرته ونسيته.

## إِجازة قصيرة

صدَّقتُ أَني مِتُّ يوم السبت،
قُلْتُ: عليَّ أن أوصي بشيء ما
فلم أَعثر على شيء ...
وقلتُ: عليَّ أن أدعو صديقاً ما
لأخبره بأني مِتُّ
لكن لم أَجد أَحداً ...
وقلتُ: عليَّ أَن أَمضي إلى قبري
لأملأه، فلم أَجد الطريقَ
وظلَّ قبري خالياً مني
وقلتُ: عليَّ واجبُ أن أؤدّي واجبي:

أن أكتب السطرَ الأخيرَ على الظلال
فسال منها الماءُ فوق الحرفِ ...
قلتُ: عليَّ أن آتي بفعلٍ ما
هنا، والآن
لكنْ لم أَجد عملاً يليق بميِّتٍ

فصرختُ: هذا الموت لا معنى له.
عَبَثٌ وفوضى في الحواس،
ولن أُصدِّق أنني قد متُّ موتاً كاملاً
فلربما أنا بين بين
وربما أنا ميِّت متقاعدٌ
يقضي إجازته القصيرة في الحياة!

## الشهرة

أَلشهرةُ فضيحةُ الكائن المحرومِ من الأسرار. تُغَيِّرُ مشية صاحبها بين سريعة وبطيئة، لتلائم ما يريد لها المُشَاهِد من ثقة بصلابة الأرض. على الهامة ألَّا ترتفع كثيراً لتبقى السماءُ وجهةَ نظرٍ عامة. وعلى القامة أن تنحني قليلاً لتحية المارة والطيور التي قد تحلِّق على ارتفاع منخفض. اليد اليسرى، حاملةُ الساعة المُخْتَلَفُ على معدنها بين ذَهَبِيّ وماسيّ، تندسُّ في جيب البنطلون ذي اللون الرمادي المحايد.

واليد اليمنى تضبط حركتها بالقبض على كتاب أو جريدة. لون المعطف كُحْليّ .. لأن أي لون آخر يُهَيِّجُ الشائعات. الشهرة، وهي عُرْيُ الكائن، تقتضي حماية ما تحت الثياب من الكاميرات السرية الملأى بالصور قبل التصوير. والشهرة تغري النميمة بالارتفاع إلى مستوى الجريمة، بارتكاب اغتيال معنوي لا يعاقب عليه القانون. والشهرةُ عقوبةٌ على اللّاخطأ، تُمْلي على صاحبها ارتداء قناع الترضية ليبتسم وفق الطلب والوقوف الطويل مع الواقفين حتى لو كان حاقناً. وتملي على لسانه المفردات الجاهزات الخاويات من المعنى والقصد. الشهرة عدوّ السليقة والفطرة والبداهة، واختلاف ما يقال عما يجب أن يقال. وتحويل الواحد إلى اثنين يتحاوران في غرفة مغلقة النوافذ: من منا يراوغ نصفه الثاني ... أنا أم أنت؟. ألشهرة ضَرَّةُ العفوي ... وسجنٌ كثير النوافذ، حَسَنُ الإضاءة، والمراقبة!

## لو كنتُ صيّاداً

لو كُنْتُ صيّاداً
لأعطيتُ الغزالة فرصةً أُولى
وثانيةً
وثالثةً
وعاشرةً،
لتغفو ...
واكتفيتُ بحصَّتي منها:
سلامِ النفس تحت نُعاسِها.
أَنا قادرٌ لكنني أَعفو
وأَصفو

مثل ماء النبع قرب كِناسها.

لو كنتُ صيّاداً
لآخيتُ الغزالة ...
«لا تخافي البندقية
يا شقيقتيَ الشقيّة»
واستمعنا، آمِنيَن، إلى
عواء الذئب في حقل بعيد!

# كابوس

إذ أَصحو فجراً يمرض نهاري. لا يأتيني الكابوس من الليل، بل من فجر فاجر، كما لو أن حزناً ميتافيزيقياً يجرني إلى غابة كُحْليَّة: هناك مُسَلَّحون مُقَنَّعُون وكاميرا. يشدون وثاقي إلى جذع نخلة عراقية ثكلى، قرب نخلة أخرى رُبط إلى جذعها جواد عربي. يسألونني عن اسمي الرباعي، فأخطىء في اسم أبي وجدِّي من وطأة الفجر. لا أرى سخريتهم المُقَنَّعة، لكني أسمعهم يتهامسون: لن نُعْدِمَهُ الآن

دَفْعةً واحدة ... فما زلنا في الفصل الأول من الرواية. نقتله بالتقسيط وعلى دفعات. وسنكتفي بإعدام الحصان. وعندما فكّوا وثاقي دَسُّوا في جيبي شريط ڤيديو، وقالوا: هذا للتدريب على التعذيب ... وأعادوني إلى البيت. حين شاهدتُ الشريط لم أَفرح بأني حيّ. حزنت لأن الحصان كان ينظر إليَّ بمزيج من الشفقة والتأنيب!

# ليل العراق طويل

**[إلى سعدي يوسف]**

ألعراقُ، العراقُ دَمٌ لا تُجَفِّفُهُ الشمسُ،
والشمسُ أَرملةُ الربّ فوق العراق. يقول
القتيلُ العراقيُّ للواقفين على الجسر: عِمْتُمْ
صباحاً، فما زلتُ حيّاً. يقولون: ما زلتَ
مَيْتاً يُفَتِّشُ عن قبره في نواحي الهديلْ

أَلعراق، العراق ... ولَيْلُ العراق طويل.
ولا يبزغ الفجرُ إلّا لقتلى يُصَلُّون نصف صلاةٍ
ولا يكملون السلام على أَحَدٍ ... فالمغول

يجيئون من باب قصر الخليفة في كتف النهر،
والنهر يجري جنوباً جنوباً، ويحمل أَموالتنا
الساهرين إلى أَقرباء النخيلْ

ألعراقُ، العراقُ مدافنُ مفتوحةٌ كالمدارس
مفتوحة للجميع، من الأرمنيّ إلى التركمانيّ
والعربيّ. سواسية نحن في درس علم
القيامة. لا بُدَّ من شاعر يتساءل:
بغدادُ: كم مَرَّة تخذلين الأساطير؟ كم
مرّة تصنعين التماثيل للغد؟ كم مَرَّةً
تطلبين الزواجَ من المستحيلْ؟

أَلعراقُ، العراق ... هنا يقف الأنبياءُ هنا
عاجزين عن النطق باسم السماء. فَمَنْ
يقتل الآن مَنْ في العراق؟ الضحايا شظايا
على الطرقات وفي الكلمات. وأَسماؤهم نُتَفٌ
من حروفٍ مُشَوَّهَةٍ مثل أَجسادهم. وهنا
يقف الأنبياء معاً عاجزين عن النطق باسم

السماء، وباسم القتيلْ

أَلعراقُ، العراق، فمن أَنت في حضرة الانتحار؟
أنا لا أنا في العراق. ولا أَنت أنت. وما
هو إلّا سواهُ. تخلَّى الإله عن الحائرين
فمن نحن؟ مَنْ نحن. لسنا سوى خبر
في القصيدة: لَيْلُ العراق طويلٌ طويلْ!

# في قرطبة

أبواب قرطبة الخشبية لا تدعوني إلى الدخول لإلقاء تحيَّةٍ دِمَشْقِيَّةٍ على نافورة وياسمينة. أمشي في الأزقة الضيّقة في نهارٍ ربيعيّ مُشْمسٍ سَلِس. أَمشي خفيفاً كأني ضيف على ذاتي وذكرياتي، كأني لست قطعة أَثريّةً يتداولها السُيَّاح. لا أُربت على كتف ماضيَّ بفرحٍ يتيم، كما تتوقَّعُ مني قصيدةٌ مُرْجَأَة. ولا أخاف الحنين منذ أغلقت عليه حقيبة السفر، بل أخاف الغد الراكضَ أمامي

بخطى إلكترونية. كلما تطفَّلتُ عليه نَهَرَني قائلاً: إبحثْ عن الحاضر. لكنَّ الشعراء كثر في قرطبة. أجانب وأندلسيون. يتحدثون عن ماضي العرب وعن مستقبل الشعر. وفي حديقةٍ، قليلةِ الشأن والشجر، أرى نصباً بحجم الكفّ لابن زيدون وولّادة، فأسأل أحد شعرائي المفضّلين، ديريك ولكوت، إن كان يعرف شيئاً عن الشعر العربي، فلا يأسف عندما يقول: كلا.. لا شيء. ومع ذلك، بقينا معاً ثلاثة أيام لم نتوقف فيها عن الضحك والسخرية من الشعر والشعراء الذين وصفهم بأنهم لصوص استعارات ... سألني: كم استعارة سَرَقْتَ، فأخفقتُ في الجواب. وتبارَيْنا في مغازلة القرطبيات، وسألني: إذا أُعجبت بامرأة فهل تتقدَّم منها؟ قلت: على قدر جمالها تكون جرأتي ... وأنت؟ قال: أمَّا أنا، فإذا أَعجبتني امرأة جاءت هي إليّ. قلت: لأنك ملك وٱبن ... ما لا أعرف. وكانت زوجته الثالثة تضحك.

وفي قرطبة، وقفتُ أمام بوابة بيت خشبية
وبحثت في جيبي عن مفاتيح بيتي القديم،
كما فعل نزار قباني. لم أذرف دمعة،
لأن الجرح الجديد يخفي ندبة الجرح القديم.
لكن ديريك ولكوت فاجأني بسؤال جارح:
لمن القدس؟ لكم أَم لهم؟ ...

# في مدريد

شمسٌ ورذاذٌ وربيعٌ حائر. والأشجار عتيقة وعالية في حديقة «بيت الطلبة». الممرات مرصوفة بحصى يجعل المشي عليه أقرب إلى تدريب ساخر على رقصة فلامنكو. والظلال مثقوبة بضوء مترجرج. من على هذه التلة نطلُّ على مدريد الواسعة المنخفضة كحوض أخضر. ونجلس، أَنا والشاعر الكندي / الأميركي مارك ستراند، على مقعد خشبي لالتقاط الصور مع الطالبات والطلبة... وللتوقيع على كتبنا

المترجمة إلى الإسبانية، نتبارى في إخفاء فرح الشاعر بقارئه المجهول، غير المتوقّع ... وبسَفَرِ شعره الذي كتبه في غرفة مغلقة إلى هذه الحديقة. اقتربتْ سيدة أَنيقة مني وقالت: أنا حفيدة لوركا، فعانقْتها لأشمّ ما تسرَّب من ذراعيه إليها. وسألتها: ماذا تتذكرين منه؟ فأجابت بأنها وُلدت بعد مصرعه. قلت لها: هل تعلمين كم نحبّه؟ قالت: كل الناس تقول ذلك، فأشعر بالزهو. إنه أيقونة. وذكَّرني مدير البيت بأن هذا المكان هو أحد معالم مدريد. مَنْ لم يقرأ شعراً هنا فهو الخاسر. هنا عاش لوركا وأَلبرتي وخيمينيث وسلفادور دالي. في نهاية الندوة المشتركة طُلِب مني أن أوجّه سؤالاً إلى مارك ستراند. فسألته: ما هي الحدود الواضحة بين الشعر والنثر؟ تلعثم كما يتلعثم الشعراء الحقيقيون أمام صعوبة التحديد. ثم قال ... وهو الذي يكتب الشعر النثري: الإيقاع الإيقاع. الشعر يُعَرَّفُ بالإيقاع.

وحين خرجنا إلى الحديقة نتمشَّى على ممرَّات الحصى، لم نتكلَّم كثيراً لئلا نكسر إيقاع الليل على الأشجار العالية. ولا أَعرف لماذا تذكرت قول نيتشه الحاذق: «الحكمة هي المعنى محروماً من الغناء»!

# عالٍ هو الجبل

يمشي على الغيم في أَحلامه، ويرَى
ما لا يُرَى. ويظنُّ الغيمَ يابسةً ...
عالٍ هو الجَبَلُ

أعلى وأَبعد. لا شيء يُذَكِّرُهُ
باللامكان، فيمشي في هواجسِهِ
يمشي ... ولا يَصِلُ

كأنه هُوَ، أو إحدى صفات «أَنا»
وقد تقاسمها الضدان بينهما:

## أليأسُ والأمَلُ

كان الضبابُ كثيفاً في قصيدتِهِ
وكان يصعد من حلمي، فقلتُ له:
عالٍ هو الجبلُ!

# لا أَنتبه

أرى ما أَرى
دون أَن أَنتبهْ
وإذ، لا أرى ما أرى
يُوَرِّطني القلبُ بهْ
وأَحيا
كأني أنا
أو سوايَ
ولا أَنتبهْ!

## تلك الكلمة

أَعجبتْهُ كلمةْ
فَتَحَ القاموسَ،
لم يعثر عليها،
وعلى معنىً ضبابيّ لها ...
لكنها تسكنُهُ في الليل
موسيقيّةً منسجمهْ
مع ذاتٍ مُبهَمةْ

قال: لا بُدَّ لها من شاعرٍ
ومجازٍ ما لتخضرَّ وتحمرَّ

على سطح الليالي الـمُعْتِمَةْ

ما هِيَ؟
وَجَدَ المعنى
وضاعتْ منه تلك الكلمةْ

## صدى

في الصدى بئرٌ
وفي البئر صدى
والمدى
يبدو رماديّاً حياديّاً
كما لو أَنَّ حرباً لم تقع
أَو وَقَعَتْ أَمسِ،
وقد تأتي غداً ...

في الصدى بئرٌ
وفي البئر صدى

وأَنا أَبحث ما بينهما
عن مصدر الصوت
سدى!

# شجرة الزيتون الثانية

شجرة الزيتون لا تبكي ولا تضحك. هي سيِّدةُ السفوح المحتشمة. بظلِّها تغطّي ساقها، ولا تخلع أوراقها أمام عاصفة. تقف كأنها جالسة، وتجلس كأنها واقفة. تحيا أُختاً لأبدية أَليفة وجارةً لزمن يُعينُها على تخزين الزيت النورانيّ وعلى نسيان أسماء الغزاة، ما خلا الرومان الذين عاصروها واستعاروا بعض أغصانها لضفر الأكاليل. لم يعاملوها كأسيرة حرب، بل كجدة محترمة ينكسر السيف أمام

وقارها النبيل. في فِضَّة خضرتها المتقشّفة خَفَرُ اللون من الإفصاح، والنَظَرُ إلى ما وراء الوصف، فلا هي خضراء ولا فضيّة. هي لون السلام إذا احتاج السلام إلى فصيلة لون. لا يقول لها أَحد: كم أنت جميلة! لكنه يقول: كم أنت نبيلة وجليلة. وهي، هي التي تدرِّب الجنود على نزع البنادق، وتمرِّنهم على الحنين والتواضع: «عودوا إلى بيوتكم، وأَضيئوا بزيتي القناديل». لكن هؤلاء الجنود، هؤلاء الجنود الجدد، يحاصرونها بالجرافات ويجتثّونها من سلالة الأرض ... ينتصرون على جدّتنا التي انقلبت وصار فرعها في الأرض وجذرها في السماء. لم تبك ولم تصرخ. إلّا أن أَحد أحفادها ممن شاهدوا عملية الإعدام، رمى جندياً بحجر، واستشهد معها. وعندما مضى الجنود منتصرين، دفنَّاهُ هناك: في الحفرة العميقة ـ مهد الجدة. ولسبب ما، كُنَّا متأكدين من أنه سيصبح، بعد قليل، شجرة زيتون ... شجرة زيتون شائكة ... وخضراء!

# صفصافة

صفصافةٌ في ملتقى دربين: هل
جاء الشماليون؟ أم ذَهَبَ الجنوبيّون؟
لا حربٌ هناك ولا سلامٌ، والسماءُ
نظيفة وخفيفة فوق المكان ...
وقال لي، متأبطاً كُرّاسَهُ الشعريَّ:
هذا، يا غريب، هُويّتي

متداخلاً في الأبجدية. كُلُّ حَرْفٍ ربوةٌ
وحديقةٌ. هو، لا أنا، في الحرف
سيِّدُ نفسه. يختار عالمه الخياليَّ

البعيد من الطبيعة: رُبَّما نَقَّحْتُ
أخطاء الخريطة. ربما أَصلحتُ ما فعل
النحاسُ بإخوتي..
ويقول لي: أنا حاضر في كُلِّ شيء
غائب عن كُلِّ شيء، بين أَمس
وحاضري صفصافة
صفصافة في ملتقى زمنين
قلت: فمن تكون؟
فقال لي، متأبطاً كُرَّاسَهُ
متورطاً بكلامه الشعري:
هذا ما تبقَّى من حُطام هُويَّتي!

## حق العودة إلى الجنة

إذا كان الله قد عاقب آدم، بطرده من الأبدية إلى الزمن، فإن الأرض منفى، والتاريخ مأساة... بدأت بحرب عائلية بين قابيل وهابيل، ثم تطورت إلى حروب أهلية وإقليمية وعالمية، ما زالت مستمرة إلى أن يقضي أحفادُ التاريخ على التاريخ. فماذا بعده؟ ماذا بعد التاريخ؟ يبدو أن حق العودة إلى الجنة محفوف بالعدم وبالأسرار الإلهية. أما الطريق الممهَّد الوحيد فهو الطريق إلى الهاوية، حتى إشعار آخر ... حتى صدور العفو الإلهي.

# لولا الخطيئة

لا كما ظنَّ آدَمُ!

لولا الخطيئةُ
لولا النزولُ إلى الأرض
لولا اكتشافُ الشقاء
وإغواءُ حوّاء
لولا الحنين إلى جنَّـةٍ غابرةْ
لَـمَا كان شِعْرٌ
ولا ذاكرةْ
ولما كان للأبديَّـة معنى العزاء!

# خريف إيطالي

أُغنية تفتقر إلى كلمات إيطالية. يا له من خريف ... ويا له من خريف. السماء لا هي زرقاء ولا هي بيضاء ولا رمادية، لأن الألوان وجهاتُ نظر تختلف وتأتلف. الغيومُ الصغيرة مناشف تمسح الرذاذ عن أَعالي الجبال. وترتفع الجبال كلما دَنَتْ منها السماء. الأشجار كائنات أُنثوية خرجت للتو من حمَّام السحاب لارتداء طيورٍ لا تهاجر اليوم، لأن الخريف لا يومىء إلى زمن ذابل وَشَجَن. هو عرض أزياء احتفاليّ

لاشتقاق اللون من اللّالون. يهيِّج الحنين إلى ما يتلو الوصف، ويسبق حشرجة الكهرمان في المضاجع. الخريف شحوب الرخام إذا ما استيقظت الحواس على نداء العسل. وأَنا هنا، في ضواحي أكويلا الإيطالية، جالس وراء شرفة زجاجية واسعة ترشد النظر إلى ما ينتظر القلب من سكينة: في الوادي أَبدية تلقي التحية العابرة على زُوَّارها الصاعدين إلى سفوح جبالٍ نَقَشَ عليها التاريخُ قلاعاً حصينة لصدّ البرابرة. ثم هبط إلى الوادي مجعَّداً مطاطىء الرأس. لا شيء يثير فزع الغزلان والأرانب. ولا شيء يرسل حنيني إلى شيء، وأَنا أتابع أوراق الشجرة المتباطئة في الهبوط التدريجي إلى الأرض، كامرأة تتعرَّى على مهلها في خيال العاشق. أنا هنا ورقة الشجرة يحملني الهواء إلى نوم شتائي أصحو منه على بُرْغُمي. هنا، قرب هذه الأبدية الأليفة، اللامبالية بتاريخ القلاع، يعثر

زائـر مـثـلـي عـلـى مـعـنـى مـا مـن مـعـانـي
الـغـيـوم، فيقـول: حـمـداً لـلـخِـفَّـة .. حـمـداً!

# مسافران إلى نهر

رأيتُ الحبّ عن بعد خمسة أمتار. رأيته جالساً على مقعد في قاعة المسافرين إلى عناوين غير مرتجلة. ألمطار مزدحم. الفتى الفرنسيّ والفتاة اليابانية غريبان عن الزحام. ملفوفان، كما بدا لي، بغمامة واحدة زرقاء. يتناوبان النُعاس ولا يلتفتان إلى ما هو خارجهما. تنظر إليه حين يضع رأسه على كتفها نظرةً حريريَّةً تحرص على ألّا تخترقه. كأنها لا تريد له أن يراها تراه، كأنهما في أوَّل الحب وتخجل من أن

يعرف كم ستحبُّه. ثم يتبادلان الخَفَر ... ينظر إليها حين تضع رأسها على كتفه نظرة مَنْ يخشى على تُحْفَةٍ بلّورية هشّة من الانكسار. وحين تلتقي النظرتان على شغف وشفافية، تنهض الفتاة لتشتري زجاجة ماء. تسقي الفتاةُ الفتى كأنها ترضعه، ويسقيها كما لو أنه يُقَبِّلها. طويتُ رواية الرحلة لأرى صورة الحب عن بعد. ارتعشت وانتعشت بموجة عطر خفيّ هَبَّتْ عليَّ من فتاة يابانية وفتى فرنسي بلغا من الرهافة منزلة غزال وظبية. لم يقل لها شيئاً. ولم تقل له شيئاً. فقد اكتفيا بفواصل الصمت في الموسيقى اليابانية. لعلهما لم يبلغا سنَّ الكلام عمَّا هما فيه من تلاشي الواحد في الآخر. لو قالت له شيئاً لكان: النهر الذي سنجتازه بعد هذه الرحلة يمرُّ قرب بيتنا. ولو قال لها شيئاً لكان: النهر الذي سنجتازه بعد هذه الرحلة هو بيتنا!

## قاتل وبريء

هُوَ الحُبُّ، كالموجِ
تكرارُ غبطتنا بالقديم ــ الجديد
سريع، بطيء
بريء كظبي يسابق درّاجةً
وبذيء ... كديكْ
جريء كذي حاجةٍ
عصبيٌّ المزاج رديء
هادىء كخيالٍ يرتِّب ألفاظه
مظلمٌ، معتمٌ ... ويضيء
فارغٌ ومليء بأضداده

هو الحيوان | الملاك
بقوّة أَلف حصان، وخفَّة طيف
وملتبسٌ، شَرِسٌ، سَلِسٌ
كلما فرّ كرَّ
ويُحْسنُ صنعاً بنا ... ويُسيء
يفاجئنا حين ننسى عواطفنا
ويجيء ...
هو الفوضويّ | الأنانيّ |
والسيِّد | الواحد | المتعدِّدُ

نُؤْمنُ حيناً، ونكفر حيناً
ولكنه لا يُبالي بنا
حين يصطادنا واحداً واحدةْ
ثم يصرعنا بيد باردةْ

إنه قاتلٌ ... وبريء!

# كأنها أغنية

كما لو حلمتُ: رأيتكِ بيضاءَ، سمراءَ،
حنطيّةً ... تَصْطَفين من اللون تأويله.
تجلسين على ركبتيّ، كأنك أنتِ. كأني
أنا. ولنا ما يُعدُّ لنا الليل من
نُزْهَةٍ في حدائقه الليلكيّة. كُلُّ هناك
هنا. كُلُّ شيء لنا. أنتِ لي، وأنا لك
والظل ـ ظلّك يضحَكُ كالبرتقالة. والحلم
أدَّى مهمته مثل ساعي البريد، وطار
إلى غيرنا. فعلينا إذن أن نكون
جديرَيْن، هذا المساء، بنا ... وبنهر
يرافقنا، ونفيض به ويفيض بنا!

## شاعري / آخَري

أَلقصيدةُ تُولَدُ في الليل من رحم الماء.
تبكي، وتحبو، وتمشي، وتركض في الحلم
زرقاءَ بيضاءَ خضراءَ. ثم تَشبُّ وتهربُ
في الفجر /
يَحْدُثُ هذا، وشاعرها نائم لا يُحسُّ بها
وبما حوله. لا يراها تغافله وتطير إلى
غيره.
في الصباح، يقول: كأني حلمت بها،
بالقصيدة ... أَين هي الآن؟
يشرب قهوته شارداً، حاسداً غيره
ويقول أخيراً: هنيئاً له شاعري / آخري!

# سماء صافية وحديقة خضراء

أَلسماءُ الصافية تفكير بلا فكرة كحديقةٍ كُلُّها خضراء. قصيدة لا عيب فيها سوى إفراطها في الوضوح. تفتقر السماء إلى غيمة ولو عابرة لتوقظ الخيال من خَدَر الأزرق. وتفتقر الحديقة الخضراء إلى لون آخر، أحمر أو أصفر أو ليلكي، وإلى بنات آوى، لكي يحار القلب بين الأنواع. فالجاهز خصم الحافز. والقصيدة محتاجة إلى ما يشبه الخلل الماكر لكي نصدِّق الشاعر حين يكذب ويكتب عن حيرة الروح

بين سماء صافية وحديقة خضراء. فما حاجتنا للشعر إذا قال الشاعر: إن السماء صافية. وإن الحديقة خضراء؟

# كلمة واحدة

هسيسُ الكلمة في اللّامرئيّ هو موسيقى المعنى، يتجدد في قصيدة يظنُّ قارئها، من فرط ما هي سريَّة، أنه كاتبها!

كلمةٌ واحدةٌ، كلمة واحدة فقط، تشعُّ كماسة أو يراعة في ليل الأجناس، هي ما يجعل النثر شعراً!

وكلمةٌ عاديَّةٌ، يقولها لا مبالٍ للا مبالٍ آخر، على مفترق طرق أو في السوق، هي ما يجعل القصيدة ممكنة!

وجملةٌ نثريَّةٌ، لا وزن فيها ولا إيقاع،
إذا أَحسن الشاعر استضافتها في سياق الملائم،
ساعدته على ضبط الإيقاع، وأضاءت له
طريق المعنى في غَبَش الكلمات.

## بيت القصيد

ألشيء الناقص في القصيدة، ولا أَعرف ما هو، هو سرّها المُشِعّ. وهو، ذلك الناقص، ما أُسمِّيه «بيت القصيد»

□

حين تكون القصيدةُ واضحةً في ذهن الشاعر، قبل كتابتها، من السطر الأول حتى الأخير، يصبح الشاعر ساعي بريد، والخيالُ درّاجة!

□

أَلطريق إلى المعنى، مهما تشعّب وطال،

هو رحلة الشاعر. كُلَّما ضلَّلته الظلال اهتدى!

□

ما هو المعنى؟ لا أَعرف. لكني قد أَعرف ما هو نقيضه. نقيضه هو استسهال العَدَم!

□

ليس الألم موهبة. هو امتحانها: فإمَّا أَن تقهره ... أو يقهرها!

□

كُلُّ شِعْرٍ جميلٍ ... مقاومة

□

أَلتراث الحيّ هو ما يُكْتَبُ اليوم ... وغداً

□

أَلشاعر الكبير هو مَنْ يجعلني صغيراً حين

أكتب ... وكبيراً حين أَقرأ!

□

أَمشي بين أبيات هوميروس والمتنبي
وشيكسبير ... أَمشي وأَتعثر كنادلٍ مُتَدرِّب
في حفلة ملكية!

□

ألغيمة في خيال الشاعر ... فكرة.

□

الشعر ... ما هو؟ هو الكلام الذي نقول
حين نسمعه أو نقرؤه: هذا شعر!
ولا نحتاج إلى برهان.

# هجاء

لا يستقيم مديح السلطانة إلَّا بقصيدة عمودية: الصَّدْرُ للصدريَّة. والعَجُزُ للعَجِيزة!

ورثاء السلطان مديحٌ تأخَّر لأسباب بروتوكولية: لم يأذن الحاجب للشاعر بدخول القصر وتأدية الواجب. لكن أَذِنَ له بزيارة القبر.

لا أكره شاعراً يكرهني. لكني أعتذر عما سبَّبتُ له من ألم!

# في الخطابة والخطيب

أَلخطابة، في معظمها الآن، هي فَنُّ ابتذال المهارة. طبلٌ يناجي طبلاً في ساحة كلما اتسعتْ، وجد الصوتُ متسعاً لامتلاء الصدى بضجيج الفراغ. يتلقَّفه الخطيب ليحشوه بمزيد من هباء المعنى. الصوت، لا الكلام، هو السيِّد مرفوعاً على صدى تحميه الأكفُّ من خطر السقوط على الحقيقة. الخطابة ليست ما يريد الخطيبُ ــ المهرِّجُ قوله، فالصوت يسبق القول الغائب، والخطبة هي الغاية ... هي ما ترتجله الغريزة

من حماسة الفتك بالخصم، وما يُعْجِبُ مشاهدي مصارعة الثيران الساديين من نصال فارس بلا فروسية. الخطابة هي إعدام المعنى في ساحة عامة. المبتدأ يبدأ بعد استراحة الصوت القصيرة لارتشاف جرعة ماء. أما الخبر المتأخّر فهو متروك للارتجال المتبختر الذي تسنده آيةٌ قرآنية أُخرجت من سياقها، أو بيت شعر قاله شاعر في مدح أمير أمويّ ظنَّه الخطيب عباسياً، فأثار التصفيق. التصفيق هو المبتغى والقصد، يستعيد خلاله الخطيب اللاأفكار القادمة عليه من المشهد، فيبتسم كمن يكافىء جمهوره على حسن ظنهم بذكائهم المكتسب من فائض ذكائه، ويمنحهم نكتة تنوس بين الفكاهة والتفاهة، فيضحكون ويضحك. الخطابة هي تأليب الضجر على الضجر ببلاغة الشكوى مما لحق بالأمة من خطر الضجر. يخلع الخطيب معطفه ليدل الجمهور على موضع ضميره الحيّ. يضع يده في جيب بنطاله بحثاً عن فكرة،

ويتحرك يميناً ويساراً لأنه حائر في تمايز القوم. فإن كانوا يمينيين صدقوه، وإن كانوا يساريين صدقوه. ثم يعود إلى منزلة بين المنزلتين. ولا يكفّ عن ترديد كلمة: صَدِّقوني! الخطابة هي الكفاءة العالية في رفع الكذب إلى مرتبة الطرب. وفي الخطابة يكون «الصدق زلة لسان»!

## مناصفة

تحيا مناصفةً،
لا أنتَ أَنتَ، ولا
سواكَ
أَين «أنا» في عتمة الشَبَهِ؟

كأنني شَبَحٌ
يمشي إلى شَبَحٍ
فلا أكون سوى شخص مررتُ بِهِ

خَرَجْتُ من صورتي الأولى

لأدركه

فصاح حين اختفى:

يا ذاتِيَ انتبهي!

## أَظن

أَظنُّ،
ولا إثْمَ في مثل ظني
ولا وَهْمَ،
أني
بخيط حريرٍ أَقُصُّ الحديد
وأَني
بخيط من الصوف
أَبني خيام البعيد
وأَهرب منها
ومني
لأني ... كأنِّي!

## السطر الثاني

أَلسطرُ الأوَّلُ هِبَةُ الغيب للموهبة. أَما السطر الثاني فقد يكون شعراً أو خيبة أَمل [فروست]. السطر الثاني هو صراع المجهول مع المعلوم. خلاء الطرق من الإشارات، وامتلاء الممكن بالأضداد، فكُلُّ ممكن ممكن، وهو حيرة تقليد المخلوق الخالقَ. هل الكلمة تقود قائلها أم قائلها يقودها؟ السطر الثاني لا يوهب، بل يُصنع بكفاءة ترويض اللامرئيّ. فأنت ترى ولا ترى من شدّة التباس الضوء مع العتمة. وأنت... أنت

الذي مَنَحَكَ الإلهامُ إشارة البدء. وتخلَّى عنك لتمضي وحدك في مغامرة بلا بوصلة. أنت كمن يخرج إلى غابة دون أن تعرف ما ينتظرك: قُطّاع طرق، أم طلقة، أم صاعقة، أم امرأة تسألك: ما الزمن؟ فتقول لها: «توقّف الزمن فمرّي» [بيسّوا]. الممكن غابة. فعلى جذع أية شجرة تسند خيالك، ومن أيّ وحش تنجو؟. إذا اهتديت إلى السطر الثاني في متاهة الممكن، عرفت الطريق المعبَّد إلى موعد مع المستحيل!

# أَعلى وأَبعد

رَطْبٌ هواءُ البحر |
عَذْبٌ شَدْوُ عصفورٍ على الشُبَّـاك |

هذا ما تبقى من كلام الحلم ...
حين صَحَوْتُ، عند الفجر، قُلْتُ:
لعلَّ لاوعيي البريءَ يفضِّلُ الإيقاعَ
حين يقول لي:
«رَطْبٌ هواءُ البحر
عَذْبٌ شَدْوُ عصفور على الشُبَّـاك»

لكن، كان وعيي يرشد المعنى إلى الإيقاع

[أو بالعكس]
حين يقول لي:
صَعْبٌ صعود التلّ ... فاصعَدْ
أَعلى وأَبعدْ!

# الكناري

قرب ما سيكون
استمعنا إلى ما يقولُ الكناريُّ
لي ولَك:
ألشَّدْوُ في قَفَصٍ ممكنٌ
والسعادةُ ممكنةٌ ...

والكناريُّ حين يُغَنِّي
يقرِّب ما سيكون
غداً تنظرين إلى اليوم ــ أمسِ
تقولين: كان جميلاً

وكان قليلاً
ولا تفرحين ولا تحزنين

غداً، نتذكَّر أنَّا تركنا الكناريَّ
في قفص، وحده
لا يغنِّي لنا
بل يغنِّي لقنَّاصةٍ عابرين...

# في مركب على النيل

مركبٌ على النيل. يوم الثلاثاء. قهوةٌ وشايٌ ودخانُ سجائر. وكلام عن الدنيا التي لا نعرف غيرها. أمَّا ما يتخيَّلُهُ كل واحد من المتحلقين حول نجيب محفوظ عما وراء الدنيا، فيتقاسمه سراً مع طيور تحلِّق فوق نهر الأبدية. وهو، هو المستمع بأذن انتقائية، تأخذ الكلمات وقتَها في الوصول إليه، لا يريد للمريدين أن يفسروا كلامه المتقشف بأكثر مما فيه. يعرف من المدائح ما يكفي ليجعل العبث

زُهْداً. ولا يريد لأحد أن يحدِّق إلى صنم أو منحوتة. لكننا نحجُّ إليه، لا لنعرفه ... فقد امتلأنا برواياته وتقمَّصْنا شخوصها، بل لنحيّيه على ما كتب، ولنحيِّي أنفسنا جالسين بحضرة أسطورة حية خرجت من مخطوطة فرعونية. رأيت نساءً قادماتٍ من أقاصي حرف الضاد يُقَبِّلْنَ يده، فيخجل ولا يعرف السبب، كأنه هو ولا هو في آن واحد. ثم يضحك ضحكة عالية، ويطلب سيجارة حان وقتها ليبدِّد بسحابة دخانها قداسةً لا يصدقها ماكرٌ مثله، وللناس التأويل. عاش ليكتب. ومنذ طعنه خنجر في الرقبة تخلَّى عن سرد التفاصيل بدأب النملة، واختار تقطير النحلة. من يومها، ونحن نجيء إليه مُوَدِّعين، فالحياة انتبهت إلى نقصانها وسئم الموتُ التأجيل ... دون أن نشي بذلك، ونحن من حوله في مركب على النيل، يوم الثلاثاء! لكن يوم الثلاثاء لم يعد موعدنا!

# إدمانُ الوحيد

أَسْتَمِعُ إلى أم كلثوم كل ليلة، منذ كان الخميس جوهرتها النادرة، وسائر الأيام كالعقد الفريد. هي إدمانُ الوحيد. وإيقاظُ البعيد على صهيل فَرَسٍ لا تُرَوَّض بسرج ولجام. نسمعها معاً فنطرب واقفين، وعلى حدة فنظلُ واقفين ... إلى أَن تومىء لنا الملكة بالجلوس فنجلس على متر من ريح. تُقَطِّعنا مقطعاً مقطعاً بوَتَرٍ سحريّ لا يحتاج إلى عود وكمان... ففي حنجرتها جوقة إنشاد وأوركسترا كاملة، وسرّ

من أسرار الله. هي سماء تزورنا في غير أوقات الصلاة، فنصلِّي على طريقتها الخاصة في التجلّي. وهي أرض خفيفة كفراشة لا نعرف إن كانت تحضر أم تغيب في قطرة ضوء أَو في تلويحة يد الحبيب. لآهتها المتلألئة كماسةٍ مكسورةٍ أن تقود جيشاً إلى معركة... ولصرختها أن تعيدنا من التهلكة سالمين. ولهمستها أَن تُمْهِلَ الليل فلا يتعجّل قبل أن تفتح هي أولاً باب الفجر. لذلك لا تغمض عينيها حين تُغَنِّي لئلا ينعس الليل. هي الخمرة التي تسكرنا ولا تنفد. الوحيدةُ الوحيدةُ سعيدةٌ في مملكتها الليلية ... تُجنِّبُنا الشقاء بالغناء، وتحبِّبُنا إلى إحدى حفيدات فرعون، وتُقَرِّبنا من أبدية اللحظة التي تحفرها على جدار معبد ينصاع فيه الهباء إلى شيء ملموس. هي في ليلنا مشاع اللا أحد. منديلها، ضابط إيقاعها، بيرقٌ لفيلقٍ من عُشّاقٍ

يتنافسون على حُبّ مَنْ لا يعرفون.
أما قلبها، فلا شأن لنا به ... من
فرط ما هو قاس ومغلق كحبة جَوْزٍ
يابسة!

# في الرباط

في مدينة الرباط، المرفوعةِ على أمواج الأطلسي العالية، يمشي الشاعرُ على الشارع بحثاً عن مُصَادَفَة المعنى وعن معنى المصادفة. يعرف النخيل جيّداً، ويسأل المارة عن أسماء الأشجار الأخرى، حاملةِ الجَمْر، دون أن يحصل على جواب واحد، كما لو أَن الشجر وجهةُ نظر أو استعارة. لكن المارة يسألونه عن وجهة الاستعارة في قصيدةٍ ما نسي أنه كاتبها، فلا يقدّم جواباً واحداً، كما لو أن الاستعارة شجرةٌ مجهولة الاسم.

من تحية إلى تحية، يمشي الشاعر على الشارع كأنه يمشي في قصيدة غير مرئية، يفتتحها شيخ مغربي ينحني على كسرة خبز ... ينفض عنها التراب، ويقبِّلها ويَدَّخرها رزقاً للطيور في ثغرة جدار. ولي ... في مدينة الرباط مكان شخصي هو مسرح محمد الخامس. هناك تمتلىء نفسي بما ينقصها من ضفاف. ما أَعرفه عن نفسي ــ وهو قليلٌ ــ يكفي لأن أتوحَّد مع هذا المعبد المفتوح لمفاجآت الإلهام. كأني هناك لا أَقرأ ولا أُنشد، بل أَرتجل ما يملي عليَّ الصمتُ والضوء الخافت والعيونُ التي ترسل الإشارات، فأصوغها في عبارات وأعيدها إلى أَيدٍ تمسك بها كما لو كانت مادة شفَّافة، مصنوعةً من هواء. كأني أقرأ شعر غيري، فأطرب لأنه شعر غيري. وأنا لا أنا إلّا بقدر ما يكون الشعر هو الشاعر. لكنني أسترق النظر إلى فتاة تضحك وتبكي في ركن القصيدة القصيّ، فأبكي وأَضحك لها

متواطئاً معها على فتح أبواب المسرح للتأويل. وللمغاربة أن يقولوا: نحن مَنْ أوحى إليه!

# وصف

مرّتْ كحادثةٍ،
على الكتفين صَقْرانِ استراحا في العُلُوِّ ...
وصدرها يعلو ويهبط مثل فِعْل الحُبِّ،
يحمل توأمين تغامزا وتقافزا فوق الرخام...
وركبتاها ترسلان البرق للأَعمى ...
وساقاها عمودا هيكلٍ من مَرْمَرٍ
يتبادلان الريحَ والإعجازَ ...
والقدمان عصفوران شرّيران جوّيان — برّيانِ
والشَعْرُ المبعثر في مهبّ الريح
بيرقُ عسكريٍّ يفتح الصحراء ...

والعينان لا تتطلّعان إلى ضحاياها
فلا أَحدٌ رأى العينين كي يروي
بأيِّ بَنَفْسَجٍ صَرَعَتْهُ
تلك المرأة ــ الجنيّةُ ــ القَدَرُ
التي مَرّتْ كحادثة ...
ولكني نجوتُ، ولم يُصِبْني أَيُّ سوء
غير ضعف الوصف في هذي القصيدة!

# في سكوغوس

سكوغوس، من ضواحي ستوكهولم. غابةٌ من أشجار البتولا والصنوبر والحور والكرز والسرو. وسليم بركات في عزلته المنتقاة بمهارة المصادفة التي تهبُّ بها الريح على المصائر. لا يخرج منها منذ صار جزءاً من المشهد، محاطاً بطيور الشمال: العقعق والغراب وكسَّار الجوز ونقَّار الخشب والزرياب والقُرْقُفُ والشحرور الأسود والسمَّان والذيل الحرير. صادقها ريشاً ومنقاراً وذيلاً وهجرة، ومنحها صفاتٍ

كُرديَّةً من مشتقات القلق، لا ليكسر العُزلة، بل ليؤثِّث شروط الإقامة في البعيد ... بعيداً عما يفعل الكُتَّاب بالكتاب إذا غاروا من بلاغة المنفيّ ... وقريباً من أُلْفَةِ السناجب، والأرانب والغزلان والثعالب التي تلقي عليه التحية عبر النافذة، وتهرب وتلعب خلف تمارينه اللغوية. يستيقظ على تحرُّشات الطير بزجاج البيت المبنيّ بالطوب والخشب. يجرُّ عربته الصغيرة إلى سوق اللحم: نداءِ الحسيّ للحسيّ. يختار منه الصريح المتعطِّش إلى تدريب المتوحِّش على آداب الطهو. ويختار، لتأجيج الرغبة بين الآكل والمأكول، توابلها الحارقة الحاذقة... الفُطْر المخصَّص لمذاق التورية، ونبيذاً شيرازيّ النَّسَبِ يُوقِظُ في الشاعر نزعته إلى الطرب في خريف المنفى. يجرُّ عربته الصغيرة وسط الغابة برفقة طيور الشمال التي تعرفه من فانيلّته المبلَّلة بالمطر والعرق.

فلا أَحد سوى كرديّ مثله يتجاسر على مناخ البلاطيق. وهو إذ يهجس الآن فلا يهجس إلَّا بالطهو: قصيدةِ نهاره المرئية. الطهو موهبة اليد المدرَّبةِ على وضع الملائم في الملائم، وعلى إدراك المتخيّل الشعوري بالرائحة والطعم، وعلى إبداع المعنى الحسي مما كان بدائي الشكل. الطّهْوُ شِعْرُ الحواس إذا اجتمعت في يد ... قصيدةٌ تؤكل ولا تتحمَّل خللاً في التوازن بين العناصر. وسليم بركات لا يتحمَّل الثناء، منذ صار سريع البكاء!

# جهة المنفيّ

يَـتَـلَفَّـتُ المنفيُّ نحو جهاتِهِ
وتفرُّ منه المفرداتُ ــ الذكرياتُ
ليس الأمام أَمامَهُ
ليس الوراء وراءَهُ
وعلى اليمين إشارةٌ ضوئيةٌ
وعلى اليسار إشارةٌ أُخرى
فيسأل نفسه:
من أَين تبتدىء الحياةُ؟
ــ لا بُدَّ لي من نرجسٍ
لأكون صاحب صورتي!

ويقول: إنَّ الحُرَّ مَنْ يختار منفاهُ
لأَمرٍ ما ...
أَنا حُرٌّ إذن
أَمشي ... فَتَتَّضحُ الجهاتُ

## بوليفار سان ـ جيرمان

يقول لي جورج شتاينر: على الشاعر أن يكون ضيفاً ...

أقول: ومضيفاً!

□

الأوراقُ الذابلةُ، النازلةُ من شجرٍ يَتَعرَّى، كلمات تبحث عن شاعر ماهر يُعيدها إلى الأغصان!

□

كلما تخفَّى الإيقاعُ في الصورة صار موسيقى

مصاحبة للفكرة!

□

جالساً مع پيتر بروك، تحلِّق فوقنا طيور أرسطوفان وفريد الدين العطار في رحلة مشتركة إلى تُخوم المعنى.

□

منفى؟ يحنُّ إليه الزائر، لأنه نزهة الطائر في رحلة لا يسأله فيها أحد: ما اسمك؟ وماذا تريد؟

□

في الحافلة، أَتطلّع إلى الرصيف، فأراني جالساً على مقعد المحطة في انتظار حافلة!

□

أَلتَظَاهُرُ بالحياد الصعب، في القصيدة والرواية، هو الجريمة الأخلاقية الوحيدة التي تُغْتَفَر!

□

كَسْرُ الإيقاع، بين حين وآخر، هو ضرورة إيقاعية.

□

أَتْرُكُ الجانب الآخر من حياتي، حيث يريدُ الإقامة. وأَتبع ما تبقّى من حياتي بحثاً عن الجانب الآخر منها.

□

إحساسي يقفز مني، يحمل مظلَّةً ويسير تحت المطر. إحساسي فِعْلٌ خارجيٌّ كالمطر.

□

رياح الخريف تكنس الشارع، وتعلِّمني مهارة الحذف. الحذف كتابة.

# يكون الأَمر مختلفاً

لا. لن يكون الأمرُ مختلفاً كما
كنا نظنُّ ... لو انتظرنا ساعةً أخرى ــ
يقول لها ... ويذهَبُ |

ــ رُبَّما، لو حطَّ عصفورٌ على كتفي
لكان الأمر مختلفاً ــ
تقول له ... وتذهَبُ |

يذهبان معاً. وينفصلان عند محطة المترو
كنصْفَيْ خَوْخَةٍ، ويودّعان الصيف ...

يعبر عازفُ الجيتار بينهما، ويضحك
عندما يبكي. ويبكي حين يضحك قائلاً:
لا. قد يكون الأمر مختلفاً لو استمعا
إلى الجيتار في الوقت المناسب.
قلتُ: كلا! قد يكون الأمرُ
مختلفاً لو التفتا إلى ظلّيهما يتعانقان
ويعرقان ويسقطان على الرصيف
كمثل أوراق الخريف!

## حياة مبتدئة

في حانوت خبز، على ناصية شارع باريسي ضيِّق ... أَحتسي قهوتي الأولى. صباحاً تختلط رائحة الخبز برائحة القهوة، وتوقظان فيَّ شهية على حياة طازجة .. حياة مبتدئة، وعلى سلام طوعي مع الأشياء الصغيرة، ومع حمامات تُؤْثِرُ المشي بين المارة والسيارات على الطيران. لا أَجد غيري يجلس وحيداً إلَّا من دفتر يوميات. لكني أحس بأني أشارك السيدات المتقدمات في العمر حماستهنّ تجاه تفاصيل يروينها عن

حياةِ غيرهنّ. وأُشارك بائعات الخبز والنادلات الجميلات حيادهنَّ اللبق تجاه مغازلات الزبائن المتقدمين، أكثر مني، في السن. أَتباطأ في احتساء قهوتي لأحافظ على صحبة مفترضة مع ما حولي، فليس للغريب إلّا اختراع أُلفة ما مع مكان ما. وأنا اخترت هذا الركن من حانوت الخبز لتأليف عادة يومية، كأني على موعد مع ذكريات مجتهدة تعتمد على نفسها في النمو. وأَسترسل في التفكير بتاريخ الخبز: كيف اكتُشِفَتْ حَبَّةُ القمح الأولى في سنبلةٍ خضراء مجدولةٍ كضفيرة. وكيف راقبها شخص ما إلى أن نضجت واصفَرَّتْ؟ وكيف خطر على باله أن يطحنها ويعجنها ويخبزها حتى وصل إلى هذه المعجزة؟ أَرى حقولاً بعيدة في زمن بعيد، وأتساءل: كم استغرق هذا الإبداع من الوقت؟ تعلو رائحة الخبز الطازج، وأنظر في ساعتي ... ثم أَعود من آلاف السنين إلى حياة مبتدئة!

## يد التمثال

يَدُ التمثال، تمثالِ الجنرال أو الفنان،
ممدودةٌ ... لا لتحيَّة الشمس والمطر،
أو الجنود القدامى والمعجبين الجدد.
يَدُ التمثال ممدودةٌ كيد متسوِّل نبيل
يطلب تبرعاتٍ من العابرين، لا لمساعدته
على المشي .. بل لدفع نفقات الخلود.
فلا تحظى يَدُ الغرانيت الممدودةُ،
لا تحظى في أحسن الأحوال، إلّا
بباقة وردٍ حملها رجلٌ إلى امرأة...
تَرَكَتْهُ وحيداً قرب التمثال!

# في بيروت

بيروتُ: شمسٌ ومطر. بحر أَزرق / أَخضر وما بين اللونين من قُرْبَى ومصاهرة. لكن بيروت لا تشبه نفسها هذه المرة. تنظر إلى صورتها في المرآة، وتسأل: لماذا تريدين أن تشبهي غيرك يا جميلة؟ تضع جمالها على موجة قلقة، وتخفي أدواتِ الزينة في الأدراج. تُسَرِّحُ شعرها بيدين نزقتين وتنتظر، دون أن تعرف ما تنتظر كوردة على قارعة الطريق العام. لكن المناخ مكتظ بأسرار

الغيوم القادمة من جهتين: من الصحراء ومن البحر ... ولا سيطرة للخيال على فوضى المفاجآت. تضع خيالها جانباً، وتُسْلِمُ نفسها لأغنية تمدح اللامعنى دون أن ترقى إلى شرف العبث. بيروت محرومة من نسيان جرحها، ومحرومة من تَذَكُّر غدها المتروك لرمية نرد في لعبة بلا قواعد، كتجريبيّة شعر ما بعد الحداثة في مقاهيها الخالية من الرُوَّاد. لا أَحد يربح، والكل خاسر، حتى لو قال صديقي أنسي الحاج «والرابح يخسر والخاسر يربح». بيروت الحزينة تُخَدِّر حزنها بأغنية سابقة عن زمن سابق: عن ريفٍ وأَرْزٍ وبراءة ومُبَارَزَةٍ بين عاشقين على عروس. فينام الحزن لساعات، لكن الخوف لا ينام. بيروت خائفة على نفسها ومن نفسها، ومما تعدُّ لها العاصفة من معلومٍ في صورة مجهول!

# عودة حزيران

أَربعون حزيران: دَبَّابةٌ في الطريق إلى
البيت. بُرْجُ مُراقَبَـةٍ عسكريٌّ لرصد الطيور.
حمام يُحَلِّقُ في نصف دائرةٍ. نَخْلَةٌ عاقرٌ.
ضَجَرٌ فاجر يقتل الأخُ فيه أَخاه، ويهرب
من أُمِّه. وشعارٌ يضيء الشوارع: «نحن
نحبُّ الحياة ونكره أَعداءها». شارع ضيِّـق
لا تمرُّ به الفتيات. مظاهرة للتلاميذ
ضدَّ الخرائط. «لا ربَّ ينزل عن
عرشه» ـــ قال لي عابر ساخر: ليس
لي بَطَلٌ منذ جاء حزيران مسترسلاً.

أنا واللّهُ صرنا وحيدين! ما الزمن
الآن؟ ــ في ساعتي خَلَلٌ ــ قلتُ.
قال: وفي ساعتي خلل مزمنٌ. مَرّتِ
الشاحنات تُقِلُّ بضائعَ عبريّةَ التسميات:
صناديق ماء. فواكه. قمحاً وخمراً. فقال:
كأنَّا نسينا ينابيعنا والكروم وأَسماءنا،
وكأنَّ القناع هو اسم الهوية: أَنْ لا
نُرَى واضحين نَرَى الغامضين هنا جيِّداً.
وهنا أَربعون حزيران. أَرض تَقَلُّ وسُكَّانُها
يكثرون ... يفيضون عن حاجة العشب للفقراء،
وعن حاجة الإشكناز إلى العَمَل العربيّ.
ولكنهم يصمدون، ولو مرغمين، ولا يرحلون
إلى كندا. هذه أَرضنا، والسماء حقيقيّةٌ
لا مجاز ... وعاليةٌ مثل آمالنا. قال لي:
هل حزيران ذكرى؟ فقلت: هي الجرحُ
ينزف حيّاً وحيّا، ولو قال صاحبه: قد
نسيتُ الألَم!

## ليتنا نُحْسَد

تلك المرأةُ المهرولةُ، المُكَلَّلةُ ببطانيةِ صوفٍ وجرَّة ماء ... وتجرُّ بيدها اليمنى طفلاً، وبيدها اليسرى أُختَه. ومن ورائها قطيع ماعز خائف. تلك المرأة الهاربة من ساحة حرب ضيِّقة إلى ملجأ غير موجود ... أَعرفها منذ ستِّين عاماً. إنها أُمي التي نسيتني على مفترق طرق، مع سلّة خبز ناشف وشمعة وعلبة كبريت أَفسدها الندى.

وتلك المرأة التي أراها الآن في الصورة

ذاتها على شاشة تلفزيون مُلَوَّن ... أَعرفها جيداً منذ أربعين عاماً. هي أُختي التي تكمل خطى أُمِّها ـ أُمِّي في سيرة التيه: تهرب من ساحة حرب ضيِّقة إلى ملجأ غير موجود.

وتلك المرأة التي سأراها غداً في المشهد ذاته، أَعرفها هي أيضاً. إنها ابنتي التي تركتها على قارعة القصائد، كي تتعلَّم المشي فالطيرانَ إلى ما وراء المشهد. فلعلَّها تثير إعجابَ المشاهدين وخيبةَ القنَّاصة. إذ إنّ صديقاً ماكراً قال لي: آن لنا أَن ننتقل، إذا ما استطعنا، من موضوع يُشْفَق عليه ... إلى ذاتٍ تُحْسَد!

# أنت، منذ الآن، غيرك

هل كان علينا أَن نسقط من عُلُوّ شاهق، ونرى دمنا على أَيدينا ... لندرك أَننا لسنا ملائكةً كما كنا نظن؟

□

وهل كان علينا أن نكشف عن عوراتنا أمام الملأ، كي لا تبقى حقيقتنا عذراء؟

□

كما كذبنا حين قلنا: نحن استثناء!

□

أن تصدِّق نفسك أسوأ من أن تكذب على غيرك!

□

أن نكون ودودين مع من يكرهوننا، وقساةً مع من يحبوننا ـ تلك هي دونية المتعالي، وغطرسةُ الوضيع!

□

أَيها الماضي! لا تغيِّرنا كلما ابتعدنا عنك!

أيها المستقبل! لا تسألنا: مَنْ أَنتم؟ وماذا تريدون مني؟ فنحن أيضاً لا نعرف.

أَيها الحاضر! تحمَّلْنا قليلاً. فلسنا سوى عابري سبيل ثقلاء الظل!

□

أَلهوية هي ما نُورِثُ لا ما نرث. ما نخترع لا ما نتذكر. الهوية هي فساد المرآة

التي يجب أن نكسرها كلما أَعجبتنا الصورة!

□

تَقَنَّعَ وتشجَّعَ، وقتل أمّه ... لأنها هي ما تيسَّر له من الطرائد ... ولأن جنديَّةً أوقفته وكشفت له عن نهديها قائلة: هل لأمك يا ابن الزانية ... مثلهما؟

□

لولا أن محمداً هو خاتم الأنبياء، لصار لكل عصابة نبيّ، ولكل صحابي ميليشيا!

□

أَعجبنا حزيران في ذكراه الأربعين: إن لم نجدْ من يهزمنا ثانية هزمنا أَنفسنا بأيدينا ... لئلا ننسى!

□

مهما نظرتَ في عينيَّ، فلن تجد نظرتي هناك. خطفتها فضيحة!

□

قلبي ليس لي ... ولا لأحد. لقد استقلَّ عني دون أن يصبح حجراً.

□

هل يعرف مَنْ يهتف على جثة ضحيته ــ أخيه: «الله أكبر» أنه كافر إذ يرى الله على صورته هو: أَصغرَ من كائن بشريّ سويٍّ التكوين.

□

أَخفى السجينُ، الطامحُ إلى وراثة السجن، ابتسامة النصر عن الكاميرا. لكنه لم يفلح في كبح السعادة السائلة من عينيه. ربما لأنَّ النص المتعجِّل كان أقوى من المُمَثِّل.

□

ما حاجتنا للنرجس ... ما دمنا فلسطينيين؟

□

وما دمنا لا نعرف الفرق بين الجامع والجامعة، لأنهما من جذور لغوي واحد، فما حاجتنا

للدولة ... ما دامت هي والأيام إلى مصير واحد؟

□

لافتة كبيرة على باب نادٍ ليليّ: نرحِّب بالفلسطينيين العائدين من المعركة. الدخول مجاناً. وخمرتنا لا تُسْكر!

□

لا أستطيع الدفاع عن حقي في العمل، ماسحَ أحذيةٍ على الأرصفة، لأنَّ من حقّ زبائني أن يعتبروني لصَّ أحذية ـ هكذا قال لي أستاذ جامعيّ!

□

«أنا والغريب على ابن عمِّي. وأنا وابنْ عمي على أخي. وأنا وشيخي عليَّ». هذا هو الدرس الأول في التربية الوطنية الجديدة، في أقبية الظلام.

□

مَنْ يدخُلُ الجنة أولاً؟ مَنْ مات برصاص العدو، أم من مات برصاص الأخ؟ بعض الفقهاء يقول: «رُبَّ عَدُوّ لَكَ ولدته أمُّك»!

□

حار الفقهاء أمام النائمين في قبور متجاورة: هل هم شهداء حرية؟ أم ضحايا متناحرة في عبث المسرحية؟ حار الفقهاء واتفقوا على أمر واحد هو: أن الله أعلم.

□

القاتل قتيل أيضاً!

□

سألني: هل يدافع حارس جائع عن دارٍ سافَر صاحبها، لقضاء إجازته الصيفية في الريفييرا الفرنسية أو الإيطالية ... لا فرق. قلت: لا يدافع!

□

وسألني: هل أنا + أنا = اثنين
قلت: أنت وأنت أَقَلُّ من واحد.

□

لا أَخجل من هويتي، فهي ما زالت قيد التأليف، لكني أخجل من بعض ما ورد في مقدمة ابن خلدون!

□

أنت، منذ الآن، غيرك!

## أَنت، منذ الآن، أَنت

الكرملُ في مكانه السيِّد ... ينظر من علٍ إلى البحر. والبحر يتنهَّد، موجةً موجةً، كامرأةٍ عاشقةٍ تغسل قَدَمَيْ حبيبها المتكبِّر!

□

كأني لم أَذهب بعيداً. كأني عُدْتُ من زيارة قصيرة لوداع صديقٍ مسافر، لأجد نفسي جالسة في انتظاري على مقعد حجري تحت شجرة تُفَّاح.

□

كل ما كان منفى يعتذر، نيابةً عني،
لكُلّ ما لم يكن منفى!

□

ألآن، الآن ... وراء كواليس المسرح،
يأتي المخاض إلى عذراء في الثلاثين،
وتلدني على مرأى من مهندسي الديكور،
والمصوِّرين!

□

جرت مياه كثيرة في الوديان والأنهار.
ونبتت أعشاب كثيرة على الجدران. أَمَّا
النسيان فقد هاجر مع الطيور المهاجرة ...
شمالاً شمالاً.

□

ألزمن والتاريخ يتحالفان حيناً، ويتخاصمان
حيناً على الحدود بينهما. الصفصافةُ العاليةُ
لا تأبه ولا تكترث. فهي واقفة على
قارعة الطريق.

□

أَمشي خفيفاً لئلَّا أكسر هشاشتي. وأَمشي ثقيلاً لئلَّا أَطير. وفي الحالين تحميني الأرض من التلاشي في ما ليس من صفاتها!

□

في أَعماقي موسيقى خفيَّة، أَخشى عليها من العزف المنفرد.

□

ارتكبتُ من الأخطاء ما يدفعني، لإصلاحها، إلى العمل الإضافيّ في مُسَوَّدة الإيمان بالمستقبل. من لم يخطىء في الماضي لا يحتاج إلى هذا الإيمان.

□

جبل وبحر وفضاء. أطير وأسبح، كأني طائرٌ جوّ ــ مائي. كأني شاعر!

□

كُلُّ نثر هنا شعر أوليّ محروم من صَنْعَة الماهر. وكُلُّ شعر، هنا، نثر في متناول المارة.

□

بكُلِّ ما أُوتيتُ من فرح، أُخفي دمعتي عن أوتار العود المتربِّص بحشرجتي، والمُتَلصِّص على شهوات الفتيات.

□

ألخاص عام. والعام خاص ... حتى إشعار آخر، بعيد عن الحاضر وعن قصد القصيدة!

□

حيفا! يحقّ للغرباء أن يحبُّوكِ، وأن ينافسوني على ما فيك، وأن ينسوا بلادهم في نواحيك، من فرط ما أنت حمامة تبني عُشَّها على أنف غزال!

□

أنا هنا. وما عدا ذلك شائعة ونميمة!

□

يا للزمن! طبيب العاطفين .. كيف يُحوِّل الجرح ندبة، ويحوِّل الندبة حَبَّة سمسم. أنظر إلى الوراء، فأراني أركض تحت المطر. هنا،

وهنا، وهنا. هل كنتُ سعيداً دون أن أدري؟

□

هي المسافة: تمرين البصر على أعمال البصيرة، وصقلُ الحديد بناءٍ بعيد.

□

جمال الطبيعة يهذِّب الطبائع، ما عدا طبائع مَنْ لم يكن جزءاً منها. الكرمل سلام. والبندقية نشاز.

□

على غير هُدىً أمشي. لا أبحث عن شيء. لا أبحث حتى عن نفسي في كل هذا الضوء.

□

حيفا في الليل ... انصراف الحواس إلى أشغالها السرية، بمنأى عن أصحابها الساهرين على الشرفات.

□

يا للبداهة! قاهرة المعدن والبرهان!

□

أُداري نُقَّادي، وأُداوي جراح حُسَّادي على

حبِّ بلادي ... بزِحافٍ خفيف، وباستعارة حمَّالةِ أَوجُه!

□

لم أَرَ جنرالاً لأسأله: في أيّ عامٍ قَتَلْتَني؟ لكنني رأيتُ جنوداً يكرعون البيرة على الأرصفة. وينتظرون انتهاء الحرب القادمة، ليذهبوا إلى الجامعة لدراسة الشعر العربي الذي كتبه موتى لم يموتوا. وأَنا واحد منهم!

□

خُيِّل لي أن خُطَايَ السابقة على الكرمل هي التي تقودني إلى «حديقة الأم»، وأَن التكرار رجع الصدى في أُغنية عاطفية لم تكتمل، من فرط ما هي عطشى إلى نقصان متجدِّد!

□

لا ضباب. صنوبرة على الكرمل تناجي أَرزة على جبل لبنان: مساء الخير يا أُختي!

□

في قلبي منطقةٌ ما، غيرُ مأهولة، تُرَحِّبُ

بالصغار الباحثين عن حيِّز غير محتل، لنصب مُخَيَّم صيفيّ!

□

أَعْبُرُ من شارع واسع إلى جدار سجني القديم، وأقول: سلاماً يا مُعَلِّمي الأول في فقه الحرية. كُنْتَ على حق: فلم يكن الشعر بريئاً!

□

هل قال أحدهم: إن سيد الكلمات هو سيّد المكان؟ ليس هذا زهواً ولا لهواً. إنه أُسلوب الشاعر في الدفاع عن جدوى الكلمات، وعن ثبات المكان في لغة متحركة!

□

لرائحة الشجر الصيفية نكهة إيروسية. هنا تداخلتُ في العشب والزَّغَب والنَّمَش وسواه، تحت ضوء القمر!

□

حيفا تقول لي: أنت، منذ الآن، أنت!

# صدر للشاعر

- أوراق الزيتون
- عاشق من فلسطين
- آخر الليل
- حبيبتي تنهض من نومها
- العصافير تموت في الجليل
- أُحبك، أو لا أُحبك
- محاولة رقم ٧
- تلك صورتها، وهذا انتحار العاشق
- أعراس
- مديح الظل العالي
- حصار لمدائح البحر
- هي أُغنية، هي أُغنية
- ورد أَقل
- مأساة النرجس، ملهاة الفضة
- أرى ما أريد

- أحد عشر كوكباً
- ديوان محمود درويش (جزآن)

## وعن
## «رياض الريّس للكتب والنشر»

**لماذا تركت الحصان وحيداً**

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥

الطبعة الثالثة شباط/ فبراير ٢٠٠١

**سرير الغريبة**

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠٠

**جدارية**

الطبعة الأولى حزيران/ يونيو ٢٠٠٠

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠١

**حالة حصار**

الطبعة الأولى نيسان/ أبريل ٢٠٠٢

الطبعة الثانية حزيران/ يونيو ٢٠٠٢

**لا تعتذر عما فعلت**

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤

الطبعة الثانية: شباط/فبراير ٢٠٠٤

**الأعمال الجديدة**

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤

**كزهر اللوز أو أبعد**

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥

الطبعة الثانية: تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥

**الديوان: الأعمال الأولى (٣ أجزاء)**

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٥

**في حضرة الغياب (نص)**

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦

**ذاكرة للنسيان**

الطبعة الثامنة: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧

**يوميات الحزن العادي**

الطبعة الرابعة: حزيران/يونيو ٢٠٠٧

**حيرة العائد**

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٧

# الأعمال الجديدة الكاملة

# محمود درويش

RIAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 9953-21-158-2

9 789953 211589